مجلد ٥ — عدد ١٩

أبريل ١٩٤٧

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

اندريه چيد

مدرسة الزوجات

يليها

روبير و چنفشيف

تعريب صبري فهمي

ظهر حديثاً



٣١٢ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً

البريد ٢٤ مليما

نابليون

تأليف إميل لودفيج

ترجمه عن الألمانية
محمود إبراهيم الدسوقى

البطل الذى اكتشف لودفيج وراء قناع بطولته محيا الانسان ، فتجلت بطولتـه فى إنسانيته ، وفاقت كل ما عرف إلى الآن .

طبعة مزينة بالصور فى جزأين

الجزء ٣٥٠ صفحة
ثمن الجزء ٤٥ قرشاً (البريد ٣٦ مليما)

كليمنصو
وحياته العاصفة

تأليف ليون دوديه

تعريب حسن محمود

كليمنصو . . . مسقط الوزارات . . . النمر
الرجل الذى عاش حراً فأصبح مغلولا
الرجل الذى طلب أن يدفن واقفاً فى القبر
زعيم فى السياسة بقلم زعيم فى الأدب

طبعة مزينة بالصور

٢٨٨ صفحة
الثمن ٣٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)

من حولنا

قصص مصرية

تأليف محمد سعيد العريان

جيل من الناس فى أفراحه وآلامه ، يرى كل قارئ فى مرآته صورة من نفسه ، أو صورة من حوله ، فى إطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه .

٢٦٠ صفحة
الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ مليما)

حكايات فارسية

بقلم يحيي الخشاب

كتاب يحمل إلى قراء العربية عبيراً رقيقاً حسن الموقع فى النفس من هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها من رقة وفطنة وفكاهة .

١٩٦ صفحة
الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)



من أبطال الأساطير اليونانية

أوديب و ثيسيوس

تأليف أندريه جيد

ترجمة
طه حسين

صديقى أندريه جيد

سمعتك تقرأ لنا قصتى « أوديب » و « ثيسيوس » فعرفت الحنان الخاص الذى تؤثرهما به . ومن أجل هذا علمتهما العربية ليبلغا إلى قراء الشرق رسالتك التى هى ثقة وشجاعة واستبشار . وسيشهدان كذلك بما أضمر من إعجاب بك قد أصبح منذ التقينا وداً كريماً .

طه حسين

كتابان
فى مجلد واحد

٣١٠ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً

البريد المسجل ٤٤ مليما وللخارج ٥٦ مليما

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٠٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى

جمادى الأولى ١٣٦٦ ابريـل ١٩٤٧

السنـــة الثانيـــة مجلد ٥ — عدد ١٩

رفيـــــق

١

كان ذلك فى ساعة من ساعات الضحى ، حين كان النهار يحب أن يبطئ فى سعيه ، ليحبس الصبية والشباب من أهل الكتّاب ، و يمسكهم فى حياتهم تلك التى كانت تخضعهم لعنف سيدنا ومكر العريف ، ويؤخر عنهم هذه اللحظة السعيدة التى يؤذن لهم فيها بالانطلاق ليصيبوا غداءهم ، والتى كانوا ينتظرونها متشوقين إليها ، لا ليرضوا حاجتهم إلى الطعام ، بل ليرضوا حاجتهم إلى الحرية واللعب . وكان الصبية والشباب من أهل الكتّاب يستبطئون ارتفاع الضحى وزوال الشمس ، ويخدعون أنفسهم عن هذا الانتظار الشاق البغيض ، بنشاط غريب مفاجئ ، ترتفع فيه الأصوات بالقراءة وتكثر فيه حركة الأيدى التى تمسح الألواح لتزيل منها ما حفظ أمس ، وتكتب فيها ما سيحفظ بعد الغداء . وكان الكتّاب فى ذلك الوقت أشبه شئ بخلية النحل ، كله حركة ، وكله نشاط ، وكله دوى يرتفع حتى يسمع من بعيد جداً ، على ما فيه من تباين الأصوات واختلافها ، بين أصوات الصبية النحيلة الضئيلة العالية التى لم تثبت بعد ، وأصوات الصبية التى أخذت تمتلئ لأن أصحابها قد تقدمت بهم السن شيئاً ، وأصوات الشباب التى كادت تشبه أصوات الرجال وكادت تستوفى حظها من الامتلاء . وكانت هذه الأصوات المختلفة المنطلقة فى وقت واحد ، تحمل إلى الآذان شيئاً حلواً رائقاً ، فيه كثير من الملاءمة والانسجام ، يشبه ما تحمله إلى الأذن الأدوات الكبيرة للموسيقى حين يشتد اختلافها فى طبيعة الجرس ،

وينشأ عن ائتلاف مختلفها جمال يسحر السمع ، ويملأ النفس روعة وطرباً .

فى هذه الساعة من ساعات الضحى ، وفى ساعة أخرى من ساعات النهار ، حين كان المؤذن يوشك أن يدعو إلى صلاة العصر ، كانت حماسة الصبية والشباب من أهل الكتاب تبلغ أقصاها . ولم يكن من اليسير أن يظفر سيدنا أو العريف بردهم إلى السكوت ، دون أن يصفق تصفيقاً قويا ، ويخرج من حلقه صوتاً كأنه الرعد يقرع الآذان ويفجأ النفوس، فيعقد الألسنة عن النطق، ويكف الأيدى عن الحركة ، ويعلق التلاميذ فى صمت أبله ، وسكون أحمق ، ووجوم غريب .

فى ساعة من تلك الساعات ، وقف على عتبة الكتّاب بين شقى الباب رجل قد تجاوز الشباب ، ولكنه لم يمعن فى الشيخوخة ، وعليه مظهر الثروة وارتفاع المنزلة ، يعرف ذلك من لباسه الأنيق ، ووجهه الذى تشرق فيه الثقة وتظهر عليه الكبرياء . وكان الرجل مرتفع القامة مهيب الطلعة ظاهر النعمة ، يدل منظره على أنه راض عن نفسه كل الرضى ، مستقر فى الحياة كل الاستقرار ، لا يخاف شيئاً ، ولا يشك فى شىء ، ولا يعرف التردد ولا الاضطراب . وأكبر الظن أنه كان ضابطاً من ضباط الجيش وقتاً ما ، ثم تحول عن الحياة العسكرية إلى الحياة المدنية ، فانتقل إلى هذه الحياة الجديدة محتفظاً بعاداته وتقاليده العسكرية كلها أو أكثرها . وأكبر الظن أنه لم يكن مصرى الأصل ، وإنما كان تركيًّا تمصر هو أو تمصرت أسرته ؛ فقد كان يحمل فى وجهه وفى شكله كله شيئاً لا أدرى ما هو ، ولكنه يبين أنه ليس من المصريين ، ويباعد بينه وبين المصريين مباعدة ما ، ويثير فى نفوس المصريين إذا رأوه من قريب شيئاً غريباً فيه إكبار له ، وفيه استخفاف به .

وكان هذا الرجل حين وصل إلى الكتّاب ، قد أعطى كلتا يديه لصبيين يكتنفانه ويسعيان معه سعياً رفيقاً . فأما أحدهما عن يمينه ، فقد كانت على وجهه سحابة رقيقة من حزن . وأما ثانيهما عن شماله ، فقد كان باسم الثغر مشرق الوجه يكاد يخرج من جسمه قوة ونشاطاً . فلما بلغ باب الكتّاب ومن حوله هذان الصبيان ألقى تحيته ، فسمع أهل الكتاب صوتاً لم يسمعوا مثله قط فى قريتهم ، صوتاً ضخما عريضاً ممتلئاً ، أغنى سيدنا وأغنى العريف عن التصفيق والزئير ؛ فقد قرع آذان التلاميذ ، وفجأ نفوسهم ، وعلقهم فى هذا السكوت

الأبله ، وفى هذا السكون الغريب ، ووثب بسيدنا كأنما دفعه دافع ؛ فإذا هو قائم على دكته قد أعجل حتى عن أن يقوم كما تعوَّد أن يفعل فى مهل وأناة ، وقد رد التحية على صاحبها فى شئ من وجل ، ثم دعاه إلى أن يتفضل بالجلوس ، وتنحى له عن موضعه فى صدر المكان . وشكر الزائر لهذا الشيخ احتفاءه به ودعاءه له إلى الجلوس ، ولكنه أبى أن يدخل ، وأبى أن يجلس ، وقال فى صوته ذلك المهيب المخيف : « إنى حديث عهد بهذه المدينة ، لم أصل إليها إلا منذ يومين . وقد عرفت أن كتابك هو خير ما فيها من الكتاتيب ، فأحببت أن أقود إليه ابنىَّ هذين ، وأن أكل إليك تعليمهما . فاما أحدهما وهو هذا — وقدم الصبى ، الذى كان قد أعطاه يده اليمنى — فقد فقد بصره إلا قليلا ، فهبه كل عنايتك وأحفظه القرآن ، فانى قد وهبته للأزهر . وأما ثانيهما فعفريت ما أراه يصلح إلا للمدرسة ، فأمسكه فى الكتاب حتى لا ينسى من الكتابة والقراءة ما تعلم ، وأحفظه شيئاً من القرآن ، وخذه بالشدة إن أبى إلا أن يكون عفريتاً فى الكتاب كما هو عفريت فى البيت . » ثم دفع من فمه ضحكا عريضاً ، ما أظن إلا أنه روّع بعض القلوب فى صدور أولئك الصبية الصغار . ثم تقدم خطوة وأخذ يد سيدنا فوضعها على كتف أحد الصبيين وقال : « هذا هو الأزهرى . » ثم رفع يد سيدنا عن كتف هذا الصبى ووضعها على كتف الصبى الآخر وهو يقول متضاحكا : « وهذا هو العفريت » . ثم قال لسيدنا : « فأما الأزهرى فاسمه عثمان وأما العفريت فاسمه محمود . أتريد أن أتركهما لك منذ الآن ؟ أم ترى أن أعود بهما اليوم على أن يستأنفا سعيهما إلى الكتّاب إذا كان الغد ؟ » وهم سيدنا أن يجيب ، ولكن الرجل لم يمهله ، وإنما قال : « سأستصحبهما اليوم وسيسعيان إلى الكتاب منذ غد . ولا تطلقهما للغداء فسيحمل إليهما غداؤهما كل يوم ، ولا تطلقهما إذا صليت العصر حتى يأتى من يصحبهما إلى الدار ، فانهما غريبان لا يعرفان طرق المدينة بعد ، وليست الدار قريبة من الكتاب . » ثم ألقى تحيته بصوته ذاك المروع المخيف ، وأدار ظهره منصرفاً لم ينتظر أن تردّ عليه تحيته . وما أحسب إلا أنه قد سمع هذا الضحك الذى اندفع الكتّاب كله فيه ، والذى لم يستطع سيدنا ولا العريف أن يكفا عنه التلاميذ إلا حين أذنا لهم بالانطلاق ليصيبوا غداءهم ، على أن يذكروا أن من تأخر منهم عن موعده فلن تعفى رجلاه من هذا النصيب المعلوم من العذاب الذى لم يكن يقل عن خمسة سياط وربما بلغ عشرين سوطاً .

وقد رضى سيدنا ورضى معه العريف عن يوسهما ، وعما ساق الله إليهما من الخير فيه ؛ فقد كان هذا الرجل موظفاً كبيراً طرأ على المدينة منذ أيام ، ولم يكن شك فى أنه ضابط تركى قديم من ضباط الجيش ، يظهر ذلك فى حديثه ، وفى عربيته التى تبرأ من الرطانة والتكسر ، ولكنها لا تمضى مستقيمة إلى غايتها ، وإنما يثقل بها لسانه ، ويتعثر بها منطقه . بل زعم العريف أن زوجه تركية خالصة لا تتكلم العربية إلا فى مشقة شاقة وجهد شديد . وهى إذا أتيح لها أن تتكلم العربية التوى لسانها بها التواء شديداً . وهى تؤنث المذكر ، وتذكر المؤنث ، وتفعل ببعض الحروف العربية الأفاعيل ، وزعم العريف أن لهذين الصبيين أختين قد بلغتا طور الشباب ، وظفرتا بحظ من جمال لا يتاح إلا للترك أو من يشبههم أو يقاربهم من الأوربيين . وقد سمع سيدنا لكل هذا الكلام غير حافل به ولا آبه له . وآية ذلك أنه لم يرد على العريف إلا بقوله : « ما أظنه يدفع أقل من عشرين قرشاً فى الشهر أجراً لتعليم ابنيه . »

وكان فى الكتّاب صبى لم ينطلق مع التلاميذ ليصيب غداءه ؛ لأنه كان من الذين يحمل إليهم الغداء فى الكتاب ، وقد سمع حديث الأب إلى سيدنا وسمع حديث سيدنا والعريف عن الأب وابنيه وعن الأسرة كلها ، فوعى هذا كله فى صدره وحفظه فى نفسه ، ولم يكد يبلغ داره بعد أن صلّيت العصر حتى أعاد إلى أمه ما سمع من حديث ، وسألها عن هذه الأسرة ، فقالت باسمة : «إنها أسرة المأمور الجديد ، وستزورنا السيدة وابنتاها بعد حين ، فاحذر أن تقع عين إحداهن عليك . »

٢

ولم يرتفع الضحى من الغد ، حتى كان الصبى قد تعرف إلى زميليه فى الكتّاب عرّفه إليهما سيدنا ، لأنه كان يحب أن يؤلف بين أبناء الأسر التى تستمتع بحظ من امتياز ، ولأن هذا الصبى كان حافظاً للقرآن مجوداً له . فلم يتردد سيدنا فى أن يكلفه إقراء الصبى الأزهرى . وقال له وقد أخذ بيده الصغيرة فوضعها على لحيته الغزيرة : «لقد وكلت إليك ذقنى ، فأحفظ هذا الصبى ما حفظت وأجد إحفاظه ، ولا تفضحنى عند أبيه الموظف الجديد الكبير . وقدّر أنى وكلت إليك عملا كنت خليقاً أن أنهض به أنا ، أو أن أكله إلى العريف . » وقد وجد الصبى فى نفسه

شيئاً من الكبرياء ؛ فقد أصبح معلماً بعد أن كان متعلماً ، وأصبح مقرئاً بعد أن كان قارئا ، ووجد فى نفسه شيئاً من الفرح والابتهاج لاتصال الأسباب بينه وبين هذين الزميلين المترفين اللذين يلبسان اللباس الأوربى ويضعان على رأسيهما الطربوش ، ولا يلبسان هذه الثياب الفضفاضة القذرة التى كان يلبسها التلاميذ من أهل المدينة ، واللذين ينتميان إلى أسرة تركية ولا يتحدران من هذه الأسر التى تأتلف من التجار والفلاحين . وقد أقبل الصبى على عمله ، فطلب إلى تلميذه أن يتلو عليه ما حفظ من القرآن فى القاهرة ، ثم اتخذ هذا نفسه سبباً للسؤال عن كتاتيب القاهرة كيف تكون ، وعن سادة هذه الكتاتيب كيف يسيرون مع التلاميذ ، وعن مذاهب هؤلاء السادة فى تأديب تلاميذهم ووسائلهم إلى هذا التأديب ، والأدوات التى يصطنعونها فيه . وكان الصبى يسمع أحاديث تلميذه كلفاً بها متهالكا عليها ، يكاد ينسى فى سبيلها ما وكل إليه من إقراء هذا التلميذ لولا أنه كان يذكر من حين إلى حين يده الصغيرة فى اللحية الغزيرة ، وصوت سيدنا الغليظ وقد تكلف الرقة والرفق ، وهو يلفته إلى أنه يكلفه عملا خطيراً كان خليقاً أن ينهض به هو ، أو أن يكله إلى العريف . فكان ذلك يردّه إلى القصد ويحمله على أداء الواجب . وكان النهار يمضى ساعة للقراءة ، وساعة للحديث ، ثم ازدادت الأسباب بين الصبى وزميليه متانة واتصالا ، فكان الثلاثة يخرجون من الكتاب إذا صليت العصر ، فيذهبون معاً إلى بيت الصبى قليلا وإلى بيت الزميلين غالباً . وكان هذا البيت أنيقاً مترفاً فى نفس الصبى يملأ قلبه حين يدخله روعة وكبراً . كان قائماً على القناة ليس بينه وبين الماء إلا هذه الطريق الضيقة التى يسعى فيها الناس ودوابهم بين المدينة والقرية ، وقد انبسطت من وراء سوره المرتفع الذى تكسوه الأغصان الخضر والزهر النضر حديقة عميقة مترامية الأطراف ، عن يمين وشمال ، تقوم الدار من ورائها مطمئنة لا ترتفع فى السماء إلا قليلا ، ولكنها تمتد فى الفضاء وتكثر فيها الحجرات. وكان الذى يفجأ الصبى من أمر هذه الدار ويملأ قلبه رضا وإعجاباً أنه كان إذا عبر إليها الحديقة العميقة ودخل الدهليز الذى ينبسط بين الحجرات ، لم يمش على أرض من تراب ، وإنما مشى على أرض قد بسط فيها البلاط . وكثيراً ما راعه أنه كان يرى الخادم تغسل هذه الأرض غسلا وتنقيها تنقية ، ولا ترش عليها الماء رشاً ليستقر ترابها فلا يثور . وكان مما يملأ قلب الصبى رضا وإعجاباً

أنه كان لا يكاد يدخل الدار مع زميليه حتى ينعطفوا إلى يمين ، ويأووا إلى حجرة خاصة لايسكنها أحد من أهل الدار ، ولا يطرقها أحد غير هذين الصبيين ، قد خصصت لهما يلعبان فيها، وجمعت لهما فيها أدوات كثيرة مختلفة غريبة للعب ، وأسندت إلى جدرانها كراسى ومجالس يستريح عليها الصبيان ومن يلاعبهما من الرفاق . فهما لم يكونا يجلسان على الأرض ولا يلعبان فى الفضاء المنبسط أمام الدار ، ولا يتعرض لعبهما لضحك الكبار منه أو مشاركة الواغلين من الأطفال فيه . كان لعباً مترفاً فى حجرة مترفة ، ليس للصبى بمثله عهد . وكان ثلاثتهم إذا وصلوا إلى الدار لا يكادون يستقرون فى حجرتهم تلك حتى تلم بهم ربة الدار وآنسة من الآنستين ، فيكون الحديث الرفيق والحنان الرقيق والدعابة العذبة . ثم يخلو الصبية بعدذلك إلى لعبهم ، فينفقون فيه ما شاء الله من وقت يقصر أو يطول .

وكانت ربة الدار سيدة كريمة ، قد تقدمت بها السن شيئاً ، ولكنها كانت حلوة الشمائل ، عذبة الحديث ، فى لهجة عربية ضعيفة أشد الضعف ، ملتوية أعظم الالتواء . وكان حديثها ذاك الملتوى المتعثر البطىء يسحر نفس الصبى و يملأ قلبه فتوناً . فأما الآنستان فقد كانت كبراهما (تفيدة) رائقة الحديث ، شائقة الدعابة ، متكسرة اللفظ ، تتكلم فيخيل إلى السامع أن عهدها بالنوم غير بعيد ، وكانت على ذلك ماكرة حديدة اللسان ، لاذعة النكتة ، بطيئة الحركة ، قليلة النشاط . وكانت أختها الصغرى (إقبال) جذوة من نشاط لاتنقطع لها حركة ولا يستقر لسانها فى فمها ، وهى على ذلك حلوة المحضر ، مشغوفة باللعب ، لو أطلقت لها حريتها لما فارقت الصبية ولا زهدت فى لعبهم . ولكن الدار كانت منظمة أدق النظام وأشقه ، فلم يكن يتاح لهاتين الآنستين إلا قليل من فراغ بين حين وحين . وقد نعم الصبى بهذه الحياة وقتاً لا يذكر أطال أو قصر . ولكنه يرى ذات يوم فى الدار حركة غير مألوفة ، ويخيل إليه أن فى الجو شيئاً لا يلبث أن يعرف ما هو ؛ فقد خطبت تفيدة ، وما هى إلا أسابيع حتى يقبل قوم من القاهرة ، وحتى تقام فى الدار أعياد ، ثم يعود الزائرون من حيث أتوا ، وقد استصحبوا تفيده ، ففقدت الدار من جمالها و بهجتها شيئاً غير قليل .

والحياة مع ذلك ماضية فى طريقها فى هدوئها المتصل واطرادها الممل ، والصبى ناهض بواجبه ، يُحفظ زميله القرآن ، ويشاركه فى اللعب و يخوض

معه فى فنون الحديث ، ولكن محمودا يتحول من الكتاب إلى المدرسة المدنية ، فيفقد الكتّاب بانصراف العفريت عنه من بهجته شيئاً غير قليل . ويخلو الصبى إلى زميله وتلميذه عثمان يعلمه ويلاعبه . ولكن السأم يسعى بينهما ، وإذا الصبى ينصرف عنه قليلا قليلا ، ويشغل شيئاً فشيئاً برفاق آخرين من أهل المدينة ، يعرضون عليه فنوناً جديدة من اللعب ، ويلقون إليه ألواناً طريفة من الحديث، ويقرءون معه كتباً لا عهد لأبناء الكتاب بها ، ولا إرب لهم فى قراءتها . والصبى مع ذلك يلقى رفيقيه المترفين فى داره حيناً وفى دارهما حيناً آخر . ثم يسمع ذات ليلة أبويه يتحدثان فى شىء من الحزن وفى شىء من السخرية أيضاً بأن هذا الضابط التركى القديم من ضباط الجيش قد سافر إلى القاهرة ، فأقام فيها أياماً ، ثم عاد ومعه سيدة تركية لم تبلغ الثلاثين بعد ، لها حسن رائع وجمال بارع ، وفتنة فاتنة ، وتسلُّط على الضابط الشيخ عظيم، وأن تلك الدار المترفة الأنيقة التى كانت جنة من جنات النعيم ، قد أصبحت مستقرا للحزن والبؤس والشقاء ، قد أصبحت جحيما تصلَى فيه أم البنين نار الحزن ولوعة الغيرة ، ويشقى فيها هؤلاء الثلاثة بما يرون من حزن أمهم وبؤسها وبكائها المتصل واعتكافها فى حجرة لا تبرحها إلا أن تكره على ذلك إكراهاً ، كما يشقون بهذا النعيم العظيم يستمتع به الضابط الشيخ وزوجه الشابة فى طرف من أطراف الدار . كانا يستخفيان بسعادتهما أول الأمر ، فينعمان من وراء الأبواب المغلقة والأستار المسدلة . ولكن السعادة جمحت بهما حتى تجاوزا القصد . وأكبر الظن أن شقاء الأشقياء ، هو الذى أذكى سعادة السعداء . وكأن الزوجين السعيدين قد رأيا فى اعتكاف تلك المعتكفة وبكائها المتصل ، وفى هذه الوجوه العابسة الكئيبة من حولهما ، وفى خفوت تلك الأصوات التى كانت تملأ الدار فرحاً ومرحاً ، وفى سكون تلك الحركات التى كانت تملأ الدار بهجة وسروراً ، كأنهما رأيا فى هذا كله احتجاجاً على ما أتيح لهما من سعادة ، وإنكاراً لما سيق إليهما من نعيم ؛ فقبلا التحدى ، وأظهرا ما كانا يضمران ، وأعلنا ما كان يسران ، وظهرت سعادتهما وقحة ، مسرفة فى القحة لا تتحفظ ولا تحتشم ولا ترجو لشىء وقاراً . فالقُبَل تختلس فى هذه الزاوية أو تلك فى غير احتياط أول الأمر ، ثم هى لا تختلس ولا يستخفى بها ، وإنما يتهاداها الزوجان أمام هذه الكاعب البائسة ، وبمنظر من هذين الغلامين الشقيين ، وغير بعيد من هذه الأم التعسة

المحزونة . ثم تتجاوز القحة حدودها ، ويتعمد الزوجان المفتونان إيذاء هذه المرأة الكئيب، فينتهزان الفرص ليظهرا لها سعادتهما بشعة ليس لها حظ من تحفظ أو استحياء . ويتحدث الناس ذات يوم بأن هذه الأم البائسة عليلة لا تخرج من حجرتها ولا تترك فراشها . ثم يأتى النبأ ذات صباح بأنها قد فارقت الحياة ، فأراحت واستراحت وتركت فى قلب أبنائها سعيراً أى سعير . وقد استقرت هذه الأم البائسة فى قبرها المتواضع من وراء النهر . وجلس صاحب الدار للمعزين يستقبلهم كما تعوّد الناس أن يفعلوا . وقد مرت الليلة الأولى كما تعودت ليالى العزاء أن تمر . أقبل المعزون فسلموا وجلسوا وسمعوا القرآن، وانصرف فوج منهم ليخلفه فوج آخر، ثم ختمت القراءة حين أوشك الليل أن ينتصف . ثم أقبل اليوم الثانى وأقبل معه القراء يتلون القرآن ، وأقبل الناس يعزون ويستمعون ويخوضون فى مختلف الأحاديث . وإنهم لفى ذلك بعد أن صليت العصر ، و إذا امرأة شابة تخرج من الدار وتتوسط جمع الناس هادئة مطمئنة رزينة الخطو سافرة لم تلق على وجهها نقاباً، وقد اتخذت فى إحدى يديها حقيبة صغيرة . فلما توسطت الجمع وجم الناس ، وهمّ صاحب الدار أن ينهض ولكن الوجوم أخذه هو أيضاً فأثبته فى مكانه ، وارتفع صوت تقيدة هادئاً رزيناً فقطع المقرئ قراءته واستمع لها الجمع كأن على رءوسهم الطير ، و إذا هى تقول : «من ظن منكم أنه أقبل للتعزية والمجاملة فليغير ذات نفسه ودخيلة ضميره ، فليس هذا حفل عزاء و إنما هو حفل فرح وابتهاج . إن هذا الرجل الذى تعزونه قد قتل امرأته ، وابتهج بموتها ، لم يرع حرمتها ولم يرع حياء ابنته الكاعب ، ولم يرع صبا غلاميه الصغيرين ، و إنما ازدرى هذا كله فى سبيل سعادته بزوجه الجديدة ؛ فكان يداعبها ويلاعبها ، وينال من مداعبتها وملاعبتها فى الجهر مالا يناله الرجل الكريم ذو المروءة إلا سرًّا . وكنت فى القاهرة لا أعلم من ذلك شيئاً ، فلما أقبلت لدفن أمى سمعت، فأنكرت أذناى ولم يصدّق قلبى ، ولكنى أشهد وأشهدكم أنى رأيت ورأى إخوتى، وفيهم كاعب وصبيان، هذا الرجل يداعب امرأته الشابة ويلاعبها راضياً مغتبطاً مسروراً ولم يمض على دفن أمنا إلا يوم وبعض يوم. فان رأيتم بعد ذلك أن هذا الرجل محتاج إلى تعزيتكم فأقيموا وإلا فانصرفوا راشدين. »

ثم تحوّلت عن الجمع فلم تدخل الدار، و إنما أخذت طريقها إلى المحطة لتركب القطار الذى يحملها إلى القاهرة . ولست أدرى ماذا كان من أمر الجمع

المحتشدين بعد هذه الفضيحة ! ولكنى أعلم أن استقبال المعزين لم يبلغ أيامه الثلاثة ، وأن هذا الضابط التركى القديم من ضباط الجيش لم يستطع أن يقيم فى المدينــة إلا ريثما يدبر أمر سفره ، وأنه ارتحل ذات يوم بما كان يحيط به من نعيم وجحيم ، فانقطعت بينه وبين المدينة الصلات والأسباب ، لم يسمع أهل المدينة عنه شيئاً ولم يسمع هو عنهم شيئاً .

٣

ومضت الحياة فى طريقها هادئة مطمئنة ، تعبث بالناس ويعبث الناس بها ، ويعفى مايقبل من أحداثها على آثار ما أدبر من الخطوب . وقد هاجرت أسرة الصبى من المدينة إلى أعلى الأرض ، وهاجرت أسر أخرى إلى أدنى الأرض ، وشغلت كل أسرة بنفسها عن غيرها . وشغل كل واحد من أبناء الأسرة الواحدة بشأنه الخاص عن شؤون أهله وذويه . ومضت أعوام تبعتها أعوام ، وبلغ الصبى طور الشباب بعد أن خاض إليه غمرات الخطوب ، ولكنه يحس ذات مساء بين درسين من دروس الجامعة القديمــة يداً تمس كتفه وصوتاً يمس أذنه ، وتقع فى نفسه هذه الجملة : «ألاتذكرنى ! لقد كنت معك فى الكتّاب أنسيت العفريت ؟ »

بلى ! لم أنس العفريت وهيهات أن أنساه . وقد استأثر من قلبى ذاك الناشئ بمكان ممتاز لم يبلغه أحد من إخوته كما لم يبلغه أحد من رفاق الصبى أولئك الذين عرفتهم فى الكتّاب ، أو عرفتهم خارج الكتّاب أولئك الذين اتصلت بينهم وبينى أسباب المودة أيام الصبا ، فكانت عشرتى لهم طويلة أو قصيرة ، بلى ! لم أنس العفريت . ولقد حدثت نفسى غير مرة حين هبطت إلى القاهرة ، لأطلب العلم فى الأزهر الشريف بأن من الممكن أن ألقاه أو ألقى أخاه فأجدد من أسباب المودة ما رثّ ، وأصل منها ماانقطع ، وأنقل من صباى فى المدينة إلى القاهرة طرفاً أستبقيه وأنميه ، وأجد فى استبقائه وتنميته رضا القلب ومتعة النفس وسعادة الضمير . ولكنى اختلفت إلى الأزهر أعواماً وأعواماً ، وعرفت فيه كثيراً من الصبية والشباب والشيوخ دون أن ألقى العفريت أو أخاه أو أسمع عنهما قليلا أو كثيراً . ولم أبح لنفسى أن أسأل عنهما أحدهما أو كليهما . ولو قد سألت

لكان من الممكن أن أصل إلى هذا الأزهرى الذى كنت أحفظه القرآن أيام الصبا ، وأن أصل من طريقه إلى أخيه العفريت . لم أبح لنفسى أن أسأل . وما أقل ما كنت أبيح لنفسى السؤال ! وما أكثر ماصرفنى الحياء عن السؤال والاستقصاء !

ثم أنفقت فى الجامعة عاماً وعاماً وعاماً ثالثاً ، ولقيت من الطلاب من درس فى الأزهر ومن تعلم فى المدارس المدنية على اختلافها ، وخطر لى غير مرة أن أسأل عن العفريت ماخطبه وأين يكون ؟ ولكنى لم أبح لنفسى السؤال فخفقت فى قلبى من ذكر العفريت ما كنت أردده على نفسى حيناً بعد حين ، أختصها به ولا أظهر عليه أحداً من الناس ، حتى أقبل علىّ العفريت ذات مساء فمست يده كتفى ومس صوته أذنى ، ومست نفسه نفسى ، واستأنفنا فى الشباب حياتنا كما ألفناها فى الصبا . كان حديث عهد بالجامعة يدخلها فى أول العام الذى كنت أريد أنا أن أتركها فى آخره ، فكنا نجتمع وجه النهار لا فى داره تلك ، وأين كنا من داره تلك ! ولكن فى تلك الحجرة المتواضعة التى كنت آوى إليها أثناء الطلب . ولم يخطر له قط أن يدعونى إلى داره ولم يخطر لى قط أن أسأله عن هذه الدار . ولقد هممت أن أسأله عن إخوته فأجابنى من طرف اللسان ، فلما استزدته راغ عنى بالجواب وانتقل إلى حديث آخر . فأحسست أنه يستحى من أسرته فلم أسأله عنها بعد ذلك . كان قد تخرج فى إحدى المدارس الفرنسية ، وظفر بشهادته الثانوية والتحق بالجامعة . وكنت أنا أحاول أن أتعلم هذه اللغة الأجنبية وأبذل فى ذلك جهوداً مختلطة أشد الاختلاط ، منها الموفق ومنها غير الموفق ، وكان هو مشغوفاً بالترجمة من هذه اللغة إلى اللغة العربية ، فكان يقرأ علىّ بعض ما كان يترجم ، وكان يقرأ لى بعض ما كنت أريد أن أعرف من الأدب الفرنسى . وقد أنسى أشياء كثيرة ، ولكنى لن أنسى أنه قرأ لى أساطير لافونتين وقصة «كانديد» . وأحاول أن أذكر كيف قضينا أول الليل بعد خروجنا من الجامعة ذات يوم وأين قضيناه ، ولكنى لا أجد إلى ذلك سبيلا ، و إنما أذكر أنى صرفت خادمى وبقيت معه على أن يردنى إلى دارى بعد أن نفرغ مما أردنا إليه . ولست أعرف ماهذا الذى أردنا إليه . ولكنى أعرف أن الليل بلغ نصفه وأنا كنا بعيدين عن دارى قريبين من داره فى حى من الأحياء الوطنية المتواضعة ، فقال لى فى صوت متكسر : « لننفق سائر الليل معاً فنقرأ ما أطقنا السهر ، ثم تعود

إلى دارك فى ضحى الغد. » وقد أجبته إلى ما أراد، فدرنا فى حارات ملتوية وانتهينا إلى دار متواضعة حقيرة ، وأوينا من هذه الدار إلى حجرة بائسة قد ألقى عليها حصير بالٍ ، وألقى على الحصير وسادة ولحاف ، فى هذه الحجرة قرأ لى جزءاً عظيماً من «كانديد» ولم نتم إلا بعد أن جاوز الليل ثلثيه . فلما كان ضحى الغد عدت إلى دارى واستبقيته معى إلى آخر النهار . وفى تلك الليلة فهمت مصدر هذا الحياء الذى منعه أن يتحدث إلى من أمر أسرته بشىء .

ومضت أشهر الصيف التى يفترق فيها الطلاب ، وأقبلت أشهر الخريف التى يلتقى فيها الطلاب ، ولقيت صاحبى فيمن لقيت ، ولكنه كان لقاء قصيراً . فقد سافرت إلى فرنسا فى خريف ذلك العام ، وودعت صاحبى فى القطار. وأشهد ما نسيته أثناء ذلك العام الذى قضيته فى فرنسا . وأشهد لقد عدت إلى مصر حين دعتنا الجامعة إلى أن نعود قبل أن نتم الدرس وفى نفسى أنى سأجد عند صاحبى هذا عزاء عن هذا الدرس المقطوع . ولكنى أصل إلى القاهرة ، وأسأل عن صاحبى ، فأعلم أن حمى التيفوئيد قد أسلمته إلى الموت أثناء الصيف .

وما أريد أن أصور للقارئ ما وقع فى نفسى من حزن ولوعة ؛ فانى لم أكتب هذا الحديث لشىء من هذا ، وإنما أذكر أنى سعيت مع رفيقين لى ذات يوم بعد أن صليت العصر إلى قرافة المجاورين حيث قيل لى إنه قد دفن ، وأنى أنفقت مع رفيقى وقتاً طويلا وجهداً ثقيلا نلتمس قبره لنهدى إليه التحية ولنضع عليه شيئاً من زهر ، فلم نهتد إلى هذا القبر . فعدنا يائسين وقد ألقينا التحية إلى قبور القرافة كلها ، وألقينا الزهر على قبر ما فى قرافة المجاورين . وكنت كئيباً كاسف البال مظلم النفس معقود اللسان ، وكان أحد رفيقىّ يهون علىّ وينشدنى قول الشاعر العربى القديم :

لقد لامنى عند القبور على البُكا ... رفيقى لتَذراف الدموع السوافكِ
فقالَ أتبْكى كلّ قبرٍ رَأيتَهُ ... لقبرٍ ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له إنّ الشجى يبعث الشجى ... فدعنى فهذا كله قبرُ مالك

طه حسين

صفحة دبلوماسية خلال قراءات

الكونت سفورزا وزير لخارجية إيتاليا ، حالى وسابق ، وسفير لها فى باريس يوم استولى موسولينى على الحكم ، فلم يتردد لحظة فى الإبراق باستقالته ، وآثر الإقامة فى باريس ، بعد زيارة قصيرة لروما ، يتردد على أوساطها الدبلوماسية وينشر مقالات دورية فى جريدة « لاديبيشى دى تولوز » صحيفة سارو والراديكاليين ، ومبادئهم أقرب ماتكون إلى مبادئه وهو من زعماء الأحرار الإيتاليين . فلما احتل الألمان فرنسا غادرها مع من غادر من زعماء إيتاليا السابقة للفاشية أمثال نيتى إلى الولايات المتحدة . ولما ساهمت إيتاليا فى الحرب إلى جانب ألمانيا أسس جماعة « إيتاليا الحرة » ودفع بها إلى المناداة بالجمهورية الإيتالية . وعندما عقدت الهدنة بين الحلفاء وإيتاليا عاد إلى بلده حاملا لواء الجمهورية فى عنف غير مكتف بنزول الملك فيتوريو أمانويل عن العرش بل ملحا فى إلغاء النظام الملكى جميعاً حتى جاء الاستفتاء محققاً لميوله .

وقد وضع الكونت سفورزا عن السياسة الإيتالية كتاباً سماه « إيتاليا كما رأيتها » ، وعهد إلى دار نشر «برنار جراسيه» فى باريس باخراج طبعته الفرنسية، التى لم تصل بعد — لا هى ولا طبعته الإيتالية — إلى مكتبات القاهرة . لكن مجلة « العالم الفرنسى » قد نشرت منه فصولا فى أحد أعدادها الأخيرة ، وقد تضمنت هذه الفصول صفحة دبلوماسية انطوت على كثير من المعلومات المتصلة بمؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ الذى تحددت فيه مواقف الدول الأوربية من مراكش والذى اعتبره سفورزا — وقد كان سكرتيراً للوفد الإيتالى فيه — مؤذناً بدلائل قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

ويقدم سفورزا لمؤتمر الجزيرة بمفاوضات « التحالف الثلاثى » بين ألمانيا والنمسا وإيتاليا ، التى لم تفز فيها إيتاليا من بسمارك سنة ١٨٨٢ بمساعدة ألمانيا فى سبيل « الاحتفاظ بالتوازن فى البحر المتوسط » ، فاضطرت للبحث عن ضمان

هذا الاحتفاظ فيما بعد لدى انجلترا ولدى فرنسا باتفاقات خاصة بتونس سنة ١٨٩٨ وبليبيا ومراكش سنة ١٩٠٠ . لم تعترض ألمانيا عليها كما لم تعترض من بعد على الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ وإن كانت قد فوجئت به قبل توقيعه بأسبوعين اثنين ؛ إذ قصد سفير ألمانيا بباريس إلى وزير الخارجية الفرنسية دلكاسيه واستأذنه فى أن « يوجه إليه سؤالا فيه جرأة على السر هو هل صحيح أن اتفاقاً على وشك التوقيع بينكم وبين انجلترا ؟ » فأجابه دلكاسيه : « إن فرنسا تريد أن تحتفظ فى مراكش بالحالة السياسية الحاضرة ولكن مع تحسينها . على أن الحرية التجارية ستظل محترمة فيها احتراما تاماً مهما يكن شكل المساعدة التى تلجأ فرنسا إلى تقديمها للسلطان » ، ورأى السفير الألمانى أن هذه التصريحات « طبيعية جداً ومشروعة تماماً » .

لكن الموقف الألمانى قد تغير فجأة بالنسبة لمؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ إذ شاءت أن تضفى على حضورها وحضور إيتاليا إياه صفة التحالف الثلاثى فتتوحد خططهما وتنزل فيه إيتاليا منزلة التابع ليس غير . ولذلك فقد تولى برلين الغضب عندما عرفت بارحة المؤتمر أن وزير الخارجية الإيتالية الجديد قد عرض على الماركيز فيسكونتى فينوستا أن يكون رئيس الوفد الإيتالى إلى مؤتمر الجزيرة بدل سفير إيتاليا بمدريد سلفستريلى الذى كان مشهوراً بميوله لألمانيا والذى كان قد اختاره لتلك الرياسة وزير الخارجية السابق . وقبل المركيز المهمة على شرطين اثنين : الأول ألا يحمل من التعليمات إلا ما كان « مستمداً من محالفات إيتاليا ومنبعثاً من مصالحها » . والثانى ألا يصحبه إلا سكرتير سياسى واحد ، مع ابنه الذى يقوم له بدور السكرتير الخاص .

وكان الشاب سفورزا هو هذا السكرتير السياسى الأوحد .

وقد مثل فرنسا فى المؤتمر بول ريفوال يقول عنه سفورزا إنه محام راح يترافع فى قضية . ومثل ألمانيا أحد سفرائها القدماء يعاونه تاتنباخ الذى يصفه سفورزا بأنه «ألمانى أكثر منه دبلوماسى» . وكان سر أرثر نيكولسون ممثل بريتانيا العظمى الأول ، ومن الصعب فى نظر سفورزا أن يكون المرء أكثر منه ترددا وأكثر قسوة حسب الأحوال . أما مندوب أميريكا فكان هنرى وايت الذى يراه سفورزا « عشيراً من الطراز الأول وموفقاً بين مختلف الآراء بالتعريف » ، كما يرى سكرتيره « ممتعضا لجهل رئيسه بمسائل البحر المتوسط » . وكان رئيس

المؤتمر هو الوزير الأسبانى دوق المودوفار الذى يقول عنه سفورزا إنه « أكثر عروبة من الثمانيني محمد الطربس الذى كان يتولاه « القرف » إذ يضطر لأن يمضى أيامه الباقية مندوباً أول لمراكش فى ألفة جمع من المشركين » .

ويقرر سفورزا إن الذين حضروا الأسابيع الأولى لمؤتمر الجزائر قد لاحظوا أن مايقال عن دقة النظام الألمانى أسطورة من الأساطير . فقد كان لألمانيا على ماتقدم مندوبان رئيسيان . وكانت تصل إلى كل منهما تعليمات من شعبتين متنافستين فى وزارة الخارجية ببرلين . وكان الفرنسيون أول الأمر يرجعون اختلاف التعبيرات التى يلجأ إليها الممثلان الألمانيان إلى الإغراق منهما فى الخداع ، ولكنهم انتهوا إلى تعرف الحقيقة خلال ما وقفوا عليه من إفضاءات المساعد الألمانى فى بعض البيئات المحايدة ، فكثيراً ما كان يقرر فيها أن ألمانيا لا تريد الحرب حقا ولكنها إذا اضطرت إليها اضطراراً فانها « ستفعص الفرنسيين كالبق » .

وجاء يوماً هذا المساعد تاتنباخ إلى المندوب الإيتالى الأول ووجه إليه اللوم إذ يلتزم موقفاً قريباً من الحياد . وأخذ يلقى عليه درساً فى السياسة الأوربية ، فاستمع إليه المركيز — وهو تلميذ مازينى وصديق كافور — فى صبر طويل ، ثم توجه إليه بالسؤال : « هل لك أن تقول لى أيها الكونت العزيز أأنت تشرفنى بهذا الحديث بناء على تعليمات من حكومتك ؟ » فاعترف تاتنباخ بالنفى ، فاستوى له المركيز وأنهى حديثه الطويل بقوله : « إنى فى سن أبيك يا عزيزى الكونت ، ولذلك فانى أسمح لنفسى بملاحظة أن الفكرة التى تتصور بها المفاوضات الدبلوماسية هى أن تمسك بعنق خصمك وأن تطرحه أرضاً وأن تدوسه بالأقدام لتقول له بعد ذلك : هيّا بنا إلى الاتفاق ! وأن طريقة كهذه لو عممت فى بلادكم لجلبت عليكم الشرور » .

وكان سفورزا حاضراً ذلك الحديث . وقد قال له المركيز بعد انصراف الكونت الألمانى : « إنه على حق ! فلنذهب الآن لنتسلى . إذ لو أرسلنا بما دار برقية لعرضنا الأمور إلى أن تؤخذ أخذ مأساة . »

ويرى سفورزا أن شخصية هذا المندوب الألمانى — وهى شخصية سمجة — كان لها أكبر الأثر فى تضامن الفرنسيين والانجليز ؛ إذ انتهى المندوب البريتانى الأول إلى تأييد المندوب الفرنسى الأول فى كل اتجاهاته مع ماكان بينهما من تفاوت فى الطبائع ؛ فقد كان سر أرثر نيكولسون قليل الكلام متحفظاً ، وكان أول الأمر

يحس استعاضاً من ذلك المحامى الفرنسى ذى الحديث المتدفق المزدهر .

ويقرر سفورزا أن الموقف الألمانى قبل أن تعمل الظروف على عزله كان يلقى فى روع المجتمعين كلهم أن الحرب قريبة ، وأن ألمانيا هى التى ستنتهى إلى إعلانها . ولم تعمل الظروف على محو هذا الخوف إلا بفضل تفصيل من التفصيلات الإجرائية . فقد عرضت مسألة تأجيل المؤتمر لأن التقارير الخاصة بالبنك المراكشى لم تكن معدة ، والألمان لم يكونوا ليريدوا أن تتناول المناقشة مسألة البوليس قبل أن ينتهى بحث موضوع البنك . فاقترح المندوب البريتانى — وقد نالت منه الالحاحات الألمانية الطويلة — بما أنه ليس من اليسير درس مشروع البنك بسرعة ، أن تخصص جلسة اليوم التالى لدراسة نظام البوليس . فوافق المندوب الروسى فى الحال ، وأقر المندوب الفرنسى الاقتراح ، فتم بذلك — على حد قول سفورزا — تجنيد الاتفاق الثلاثى بعد أن ظل الخوف من ألمانيا حائلا طوال المؤتمر دون ذلك . فغضب المندوب الألمانى ووقف ملحا فى الانتهاء من درس مسألة البنك قبل العرض لمسألة البوليس . فأعلن الرئيس الأسبانى أنه سيلجأ لأخذ الأصوات ما دام أمامه اقتراحان متناقضان . ولم يكن له بصفته رئيساً إلا أن يفعل ما فعل . فأخذت الأصوات بترتيب أسماء الدول المؤتمرة باللغة الفرنسية . فأصر المندوب الألمانى على رأيه ، وانضم إليه بعد تردد مندوب النمسا ، وأعلن مندوب بلجيكا أنه منضم إلى رأى الكثرة إذا يتبين . وانضم المندوب الأمريكى إلى الرأى الانجليزى الفرنسى الروسى . وذكر المندوب الانجليزى أنه صاحب الاقتراح فأيده .

وجاء إذن دور المندوب الايتالى ، فعاود المندوب الألمانى الأمل . ذلك بأنه إذا أيد الاقتراح الألمانى فان مندوبى هولندا وسويسرا سيتبعانه ، وإذن فان ستة أصوات سينالها الاقتراح البريتانى وستة أصوات ستكون ضده ، فلا يعمل بصوت بلجيكا إذ لا تكون هناك كثرة ينتمى إليها . لكن مندوب إيتاليا « اقترح تخصيص جلسة لتبادل الرأى حول مسألة البوليس » فكان بهذا نجاح الاقتراح « الاتفاق » إذ تبع سائر المندوبين هذا الاتجاه وظهرت ألمانيا فى عزلة لم يؤيدها فى الرأى إلا النمسا ومراكش .

وفقد مؤتمر الجزيرة منذ تلك اللحظة أهميته السياسية ؛ إذ انكشف ستر ألمانيا التى كان يخشاها المؤتمرون جميعاً ، وتكتلت الأصوات ضدها إلى أن انتهى المؤتمر .

لكن ألمانيا « المنعزلة » قد قررت من تلك اللحظة الاستعداد للحرب حتى تنال بها ما لم تستطع أن تناله عن طريق الدبلوماسية ، فكان تدبيرها للحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

وبعد فتلك صفحة دبلوماسية نرجو أن يفيد الدبلوماسيون المصريون والعرب مما عمرت به من ملابسات إذا ما كتب لهم أن يعالجوا أمور بلادهم فى الحظائر الدولية .

محمود عزمى

كيف تلهو نيويورك . . .

عود إلى لغة الأرقام .

لا عجب فى أن أتخذ هذه اللغة بين الفينة والفينة ؛ فانى ما برحت نزيل أمريكا ، أتنسم هواءها ، وأحيا فى مغانيها . وليس لأمريكا معنى إلا أنها أرقام وأرقام . . .

أرقام متكاثرة متعالية . . .

نواطح سحب أخرى ، قوامها الأعداد لا الأحجار !

ليس ذلك بمقصور على ميادين العمل المختلفة ، ولكنه يتعداه إلى الملاهى وما إليها من ضروب المتع .

تضم مدينة نيويورك سبعمائة مبنى بين مسرح للتمثيل ، ودار للسينما ، إلى جانبها ثلاثمائة وألف من أندية الليل ، تلك التى يسمونها بالفرنسية « الكباريهات » ، ولعلنا لا نخطئ إذا سميناها : المساهر .

هذه المواطن ، على اختلاف أنواعها ، بمثابة متنفس لسكان مدينة التزاحم والضجيج . . . هؤلاء الآدميين الذين لو انتقلوا من عقال مدينتهم لكانوا أحرياء أن يعمروا أقطاراً شواسع .

تعمل تلك المسارح والمساهر وما إليها فى هذه المدينة عمل النوافذ للحجر والرئات للأجساد .

إنها مثوى راحة ، ومثابة استجمام ، لذلك الآدمى الذى ينهمك فى عمله ، رغبة فى الدولار ، كما كان ينهمك عمال السخرة فى الزمن القديم ، رهبة من العقاب .

وبديه أن تكون تلك المتنفسات موفورة الحظ من أسباب الدعة والتسلية وإمتاع النفوس ، وإلا انعكست الآية ، فازداد قصادها رهقاً على رهق ، وشقيت أعصابهم بعذاب جديد .

وطوعاً لذلك الغرض المنشود حرصت تلك الدور على أن تقدم لروادها من نتاج الفن ثمرات دانية المنال ، أخاذة المظهر ، وشراباً قريب المنهل ، سائغ المذاق ، وأن يكون فيها من عناصر التفكهة والمرح ما يملأ النفوس من اغتباط ، وينسيها ما يثقلها من أعباء المعاش .

ومن ثم كان الروح الغالب فيما يعرض بتلك الدور هو روح التسلية المحضة .

على أن التسلية ألوان ، و إن منها لما يصدف عنه الرجل المهذب الذى علت ثقافته وصفا ذوقه ، فلم تعد نفسه تبتهج بالرخيص من التسليات . ولذلك تعددت ألوان المسارح والمراقص والمساهر ، لكى تواتى مطالب الأذواق والأهواء .

وعلى الرغم من أن روح التسلية تسرى فى هذا النتاج الفنى وتتدانى به أحياناً إلى درجات التفاهة أو الانحراف ، فان ذلك النتاج بمجموعه فى المستوى الذى يلائم بلداً متحضراً ، أهلوه على حظ ملحوظ من الثقافة وسلامة الذوق .

خرجت يوماً لأشهد حفلة موسيقية فى « ستاديوم كونسير » أستمع فيها إلى عازف على البيان أحسبه بولونى الجنس ، اسمه روبنشتاين . . . وبينما كنا نجتاز الطريق إلى المثابة المنشودة ، اعترضتنا زحمة هائلة اضطرب لها نظام المرور . وتناهى إلى أسماعنا أن وقائع دموية تجرى ، وأن رجال الشرطة يعالجونها ضبطاً للأمن . . .

وبعد حين استبانت لنا جلية الأمر ، فاذا بنا نعلم أن الزحمة لم تكن إلا إقبالا من الجمهور على شراء تذاكر لمشاهدة الملاكم لويس ينازل خصما كبير الخطر .

وكان الطريق على رحابته وامتداده يموج بتلك الجموع التى تتناقل الحديث والنقاش ، بين مشايع للملاكم العالمى ، وبين مناصر لخصمه الذى تصدى له .

فأذكرنى ما أرى مجالس « شاعر الربابة » فى العهود القريبة ، حين يتحلق الناس حوله ، يستمعون إلى ما يقصه من أساطير الزناتى خليفة ودياب بن غانم وما كان بينهما من حرب ونضال ، فاذا المستمعون فريقان : مشايع لهذا ، ومناصر لذلك . وربما أدى الخلاف إلى شجار بين الفريقين حامى الوطيس .

ما أشبه الآدمى بالآدمى ، مهما تختلف بهما الثقافة والتحضر !

ليس من فارق بين المعركة القائمة حول مجال الملاكمة ، وتلك المعركة التى كانت تقوم حول « شاعر الربابة » . . . إلا أن الجمهور الأمريكى تدور

معركته حول أبطال فى عالم الحقائق ، والجمهور الشرقى تدور معركته حول أبطال فى ذمة الأساطير وعالم الخيال .

ولقد انتقلت عدوى التحدث والمجادلة فى شأن هذه الملاكمة إلى ساقة السيارات ، فاندمج سائق سيارتنا فى غمار المتحدثين والمجادلين ، حتى خشينا أن تحدث مشاجرة نكون من وقودها دون أن نجنى ذنباً !

لقد كانت السيارات وهى تجتاز الطريق ، كأنها مراكز إذاعة متنقلة ، مراكز استقبال وإرسال فى شأن هذه الملاكمة الخطيرة .

وبعد لأى بلغنا « ستاديوم كونسير » فى سلام ، ولم نكد نطأ أرضه حتى ألفينا أنفسنا بين حشود من الناس يختنق بهم المكان .

إن « ستاديوم كونسير » رحبة فياحة مكشوفة للهواء الطلق ، ملئ نصفها بكراسى مصفوفة ، وأقيم فى نصفها الآخر مدرج عظيم . . . إنها ساحة للألعاب الرياضية على طراز رومانى ، يتخذونها أحياناً مثابة للفن ومسرحاً للموسيقى .

كانت هذه الآلاف المؤلفة يموج بها المكان ويرتج ، فما إن جعلت الموسيقى تطلق أنغامها ، حتى عم السكون ، فاستحال المكان كعبة عبادة يخيم عليها الخشوع .

ولما تجلى العازف البولونى يصافح البيان بأنامله ، راحت هذه الجموع الحاشدة تهيم معه فى آفاق روحية رائعة .

وانتهى العزف ، فاذا الجمهور المتعبد الخاشع ينبعث متهللا مرحاً ، يعلن حفاوته فى حمية بين التصايح والتصفيق .

يميناً إن الفنان فى روحه الانسانية السامية ليلقى من حفاوة الأمريكيين وتكريمهم مالا يقل شأناً عما يلقاه بطل الحرب وزعيم السياسة !

ولقد أثار انتباهى إقبال الجمهور الأمريكى بوجه عام على نوعين مختلفين متضاربين ، يستنفد فيهما وقت فراغه : أحدهما مجالات الملاكمة والصراع ، والآخر أندية الموسيقى والغناء .

ظاهرتان قد تبدوان على تناقض : نزعة إلى الوحشية تسايرها عاطفة رقة وحنان !

ليس ثمة من تناقض .

إن الطبيعة قوامها هذان العنصران من خير وشر، من شدة ولين . وما زالت الانسانية بخير ، إذا استوفت نصيبها من هذين العنصرين على درجة سواء .

فان لم تتوافر السلامة والاتزان بينهما ، فطغى أحدهما على الآخر ، صار الأمر إلى فساد .

والدول فى ذلك كالأفراد ، بتكامل هذين العنصرين فيها ، تتصف بالاعتدال .

وليست فورات الشعوب فى الغارات والحروب ، إلا اختلالا فى أنسجتها الحيوية ، أفقدها ما بين العنصرين من توازن ووفاق . . .

إنها طغيان لعنصر على الآخر . . .

وما أقربه شبهاً بثوران بعض الأنسجة فى الأبدان ، ذلك الثوران الذى يحدث أوراماً سرطانية تورد صاحبها موارد الحتوف !

والمسرح فى نيويورك على تباين أنواعه لا يختلف كبير اختلاف عن أمثاله فى أمهات المدائن المتحضرة ؛ فما يعرض فيها على مسرح « متروبولتان أوبرا » تصادف مثله فى أوبرا باريس و « كوفنت جاردن » فى لندن . وما يعرض فى مسهر « كوبا كابانا » لا يزيد على ما يعرض فى مسهر « الليدو » فى باريس .

وقد تجد الرواية الفنية تمثل أعواماً تباعاً على أحد مسارح نيويورك فتذكر أن ذلك يجرى أيضاً على هذا النحو فى مسارح لندن . . .

وإذا ذكرت المسرح الثلجى المسمى « أيس شو » فى نيويورك طالعك على الفور قصر الجليد فى باريس المسمى « باليه دوجلاس » .

فان أبيت إلا أن تلتمس بينها بعض الفروق ، لم تجد إلا تلك الفروق المظهرية بين بلد وبلد ، من حيث الطابع المحلى ، والذوق الشخصى .

ولكن ثمة فى الفن الأمريكى ظاهرة خليقة بالذكر ، وإنى لأحسب أن أمريكا قد تفردت بها ، أو لعلها سبقت غيرها إلى تجويدها .

هذه الظاهرة وليدة فكرة يسمونها « تيسير الفن للجميع » وغرضها تحبيب الجمهور الكبير فى الفن الرفيع ، بعرض نماذج شائقة منه يستسيغها مستوى الذوق العام .

وقد تكفل مسرح « رديوستى هول » بتحقيق هذه الفكرة . . . وهو فى الحق مفخرة البناء المسرحى ، وآية إعجاز بين دور التمثيل .

إنه ليرحب بستة آلاف ومائتين من النظارة ، على مقاعد فسيحة وثيرة ،

لا تقل فخامة ولا روعة عن المقاعد فى أمهات دور الأوبرا فى العالم المتحضر .

فأما الأجر الذى يؤديه المتفرج ، فهو زهيد تافه ، بالنسبة للأجور الغالية فى الدور الرفيعة للتمثيل .

والبرنامج فى هذا المسرح يبدأ منذ الصباح ، ولا ينتهى إلا بعد منتصف الليل ، فهو فى تكرار خلال هذه الساعات الطوال . وإنه لبرنامج طريف نستطيع أن نعده وافياً بالغرض من تسلية الذهن وتغذيته . . . إنه يماثل وجبة من الطعام خفيفة الهضم ، مستوعبة عناصر الغذاء الصالح . ولو ألقيت نظرة على أى برنامج من برامج هذا المسرح ، لوضحت لك تلك الفكرة فى غير عناء .

البرنامج عدة فصول :

عرض رواية سينمائية من المشهورات . فحفلة موسيقية قوامها ستون عازفاً يؤدون قطعة عالمية متعارفة . فغناء تقوم به جوقة يرأسها مطربات ومطربون ممن لهم مكانة ملحوظة وصيت بعيد . فعرض موسيقى غنائى راقص قوامه أسراب من الفتيات يؤدين رقصات شعبية ، وأخرى فنية فى مشاهد جميلة رائعة تتميز بالطرافة فى الإضاءة والإخراج .

أو لست ترى من تضاعيف هذا البرنامج أن الهدف الأول هو تقديم نماذج طيبة لا تنزل إلى مستوى التهريج الرخيص ، ولا تسمو إلى الفن الذى قد يستعصى على سواد الناس ؟

قيل إن الأوبرا محاولة لجمع فروع الفن فى إطار واحد : التمثيل والغناء والموسيقى والتصوير والبيان نثره وشعره .

وإنى لأرى أن « رديوستى هول » هو محاولة أخرى ، وإن تكن فى حداثة عهدها ، لجمع مناحى الفن الحديث فى دائرة واحدة . وقد تنمو هذه الفكرة على الأيام وتتطور حتى تلم شتات الفن على نحو جميل .

وعلى أية حال ، فان هذا المسرح يطمح إلى أن يجعل الفن ديمقراطيا ، وأن يخلع عنه رداء الأرستقراطية التقليدية التى طال عليها الزمن .

ولكن هل يمكن حقا أن تطوى الديمقراطية تحت جناحها روح الفن الرفيع ؟

إن هذا الفن الرفيع فى معناه الأصيل أرستقراطى فى كل ناحية من نواحيه ، فهو سموّ فى التفكير ، وعلو فى الذوق ؛ إنه أرستقراطية الذهن الذى يتفتق عن عبقرية ونبوغ .

ولا نزاع على أن العباقرة فى كل أمة وفى كل عصر نفر قليلون ، وأن ولائد قرائحهم ستظل بمعزل عن المستوى الشعبى الذى ينتظم أفهام السواد .

و إذن فبون ساشع بين أرستقراطية الحياة التى هى فى متناول التغيير والتبديل لقيامها على أسس من الماديات ، وبين أرستقراطية الفن التى هى عصية ممتنعة ، لقيامها على أسس من مواهب خفية ليس إلى اجتلابها من سبيل .

وثمة ظاهرة أخرى فى الفن هنالك ، لا يحتاج التدليل عليها إلى بيان ، تلك هى عظمة الفلم الأمريكى وتفرده بالغلبة ، وسموه إلى القمة .

وجلىٌّ أن هذا الفلم يكاد يستوعب مظاهر النشاط الفنى جميعاً ، فيه تتلاقى الجهود الفنية المختلفة الألوان ، و إليه تجند المواهب والعبقريات فى شتى مناحيها .

ولا مرية أن ملابسات دولية فى الحرب العالمية الأولى ، أتاحت لأمريكا فرصة التجويد فى هذا الفن ، وتزويد الأسواق به ، على حين أن الأمم الأخرى كانت فى شغل بأثقال الكفاح ، فتخلفت فى هذا المضمار . . .

على أنه لو لم يكن الزاد الأمريكى الفنى ثمين الجوهر ، لما أعانته تلك الملابسات الدولية على التغلب والظفر..

ولو ذهبنا نتقصى العوامل التى أبرزت الفلم الأمريكى ، وجمعت حوله الأهواء ، وجعلته فنا عالميا تنفسح له جوانب الأسواق ، لألفينا العوامل يتقدمها عامل الإخراج وما يكتنفه من معدات .

إن المخرج فى الفلم الأمريكى هو روحه وقوامه ، و إن هذا المخرج قد تفطن إلى لب الحياة وزاول من تجارب صناعته وتفهم جمهوره مابصّره بوسائل النجاح . فهو إذا عرض عليك إنتاجه ، حاول أن يضع تجاه نظرك قطعة حية من دنياك التى تعيش فيها ، لا تزين ولا تزييف ، فسرعان ما تستجيب نفسك لما تشهد ، وسرعان ما تتم بينك وبينه الألفة ، وتحس بأنك تعايش من ترى من الناس ، وتزاول ما يدور من المشاهد والأحداث .

لقد توارى فى الفلم الأمريكى ما كنا نشهده قبلا من مبالغة فى الأداء ، وتلفيق فى الصور ، وتزوير على ما تراه العيون ، وتستشعره النفوس فى دنيا الناس . . .

لقد أصبح فن الفلم الأمريكى هو فن الحياة !

محمود تيمور

بين العلم والسياسة

[عاد كاتب المقال من المؤتمر الإفريقى لدراسات ما قبل التاريخ الذى انعقد بمدينة نيروبى فى شهر ينـاير ١٩٤٧ ، بعد أن مثل فيـه جامعة فاروق الأول . وهو يسجل هنـا بعض انطباعات وملاحظات عابرة عن المؤتمر .]

يقال فى محافل العلماء وفى دور البحث والدراسة إن العلم ينبغى أن يطلب من أجل العلم ، وإن طلاب العلم والباحثين عن المعرفة ينبغى أن يخلصوا فيما يطلبون وفيما يبحثون ، فلا تكون لهم غاية تفسد ما يسعون إليه ، ولا غرض يهدف بهم ويوجههم فيما ينشدون . ويقال أيضاً إن العلم ينبغى أن يرتفع بأهله فوق الغايات ، وأن يتنزه بهم عن كل الأغراض ، فلا يبتغون من ورائه غير وجه الحق ووجه الله . وهو إن انتهى بالناس فى بعض الأحيان والحالات إلى غاية فانما ينتهى إلى ما يهذب النفس ويصقل العقل ويرقى بالفرد والجماعة إلى مراتب الإنسانية التى لا تعرف من الغايات والأسباب إلا ما يخرج بالناس من الضلالة إلى الهدى ومن الجهالة إلى النور . بل يقال أكثر من ذلك إن العلم الصادق ينبغى أن يكون خيراً للإنسانية كلها ، لا يسخَّر من أجل جماعة من الناس دون أخرى ، ولا ينتفع به فريق من الخلق دون فريق ؛ فالعلم شعاع من نور الله وقبس من ناره ؛ وما دام الله للخليقة جميعاً فالعلم ينبغى أن يكون وأن يبقى للناس أجمعين .

هكذا علّمنا أشياخنا فى مصر وفى غير مصر ؛ وهكذا كتب العلماء وتحدث المتحدثون عن العلم فى مختلف العصور ؛ فقالوا إن العلم لا وطن له ، وإن العالم الحق من ضاق به موطنه الصغير فاتخذ من العالم كله وطناً له ، وإن اتساع العقل ورحابة الفكر وبعد المعرفة وعمق الثقافة لا بد أن تنتهى كلها بطالب العلم إلى أن تكبر نفسه ويتسع قلبه ، فيجمع فى ذاته بين خير ما يستطيع أن يجمع

إنسان من ثقافة العقل وأدب النفس وحياة الضمير . . . ولعله أن يبلغ بذلك أرفع ما تستطيع أن ترقى إليه الإنسانية ، وأقرب ما يستطيع أن يكون عليه إنسان من الله .

ومع ذلك فالذى يدرس تاريخ العلم والعلماء منذ بدأ الانسان يبنى تراثه فى العلم والمعرفة ، لا يستطيع أن يقول فى إنصاف إن العلم كان فى وقت من الأوقات خالصاً لوجه الله كما أراد له العلماء ، وهو لا يملك إلا أن ينتهى إلى أن هذا الكلام الكثير الذى ردده حملة العلم عن رسالتهم كان أدنى إلى التمنى والرجاء منه إلى الحقيقة والواقع . بل إن الذى يدرس تاريخ العلم يكاد ينتهى إلى أن ما تمناه العلماء كان فيما يبدو أبعد من أن تستطيعه نفس إنسان . وما دام حملة العلم من بنى الانسان ولا من الملائكة ، فلا سبيل إلى أن نجرد العلم من « إنسانيته » ، بكل ما تحمل هذه الكلمة الأخيرة من معنى . وإذا كان بين البشر من حقق ما هدى إليه العلماء ، أو قارب أن يفعل ذلك ، فأولئك صفوة مختارة لا تمثل أبناء العلم فى جملتهم ، أو هم فلتة من فلتات الطبيعة لا يصح أن يعتد بها فى الحكم على طبيعة العلم والعلماء .

وفوق ذلك فنحن إن رجعنا إلى تاريخ الثقافة والمعرفة وجدنا أن الإنسان قد نزع أول ما نزع إلى إشباع حاجاته الروحية ، وأنه قدم تلك الحاجات على حاجاته العقلية . ولذلك فان جانب الدين سبق جانب العلم فى تراث الانسانية الثقافى . بل إن الروح سخرت جوانب الثقافة الأخرى فى الفن واللغة والعلم ، فسعت كلها فى أغلب أعصر التاريخ لتشبع نزوع النفس إلى الروحيات . ولئن كان العلم قد سعى فى العصر الحديث لأن يستقل بنفسه عن ثقافة الروح فانه لم يجاوز حتى الآن محاولاته الأولى فى أن يقف بذاته ؛ بل هو قد تجاذبته نزعات أخرى فى الحياة الجديدة ، منها النزعة القومية التى تأبى إلا أن تسخر كل شئ من أجل حياة الأمة بين غيرها من الأمم . ومنها النزعة الدولية التى همّت بنفر قليل من العلماء ورجال الفكر إلى أن يقحموا العلم فيما لا راحة للعلم والعلماء أن يقحموا أنفسهم فيه من نظم الجماعات ونظريات الحكم وتنظيم العلاقات الدولية فى عالم يضطرب ويتطور من يوم ليوم ، أو فى القليل من جيل لجيل . بل منها النزعة العقلية ذاتها ، وقد قسمت علماء الجيل فرقاً وأشياعاً فيما ينبغى أن يهدف إليه العلم والبحث العلمى من غاية أو غايات تتصل بالمادة وتلزمها حيناً ، وتجاوزها وتمتد إلى

ما وراءها حيناً آخر . وذلك كله إن دل على شئ فعلى أن العلم يصعب جداً ، أو يستحيل فيما يظهر ، أن يأتى مجرداً أو خالصاً لذاته . وما ذلك إلا لسبب بسيط جدا وهو أن العقل البشرى لم يخلق منزهاً عن الغاية أو مجرداً من الغرض، أو حتى خالصاً لوجه الحق أو وجه الله .

وقد ينفعنا أن نذكر هذا كله وأن نتمثله واضحاً جليا عندما نعرض لحياتنا الحاضرة وبعض ما يتصل بها أو يترتب عليها من مشكلات . فالعلم فى عصرنا الحديث قد تدخل فى حياة الناس والجماعات إلى حد بعيد ؛ والحياة القومية أصبحت لا تقوم على أساس مكين إلا إذا وجهها العلم ورسمت لها الخطط العلمية . والعلم ذاته قد غدا فى خدمة المجتمع فى كل جماعة تدعى لنفسها الرقى ، بل فى الحياة الدولية بعد أن اتسمت بطابع التوجيه العلمى فى غير قليل من الأشياء . لذلك كله لم يعد العلم خالصاً ولا مستقلا عن الحياة القومية والدولية . وكلما ازدادت الحياة القومية تعقداً والحياة الدولية تشابكاً برزت صلة العلم بأسباب الحياة العملية ومصالحها النفعية فى صور وأشكال جديدة . ولعل أغرب ما تتجلى فيه تلك الصلة بعض المحافل التى يجتمع فيها نفر من العلماء ، يتذاكرون تقدم العلم والمعرفة ، ويعرضون خطواتها بين حين وحين . ففى هذه المؤتمرات يجتمع العلماء من أركان الأرض ، يمثل كل فريق منهم أمة من الأمم ، ويباهى بما لها من نصيب موفور — أو يجب أن يكون موفوراً ! — فى تقدم العلوم ، ويحاول كل منهم أن يكسب لأمته ما استطاع من علم جديد أو منفعة مترتبة على علم جديد . وبعض هذه المؤتمرات دولى عالمى يشمل أمم الأرض جميعاً ، وبعضها الآخر يقتصر على قارة بالذات ، ويدرس شؤون العلم المتصلة بها . ومن هذا النوع الأخير مؤتمر عقد أخيراً فى نيروبى عاصمة كينيا بشرق إفريقية ، ودعيت للاشتراك فيه دول القارة الافريقية وبلدانها مستقلة وغير مستقلة ، وكذلك عدد من الدول المهتمة بشؤون القارة أو بالدراسات المتصلة بها . وكان المؤتمر خاصا بعصرما قبل التاريخ ، ونشأة الحضارات وتطورها فى القارة المظلمة قبل أن يبزغ فجر التاريخ ؛ أى إنه كان فى ظاهر الأمر بعيداً كل البعد عن أوجه النفعية التى قد تتصل بحياتنا الحاضرة . ومع ذلك فان هذا المؤتمر ، على بعد ما بيننا وبين العهد الذى انعقد من أجل دراساته ، قد مس السياسة الحاضرة مساساً تجلى فيه ما يمكن أن يكون بين السياسة والعلم من أسباب لا يضعفها بعد الشقة فى الزمان

ولا يقلل من قيمتها ارتباط العلم أحياناً بالماضى السحيق من جهة ، وارتباط السياسة غالباً بالحاضر أو المستقبل من جهة أخرى . . . إذ الواقع أن ليس بين العلم أيًّا كان ميدانه وزمانه وبين السياسة فى هذا العصر الذى نعيش فيه حجاب لا تخترقه الغايات !

والذى يدرس شؤون القارة المظلمة فى الجيلين أو ثلاثة الأجيال الماضية يعرف أن ظلمة هذه القارة لم تمنع أعين العالم الأوربى من أن تتطلع إليها ، وأن تمعن فى التطلع ، علها أن تصل إلى قلب القارة المظلمة من أى طريق . وقد سبقت بريطانيا غيرها من الأمم الأوربية فتطلعت إلى إفريقية السوداء من الشمال ومن الغرب ومن الجنوب ومن الشرق ، وراح الجوّالون والمستكشفون البريطانيون من أمثال لفنجستون وستانلى وسبيك وغيرهم يرتادون القارة ويتوغلون من الساحل إلى الداخل ، يضيفون إلى العلم والمعرفة ما لم يسمع به الرجل الأبيض من قبل عن أرض يقطنها المتوحشون والبرابرة من الزنج وأنصاف الحاميين . ثم راحت الجمعيات العلمية تعنى بنتائج هذه الرحلات ، وتذيع عنها بين الناس ما حفز همة الراغبين فى الإفادة مما أتى به الرحالون من علم ومعرفة ؛ فتكونت شركات التجارة ، وتقدم أهل المشروعات ومن ورائهم الحكومة آخر الأمر — أو قل أوله — بل تقدم نفر متزايد من أهل الدين ورجاله وحملوا مشعل المدنية المسيحية إلى قلب القارة الذى لم يعرف عن الأديان السماوية إلا ما انتهى إليه من قبل عن الإسلام أو عن المسيحية الشرقية خلال بعض أطراف إفريقية البيضاء أو السمراء . وهكذا تداخلت المصالح المشتركة بين أهل الرحلة وأهل التجارة وأهل المشروعات وأهل الدين وأهل السياسة ؛ وانتظمت جهود هؤلاء وهؤلاء فاتخذت صبغة العمل الحكومى الذى استحال آخر الأمر — أو قل أوله أيضاً — إلى عمل عسكرى صحبه أو ترتب عليه قيام الاستعمار الحكومى الحديث فى صوره وأشكاله المعروفة .

وقد يعنينا فى صدد مؤتمر الدراسات الإفريقية لعصر ما قبل التاريخ أن نستشف ما قد يكون من وراء تنظيمه من سبب أو أسباب . فبريطانيا ، أو إحدى مستعمراتها الشرقية ، هى التى نظمته ودعت إليه . وليس من شك فى أن علماءها كانوا مخلصين وجادين فى الأمر حين دعوا أو تقبلوا ما هيىء لهم من دعوة المؤتمر للانعقاد والدراسة فى إحدى مستعمرات الإمبراطورية . ولكن

المؤتمر قد سبقه تفكير علمى سياسى – أو سياسى – علمى إن شئت – فقد كان من ورائه فيلسوف الإمبراطورية وقائدها الإفريقى المرشال سمطس ، وهو الذى يعرف ما للدراسات والبحوث العالية من قدر وخطر ، وما يكون لها ويترتب عليها من نفع قريب أو بعيد ، وهو فى الوقت نفسه راسم كثير من خطط الإمبراطورية السياسية ، وخير من يعرف أن روابط العلم قد لا تقل عن روابط السياسة ، وأن الخطة السياسية ينبغى أن تسبقها دراسة علمية ؛ فقد يزكى العلم والمعرفة السياسة بأكثر مما تزكيها القوة والسلطان ، وقد يكون العلم طريقاً إلى الربط بين بقاع من الأرض وأشتات من الخلق لا تقوى السياسة بمفردها على أن تربط بينها برباط مكين أو وثاق أمين ، بل قد يكشف العلم عن روابط خفية لا تراها عين السياسة بغير منظار العلم الذى كثيراً ما يخترق الحجب فى الزمان وفى المكان .

وسينفعنا هنا ولا شك أن نذكر أن الإمبراطورية البريطانية كانت تسعى فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن إلى أن تربط بين أقاصى القارة فى الجنوب والشمال . فقد تقدم مستعمروها ، وعلى رأسهم سيسيل رودس ، من جنوب القارة فى العشرة الثامنة وما بعدها من القرن التاسع عشر نحو ما عرف فيما بعد باسم روديسيا وإفريقية الشرقية ؛ وتلا ذلك تقدمهم فى العشرة التاسعة وما بعدها إلى أرض مصر ووادى النيل . ولاح فى الأفق مشروع ربط مدينة الكاب بمدينة القاهرة بطريق حديدى أو طريق آخر يربط أقصى الجنوب بأقصى الشمال ويفتح السبيل أمام أبناء الإمبراطورية فينفذون من أحد طرفى القارة إلى طرفها الآخر ، بعد أن تكالبت أمم أوربية أخرى على غير هذين الطرفين من القارة فسدت المنافذ أمام بريطانيا وقطعت عليها السبيل فى أن تنفذ من الشرق إلى الغرب ، وفى أن تتصل أملاكها بين ساحلى القارة على المحيطين الهندى والأطلسى . واستمرت الحال على ذلك حتى تحينت بريطانيا الفرصة ، وتم لها ما أرادت فى خلال الحرب العالمية الأولى ، فاتصلت أملاكها والأراضى الواقعة تحت حمايتها بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال . وكانت بريطانيا قد عنيت عناية خاصة منذ القرن الماضى بأن تكون لها السيادة على حوض النيل كله ، أو بأن يمتد سلطانها على الأقل بين مصب النيل فى البحر المتوسط ومنابعه فى الهضبة الاستوائية التى تقع على طريق الكاب والقاهرة . كذلك عنيت بريطانيا عناية خاصة بأن

تضيق الخناق على ألمانيا فى توسعها الإفريقى ، بأن تطردها وتحل محلها فى مستعمرة تنجانيقا عندما شبت الحرب العالمية الأولى . فلما تم لها ذلك زالت آخر عقبة فى سبيل اتصال أملاك الامبراطورية ومناطق نفوذها فى الشرق الافريقى.

وقد يسأل القارئ ولماذا اختارت بريطانيا شرق القارة دون غربها سبيلا للاتصال بين الجنوب والشمال ؟ والجواب على ذلك عند أهل الجغرافيا وأهل السياسة ! ففى شرق القارة هناك وادى النيل وخيراته التى تحدث عنها التاريخ ؛ وهناك الهضبة الاستوائية المرتفعة حيث يطيب المناخ وتصلح المرتفعات لهجرة العناصر البيضاء واستقرارها بصفة دائمة ؛ وهناك البحر الأحمر وهو الطريق إلى البحار الدفيئة و إلى الهند ؛ ثم هناك المحيط الهندى ذاته وهو طريق الامبراطورية إلى الشرق الهندى وما وراءه حتى استراليا . وكل هذه مغريات طبيعية وغير طبيعية، يضاف إليها أن غرب القارة قد شاركت فيه دول أخرى كثيرة ، منها أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا والبرتغال بل أمريكا ذاتها ، فكثرت هناك أيدى الدول الأخرى ، ووجدت بريطانيا مجال التوسع فى الشرق أدنى منالا وأبعد عن المشاحنات من ميدان التكالب الدولى العنيف على شواطئ القارة الغربية .

من أجل هذا كانت عناية الامبراطورية بشرق القارة أشد من عنايتها بغربها. ومن أجل هذا حاول البريطانيون أن يعرفوا عن الشرق الافريقى مايعينهم على رسم خططهم فى استعماره واستغلاله على أساس علمى . ومن أجل هذا أيضاً عنى قادتهم فى الفكر الاستعمارى بهذا الجانب من القارة أكبر العناية . . . وقد لانبعد كثيراً عن الحق إن استنتجنا أن هذا كان من عوامل اهتمام بريطانيا بهذا المؤتمر بالذات ؛ واختيار نيروبى وأرض كينيا فى قلب إفريقية الشرقية لتكون مقراً لأول مؤتمر إفريقى يعقد لتنظيم الدراسات الجغرافية والأثرية القديمة وغيرها من بحوث عصر ما قبل التاريخ ، ثم دعوة المؤتمر ليعقد دورته القادمة فى جوهانسبرج باتحاد جنوب إفريقية بعد أربع سنوات . . . بل ربما كان هذا هو الدافع إلى إصرار فريق من علماء الإمبراطورية فى أن يكون تنظيم المؤتمر على نمط يغاير من بعض الوجوه ماجرى عليه العمل فى المؤتمرات الدولية العالمية ، ومحاولة فريق منهم أن يضمن للمؤتمر أن يكون رئيسه وسكرتيره العام من البريطانيين ، لولا أن انتبه فريق آخر من غير البريطانيين ، فاختير للمؤتمر رئيس فرنسى واحتفظ للدولة الداعية بالوظيفة الأخرى . . . إلى غير ذلك من تيارات ظاهرة وأخرى خفية ،

أريد بها فيما يبدو أن يتجه المؤتمر وجهة يصح بحق أن يقال فيها إنها تقع على هامش السياسة !

وهكذا اتضح منذ البداءة أن العلم والسياسة كثيراً ما تتجاوب بينهما الأصداء ولو من بعيد ؛ فتنتصر السياسة للعلم وتردد أحاديث ما ينبغى من رعاية للعلماء ، ويتغنى العلم بأنه فى خدمة المجتمع ، أو أنه فى القليل يخدم مصالح الإنسانية عن طريق خدمة المصالح القومية . . . ولكن الشئ الغريب أن السياسة فى هذا المؤتمر سعت إلى أن يكون لها شئ من التوجيه عن طريق الرعاية؛ كما أن العلم لم يقف عند الاستجابة لدواعى الخدمة القومية ، وإنما كاد ينحرف ويميل ، لولا بقية من روح العلم ، وتخوفاً من جانب العلماء أن يجرفهم التيار أو أن يميلوا كل الميل . . . . بل لولا تلك الرقابة المتبادلة التى اعتادت فرق العلماء وأحزابهم أن يفرضها بعضهم على بعض ، وأن يتلقوها جميعاً بكثير من الخوف والحذر ، أو قل من المخافة والاشفاق !

ومن الغريب أيضاً أن فريقاً من العلماء البريطانيين فى المؤتمر تعصبوا تعصباً ملحوظاً أو غير ملحوظ لإبراز قيمة شرق إفريقية فى تطور الحضارات البشرية عامة والحضارات الإفريقية خاصة ؛ فقالوا إن بلاد كينيا وتنجانيقا وبقية الهضبة الاستوائية الشرقية ربما كانت موطن الحضارات الأول ، وإنها فى ذلك يجب أن تعتبر أعرق من غيرها من مناطق إفريقية بما فى ذلك مصر أم الدنيات ! وهم قد حاولوا أن يسندوا حجتهم بمختلف الأسانيد ، وأرادوا أن ينتزعوا من هذا المؤتمر الدولى اعترافاً ضمنيا أو تسليما بأن هذه المنطقة أهم المناطق فى إفريقية بل ربما فى العالم كله ، رغم ما قد يبدو فى ظاهر هذه الدعوى من إغراق وإغراب . . . وقد بدا كأن هؤلاء العلماء والباحثين البريطانيين إنما يقصدون من وراء دعواهم هذه وجه الحق دون سواه ، وأنهم إن عملوا على إقناع بقية علماء المؤتمر بوجاهة حجتهم فلن يكون ذلك إلا إظهاراً لما لإفريقية عامة من فضل على الانسانية فى بناء تراث حضارتها الأولى قبل أن يطلع فجر التاريخ ؛ كما أن بعض هؤلاء الباحثين البريطانيين قال إنهم إذ يرفعون صوتهم فى المؤتمر ويرجون منه تسجيل هذا الصوت لا يهدفون إلى أن يفاخروا بما كان لإفريقية من ماض مجيد — فذلك الماضى ليس ماضيهم ، كما لمح بعض العلماء الفرنسيين فى كثير من دهاء العلماء ! — وإنما هم يهدفون إلى إبراز قيمة هذه المنطقة للعالم

عامة وللعالم البريطانى خاصة ، فيزداد اهتمام الجمهور والهيئات العلمية بتشجيع البعوث الدراسية التى يصح أن تقوم بالبحث والتنقيب فى هذه المناطق الاستوائية . . . وهذه حجة ولا شك وجيهة ؛ ولكنها تنحرف بالعلم والعلماء إلى ما يجب ألا ينحرفوا إليه ؛ كما أنها كانت فى أغلب الظن تخفى وراءها وتطوى فى باطنها من أفكار السياسة وأهدافها المرسومة أكثر وأعمق كثيراً مما ينطوى عليه الغرض العلمى الظاهر . فسياسة النابهين من دعاة الإمبراطورية وبُناتها فى القرن الماضى قد هدفت كما ذكرنا إلى زيادة اهتمام أبناء الامبراطورية بشرق إفريقية عن طريق إيفاد الرحالين ، و إذاعة المعلومات وأنباء الاستكشافات الإفريقية عن طريق الجمعيات العلمية وغيرها ، مما انتهى به الأمر إلى أن سعت بريطانيا حكومة وشعباً ، أو شعباً وحكومة ، إلى أن تستعمر الشرق الافريقى ، وتوطد أقدامها فى أراضى المستعمرات فوق الهضبة الاستوائية . واليوم يشعر مفكرو الإمبراطورية وحفظة تراثها وميراثها ، وفى طليعتهم المرشال سمطس ، أن اهتمام الإمبراطورية وأبنائها بهذا الجانب من إفريقية ينبغى أن يشحذ من جديد، إذا قدر لشرق إفريقية أن يصبح نقطة ارتكاز هامة فى الامبراطورية ، ومنطقة تجمع للقوى والقوات الإمبراطورية تنفذ منها إلى الشمال أو إلى الشرق وقت الحاجة على نحو ماهو مرسوم . وليس غريباً فى هذا الصدد أن يسعى مفكرو الامبراطورية وراسمو الخطط فيها إلى أن يلفتوا نظر مواطنيهم فى أرجاء الإمبراطورية إلى ما لشرق إفريقية من قيمة وخطر عن طريق أحد المؤتمرات الدولية ؛ فالامبراطورية ووسائلها فى الدعاية والتعريف ينبغى أن تلائم الزمن ؛ وما كان يصلح فى القرن الماضى من استخدام الرحالين والمستكشفين والإذاعة عن طريق الجمعيات العلمية ليس يكفى فى جيلنا الذى نعيش فيه بعد أن تم استكشاف مجاهل إفريقية السوداء بصفة عامة ، وبعد أن غدت شهادة مؤتمر دولى كهذا الذى عقد أخيراً فى نيروبى أرفع قيمة وأبعد أثراً من شهادة جمعية علمية أو عدد من الجمعيات العلمية ، مهما كان لتلك الجمعيات من سند ، ومهما ذاع لها من صيت .

ومع ذلك فقد تنبه المؤتمر لخطورة هذا الجانب مما عرض عليه من بحوث . وكان على مصر وعلى أنصارها من القائمين بالدراسات المصرية والمعجبين بما سبقت به مصر وشمال إفريقية إلى بقية القارة خاصة و إلى العالم عامة من فضل

كبير فى نشأة الحضارات وتطورها . . . كان عليهم أن يقرعوا الحجة بالحجة وأن يقدحوا البرهان بالبرهان حتى برز الحق . . . أو حتى عاد إلى البروز وضاء منيراً بعد أن أزيل ما أثير حوله من غبار!

ولكن الأغرب من هذا كله أن أراد منظمو المؤتمر والداعون إليه أن يهدفوا إلى تقسيم إفريقية إلى ما يمكن أن نسميه « مناطق دراسية » ، تشمل كل منها عدداً من الدول أو المستعمرات الإفريقية ، يوحد التمثيل بينها فى حفلة افتتاح المؤتمر وفى تكوين لجانه العلمية ، وتنسيق خطط الدراسة المتصلة بكل منها . ولم يبد فى هذا الاقتراح ما يثير الريبة أو المخافة فى نظر كثير من المؤتمرين ؛ ولكن الذين خبروا ماهدفت إليه بريطانيا فى العهد الأخير من تشجيع الاستجابة المتبادلة بين أهل العلم وأهل السياسة ، كان لهم العذر كل العذر فى أن يتوجسوا قليلا وأن يترددوا كثيراً قبل أن يتقبلوا هذا الاقتراح . وقد تحقق ماخشوه وما ترددوا فيه عندما عرض الاقتراح البريطانى فى صورة محدودة ، فتبين أنه يرمى إلى أن تعتبر مصر بمفردها أو بالاشتراك مع سواحل إفريقية الشمالية منطقة قائمة بذاتها ؛ ويعتبر السودان جزءاً من منطقة تمتد فى شرق إفريقية إلى روديسيا ؛ ويعتبر جنوب إفريقية وجنوبها الغربى منطقة ثالثة؛ والكونغو ومعه إفريقية الاستوائية المنخفضة منطقة رابعة ؛ ثم السنغال وسواحل إفريقية الغربية منطقة خامسة . . . ويهمنا من هذا التقسيم المقترح — أو الذى كان مقترحاً — أنه يرمى إلى فصل مصر عن السودان ، فتمثلان فى الحفلة الرسمية لافتتاح المؤتمر تمثيلا مستقلا ، وتعتبر كل منهما داخلة ضمن منطقة دراسية مستقلة ، ويفصل بينهما فى التمثيل فى اللجان ، ويبدو كأن المشكلات العلمية والدراسية فيهما لا ترتبط ولا تتداخل ، وحتى المصطلحات العلمية وأسماء الحضارات القديمة والسابقة للتاريخ فى كل منهما تكون مستقلة عن الأخرى... ولم يكن ليهم أصحاب الاقتراح فى ذلك أن تبقى مصر منفردة أو أن ترتبط ببقية إفريقية الشمالية فى الغرب ؛ ولكن كان يهمهم بصفة خاصة أن يسجلوا فى هذا المؤتمر الدولى أن السودان متصل بشرق إفريقية فى مشكلاته الدراسية وفى تاريخ حضاراته ، وأن حوض النيل لا يمثل وحدة إقليمية ولا دراسية . وهم بالطبع لم يجاهروا بشىء من ذلك فى قول صريح ، وإنما تجاهلوا هذا الهدف المستتر ، كما تجاهلوا الدافع إليه ؛ بل تجاهلوا أن يكون إليه دافع ما غير تبسيط

إجراءات التمثيل والدراسة فى أقاليم إفريقية ومناطقها ! وهنا أيضا كان على مصر أن تقف فى المؤتمر وقفة قوية تدافع عن حقها الذى هو حق العلم من غير شك . ولم يكن عسيراً على مصر لحسن الحظ أن تؤلب معها عدداً كبيراً من العلماء وأعضاء المؤتمر من غير البريطانيين ؛ فليس هناك شك فى أن جميع الأدلة القائمة تحتم اعتبار مصر والسودان منطقة واحدة ، تتداخل فيها المشكلات والمسائل العلمية ، سواء فى ذلك منها ما يتصل بنهر النيل وتطوره الطبيعى ، وما يتصل بنشأة الحضارات وتطورها خلال أعصر التاريخ . . . ولم يكن عسيراً على مصر أن تثبت ذلك أو أن تبرز روعته فى المؤتمر من جديد ؛ فبدت وحدة الوادى فى شؤون العلم والبحث والدراسة بما لا يدع مجالا لمكابرة ؛ وأقر المؤتمر هذه الوحدة ، وتقرر آخر الأمر أن يعتبر وادى النيل فى شمال شرق إفريقية وحدة دراسية قائمة بذاتها ، لها تمثيلها الموحد فى افتتاح المؤتمر الرسمى وفى لجانه العلمية ، ولها دراساتها المتشابكة التى تبرز هذه الوحدة وتجلوها للباحثين والمتعلمين . . . أما شرق إفريقية فقد انكمشت منطقته واقتصرت على أملاك بريطانيا وحماياتها وأراضى انتدابها فى شرق القارة .

هذا طرف من حديث ذلك المؤتمر الإفريقى . وهو حديث قد لا يخلو من دلالة لمن أراد أن يستدل ، وقد لا يخلو من عبرة لمن أراد أن يعتبر . ولعل أول مايدل عليه أن ماتجرى به ألسنة العلماء من أن العلم ينبغى أن يأتى خالصاً لوجه الله ووجه الحق، إنما هو قول كغيره مما تجرى به ألسنة البشر من غير العلماء ! فطبيعة البشر ليست مما يغيره العلم ، وليس العلم مما تتغير معه طبيعة البشر . وخير لنا جميعاً أن ندرك ذلك وأن نتمثله فى أعمالنا وأقوالنا ؛ وأن نكون فى ذلك كله صرحاء مع أنفسنا وصرحاء مع الناس . ولئن كانت هذه الحقيقة قد تمثلت فى هذا المؤتمر بالذات ، فانها تتمثل ولا شك فى مؤتمرات أخرى كثيرة . . . تتمثل ظاهرة أو خفية ، سافرة أو محجبة ، وغاية ما هناك أن الأعضاء البريطانيين فى هذا المؤتمر كانوا أشد حاجة وأكثر تلهفاً من غيرهم على أن يخدم المؤتمر أغراضهم الخاصة ، وعلى أن تسعفهم هذه الخدمة فيما هم بسبيله من إعادة تنظيم لشؤون الامبراطورية فى إفريقية . وقد لا يملك المنصف إلا أن يرى المعاذير للعلماء والباحثين فى هذا العصر إن هم كانوا فى خدمة السياسة القومية ؛ فنحن

خارجون من حرب ضروس ، سخرت فيها الأمم أبناءها فى مختلف ضروب الخدمة الوطنية ، فاشتغل العلماء — والبريطانيون منهم خاصة — خلال الأعوام السبعة أو الثمانية الأخيرة فى أعمال تمت كلها أو جلها إلى الحرب أو السياسة بسبب قريب أو بعيد ؛ وقد اكتسبوا فى هذه الفترة عادة النظام والطاعة والتفانى فى الخدمة القومية . ولعل هذا أن يكون من ورائه ما بدا من ميل أعضاء المؤتمر البريطانيين إلى الاتجاه به ، حسب خطة مرسومة ، فى نطاق سياسة عامة لا يملك العلم والعلماء أن يحيدوا عنها أو يخرجوا عليها . وسواء أصح هذا الافتراض أم لم يصح ، فلابد أن ننتظر فترة قد تطول أو تقصر قبل أن يتخلص العلماء فى العالم كله من عصبيتهم القومية التى أكرهتهم عليها ظروف الحياة ومقتضياتها خلال هذه السنوات الأخيرة . ولكن الشئ الذى ينبغى أن نعيه تماماً وأن يتمثله القائمون على شؤون البحث والدراسة فى مصر خاصة هو أنه من الخير لنا أن نحاول الإهتمام بهذه النزعات التى تسيطر على العلم والعلماء فى غير مصر ، وأن نكون على حذر مما قد تجرنا إليه تلك النزعات التى قد تأتى من جانب بريطانيا على وجه الخصوص ، ولكنها قد تأتى من جانب غيرها من الأمم . فالعلم فى هذا الزمن أصبح أقرب إلى حياة الأمم مما يبدو فى ظاهر الأمر ؛ ومحافل العلماء ومؤتمراتهم تزيد هذه الحقيقة جلاء ووضوحاً فى كل يوم . . . يستوى فى ذلك ما اتصل منها بعلوم المادة والحياة اليومية ، وما اتصل منها بفنون من المعرفة لا تمت إلى حياة اليوم وحضارته بسبب ظاهر . . . ومن واجب مصر وأمثالها من الأمم التى تقوم فى قلب العالم ، وتتصل لدراسة حضارتها بل حياتها الحاضرة بكثير مما يتدارسه العلماء فى هذه المحافل والمؤتمرات القارية والعالمية . . . من واجبها أن تشارك بكل ما يسعها فى هذه الدراسات ، وأن تسعى ليكون تمثيلها قويا فى هذه المحافل والمؤتمرات ، مهما بدا ذلك بعيد النفع قليل الفائدة عند من لا يتعمقون الأمور ولا ينظرون إلى بعيد . ولن يكون من الخير بالنسبة لنا أن ننطوى على أنفسنا فى هذا العصر الذى اتصلت فيه أسباب الحياة بين الأمم ، وفى هذا العالم الذى لا تنتهى فيه العزلة والانطواء ، إلا إلى ذبول وفناء .

سليمان حزين

هواة الموسيقى الغربية

أعرف منهم حسنين وحسيناً ومحمودين ويوسف . تجمعنا صداقة ثابتة الجذور وإن فرقت بيننا الأيام .

محمود من المحمودين اختصر الطريق من أوله ، واكتفى بهواية السماع . وأغلبنا انتهى إلى ما انتهى إليه محمود الأول الذى بدأ كما بدأنا بدراسة آلة موسيقية على الطريقة الغربية . وكانت فيما يختص به البيانو ، وفيما يختص ببقيتنا الكمنجة . وهو وإن انتهى إلى أستاذ بريطانى محترم فقد اختار فى أول أمره أستاذاً من الأقطار الشقيقة يعطى دروسه فى حانوت لتصليح الآلات الموسيقية . ولم ينجح هذا الأستاذ حتى فى إصلاح البيانو الذى يعطى دروسه عليه . شعاره « هنا الفن » ، كثير التكرار للنطق به بلهجة بلاده هكذا : هنى الفن . يجلس إلى البيانو المتداعى يوقع مالا أنزل الله به من سلطان النغم ، فتخونه أصابعه مرة، وتخونه أصابع البيانو مرات . إما لأن مطارقها تهوى على غير أوتار ، أو لأن مطارقها لا حشية فيها ، فتقرع الأسلاك قرعاً يخرج منه صوت الأوانى المعدنية تنظف فى المطبخ . فاذا هوت المطارق على فراغ ، التفت إلى تلميذه محمود وقال له « تخيل أنها مى بيمول . . . تصور هنا دو . . . الفن كله خييل (خيال) . . . هنى الفن هنى الفن . . . » واستمر يقرقع ما تخيله مطلع سونات « ضوء القمر » للمظلوم لودفيج فون بتهوفن .

ومحمود الثانى أعجبنا فى هواية الموسيقى الغربية ؛ لأنه على خلاف أغلبنا بدأ بالكمنجة العربية والشدة الشرقية ، وكان محبا لموسيقى « ولاد العرب » كما يقول — وينطق العرب نطقاً بلديا قحًّا أقرب ما يكون إلى نطق كلمة arab — وقد بدأ دروسه على أستاذ من الأقطار الحبيبة فى حانوت ، أو حق ، بشارع غيط العدة . لم يكن الحانوت يسع غير الأستاذ ونصف التلميذ ، وللنصف الآخر أن يتصرف بالقوس أو برأس الكمنجة ورقبتها على قارعة الطريق المزدحم بالمارة .

ويقسم الأستاذ الكمنجاتية إلى ذوى الأصابع الحصرم — ينطقها محمود الثانى حسرم—وذوى الأصابع الناضجة . ولا تنضج الأصابع قبل عشر سنوات دراسة متوالية . ومن المؤكد أن أصابع هذا الأستاذ قد نضجت ، بل حمضت ، منذ زمن طويل . فقد عرفت حانوته وأنا غلام صغير حتى نهاية الحرب الأولى . وما مررت به إلا ورأيته إما بسبيل إلقاء دروسه ، أو هو يسلى نفسه وعمال معمل الطرشى القريب بالعزف على الكمنجة شتى الدواليب والبشارف والتقاسيم .

بلغ محمود الثانى من إتقان الكمنجة العربية مبلغاً يحسده عليه المحترفون . وكان يقتنى كثيراً من الأسطوانات الشرقية قبل عهد التسجيل الكهربائى ، أيام كانت الأسطوانة تبدأ بصوت يخرج من النفير كأنه الزبد حين « يطش » على النار ، ثم ينطق نوع من الببغاء أو القراجوز معلناً « إسطوانات . . . افون » ويعدد الصوت أثناء الإيقاع أو الغناء مطيباً الفنان : « الله الله يا ست منيرة » أو « أهو كده يا سى سهلون » .

تعرف محمود الثانى على الموسيقى الغربية عند تاجر الأسطوانات . وقد أدرك تمام الادراك كمية المهارة التى تبدو فى الإيقاع الأفرنجى ، فراح يقتنى أسطوانات كريسلر وميشا إيلمان وهايفتز ويان كوبليك . ثم انتهى إلى تغيير شدة الكمنجة وانطلق يدرس على الطريقة الأوربية دراسة عنيفة ساعدته عليها حياة الوحدة التى كان يعيشها .

ولا أظنه اليوم مواصلا دراسته هذه ، وأعرف منه أنه تابع هوايات فنية أخرى من الأويما إلى النقش على النحاس ، وأخيراً إلى تركيب الروائح العطرية .

وحسن الأول عرفته فى آخر الحرب الأولى يجلس خارج مقهى بشارع عماد الدين ومعه كتبه ، ولا يشرب غير الكونياك مع قطعة من السكر . أقربنا جميعاً إلى الأوربيين تربية وثقافة واستعداداً . بشرته بيضاء مشربة بحمرة ، هادئ بطئ الحركة ، شاعر بكل معنى الشاعرية . يضع نظارات سميكة باطار من الباغة ، تطالعك من ورائها عيون رائقة كلها طيبة و إنسانية . عرفته أول هوايتى للموسيقى واطلاعى على أدبها ، فاذا بى أتخيل أمامى . . . فرانز شوبرت بعينه . ولم يخطئ خيالى فيما أظن . فالشبه بين هذا الحسن وشوبرت يتناول الملامح والأخلاق والطباع جميعاً .

أولنا فى دراسة الكمنجة . بدأها على يد أستاذ إيطالى شيخ ، طويل عريض

الأكتاف ، أحمر البشرة فى زرقة نشأت عن كثرة شربه للنبيذ . له شارب كثيف وخطه الشيب ، من نوع الشوارب التى كانت سائدة قبل الحرب الأولى ، والتى كان المرحوم الشيخ سلامة يقتنى زوجاً منها يحتفظ به حتى فى دور هاملت ، إلى حد أن زميلا لنا من الظرفاء كان يقول : «يا خويا الشيخ عليه شنب مش على أبو هاملت » . وكان حسن يذهب إليه فى شقته ليتلقى دروسه فيجده جالساً إلى فياسكو من الكيانتى ، يجرع الجرعة ثم يقوم إلى الكمنجة ليطلع حسن على دقائق الفن ، ويعود إلى قنينته البيضاوية المترعة بعصير كروم توسكانا .

أكثرنا ثقافة موسيقية . عرف حياة الموسيقيين وتاريخ الموسيقى ، ودرس توزيع الأوركستر وأنواع آلاته . ولكنه لم يسلم من ألسنتنا يوم بدأ ينشر المقالات فى الموسيقى الغربية ، وتحذلق فى ترجمة « السيريناد » سرناتة ، والـ harpe الأربا ، وهكذا .

أما حسن الثانى فهو أحسننا إيقاعاً وأقربنا إلى المزاج الفنى الخالص ، هو شعلة من الفن ، ولعله إلى اليوم أشدنا صلة بالفنون ؛ لأن عمله الأصلى لم يخرج عن مملكة الموزى التسع — أو الموزى الثمان كما كتبت فى ذلك الزمان ، مصراً على حذف موزى التاريخ ، فكنت موضع سخرية صاخبة محبوبة من المرحوم محمد تيمور . بدأ دروسه على شيخ مضعضع يلعب الكمنجة فى آخر صفوف أوركستر بولياكين ، لعله لفت نظر حسن بصلعته المشرقة . ولم يلبث الشيخ المسكين أن أصيب بالفالج ، وذهبنا حسن وأنا لنزوره فى أحد المستشفيات الأجنبية بالعباسية فاذا بأهله مجتمعين هناك لتشييع جنازته . وأذكر أن حسناً تقدم لورثته فى ذلك اليوم ودفع ما عليه من أجر الدروس التى قطعها مرض الشيخ فجأة .

وعزمنا أن نتلقى دروساً على أستاذ إيطالى نحيف رقيق ، سحر بكمنجته رواد محل صولت القديم بشارع بولاق (فؤاد الأول حالا) . وكان أجره أكثر مما يحتمله مصروفنا ، فاتفقنا أن نشترك فى درسين أسبوعيا ، وهى وسيلة عملية جعلت كلاً منا يستفيد فعلا بالساعة الكاملة ، إذ ينصت إلى درس زميله فى نصف ساعته .

ويوسف لا أعلم عن دروسه الأولى شيئاً . وقد عرفته كمنجاتيا رقيقاً يعزف تقاسيم هادئة حزينة ، ويقتنى كمنجة تقول « من الهواء دبنا » ، صور له من باعها أنها واحدة من كمنجات كريمونا تم صنعها منذ بضع قرون قبل الميلاد أو بعده

لا أذكر ! وما من شك فى أنها كانت أحسن الكمنجات فى أيدينا جميعاً ، كما كانت كمنجتى أوحشها . وما أصدق قولَ حسن الأول فيها : « يتحمس لاعبها ما شاء له الحماس ، فلا يخرج عن وترها الرابع إلا صوت يقول واح واح » .

وانتقل الحسنان واليوسف والمحمودان والحسين إلى أستاذهم الجديد . نمساوى يقطن شقة متواضعة قرب شارع دوبريه ، جاء إلى مصر عقب الحرب ، وقد سبقته إليها سمعة أستاذه الكبير سفتشك .

لم يلق هذا النمساوى الناعم نجاحاً يذكر إلى جانب الأساتذة المقيمين ، فلم أعرف له تلاميذ غير جماعتنا المصرية . وكان اسمه ساندى . وكلما سألناه عن ديانته أجاب بأن الله رب الجميع . ففهمنا أن يهودى عوّدته الحياة فى إمبراطورية النمسا والمجر الحرص فى التصريح بديانته .

وكانت له زوجة جميلة لا أرق منها غير رقة حالها وحال زوجها واولادها . باعهم المطرباز بضع قطع من الأثاث تتهاوى كالنجوم فى ليالى أغسطس . وكان يحذرنا من الجلوس عليها ، ويؤكد لنا أن من مستلزمات الدراسة إجراء التمارين وقوفاً . وهذا صحيح بصرف النظر عن حكاية تحمل الأثاث أو عدم تحمله .

كان لساندى أكبر الأثر فى تعليمنا الموسيقى جميعاً . فقد قوّم بطريقة أستاذه سفتشك طريقتنا فى العزف والأداء . وكان يحب تلاميذه المصريين حبا جماً ، نبادله إياه ، ونتألم لعدم نجاحه وسط الايطاليين المقيمين الذين استحوذوا على كافة تلاميذ الكمنجة فى مصر . وقد غادر البلاد بعد قليل ، ولم نسمع عنه خبراً . حتى إذا كانت سنة ١٩٢٩ وقد أخرت سفرى من فينا خصيصاً لأحضر افتتاح الأوبرا ، وإذ جال بصرى بين أعضاء الأوركستر يعزفون افتتاحية « شعراء نورمبرج المغنين » رأيت ساندى أستاذى القديم يشارك الكمنجاتى الشهير روزيه فى الدرج الموسيقى الأول !

وذهبت بعد الحفلة أنتظر بباب الأرتست خروج ساندى . وقد تلقانى بعيونه الباسمة وشعره المنتثر على جبينه . . . سعيداً برؤيتى . يذكر بالخير تلاميذه المصريين ، ويسألنى عنهم واحداً واحداً . وعرفت منه أنه فيما عدا أوركستر الأوبرا يعمل بالراديو الفيناوى ، وأن له عدداً طيباً من التلاميذ . هذا هو الرجل ، فى عاصمة الموسيقى الرفيعة ، الذى لم تعرف له القاهرة وزناً ، وغلبت عليه كمنجاتية القهاوى ومشارب البيرة !

عجيب أمر هذه الجماعة التى انصرفت فى أوائل هذا القرن إلى دراسة الموسيقى الغربية . ولم تصل فى دراستها إلى شئ كثير مع الأسف ، عدا واحداً ثابر وتخصص فأصبح مؤلفاً للمقطوعات السمفونية .

ولا يمكننى أن أتكلم عن نوازع زملائى وأصدقائى . وكل ما أستطيعه هو التكلم عن نفسى ، مستعيذاً من الشيطان . ولم أعرف أن المراضع والمربيات الأجنبيات تعهدننى حتى أنشأ محبا للموسيقى الغربية ، فقد ولدت على قيد خطوات من مسجد الحسين الذى أحمل اسمه كما حمله جدى من قبل .

وأظن أن لوالدى الأثر الأول فى توجيهى إلى الغرب . فقد كان مؤمناً بأن مستقبل مصر رهين بتقدمها فى طريق الحضارة الغربية . ولعل هذا ما يميز جيل أبى عن الجيل الحاضر . كان الجيل القائم بتربيتنا يكره المحتل ، ويدعو بالنصر للسلطان فى الآستانة ، ويؤازر الحزب الوطنى وينادى بـ « الدستور يا أفندينا » . ولكنه لم يكن يتردد فى الاعتقاد بأن أسس نهضتنا يجب أن تنشأ على مقومات الحضارة الغربية ، ولم تحوله اتجاهاته الدينية ، وميوله الشرقية عن منارة العرفان فى الغرب .

أما اليوم ، فيظهر أن كثيراً من الناس شباناً أو غير شبان ، يجدون الكفاية وأكثر من الكفاية فيما نقلنا عن الغرب ، وينادون بوقف تيار الحضارة الغربية للاتصال بتيار حضارات شرقية مهما كان أمرها وخطرها وواجبنا حيالها ، فهى صفحة مجيدة من صفحات التاريخ فحسب ، نستوحيها أو نمجدها إذا أردنا ، ولكن على أن نذكر دائماً أن حضارة اليوم هى مجموعة حضارات الشرق والغرب ، أضفت عليها شعوب أوربا الناهضة منذ عصر الإحياء تلك العناصر الأساسية فى حياة العالم اليوم شرقه وغربه ، وأن مآل من يقصر عن حضارة اليوم هو الرجوع إلى الظلام والغيبوبة .

المهم فيما يختص بموضوعنا أن عيونى تفتحت على صور من الحضارة اشرأبت إليها أعناق الجيل الذى قام على تربيتنا . والمهم أيضاً أننى كرهت موسيقى التخت منذ الصغر ، لأسباب مادية كما يظهر . منها أن التخت يبدأ متأخراً جدا فى الأفراح ، حين يبدأ النوم فى مداعبة أجفاننا الصغيرة . ومنها أن أعضاء التخت يصرفون فى إصلاح أوتارهم وقتاً طويلا . فاذا بدأ الغناء تلقاه الجمهور بضروب من الحماس والـ « سمع هس » والتعلق بالتخت الخشبى ، ونوع من

الموس العاطفى يؤكدون لى بأنه ما زال معروناً إلى اليوم فيما لم يعد يسمى التخت وهو وليده . وكنت أفضل على موسيقى التخت الموسيقى النحاسية ، خصوصاً الأميرية منها ، لنظامها وترتيبها ، ولأن أدوارها طبعاً خلو من التأوه والتكرار المضنى يتداوله المذهبجية والمطرب « بس لو يرضى الحا ... يد ... ؟ ... ب ، رى دو سى لا. بس لو يرضى الحابيب » أو « يا للى تلوم دا شئ ... بالعقل ... دا شئ . . . بالعقل » الخ .

وتنبهت فى مراهقتى إلى الموسيقى الوترية بقاعات السينما الصامت ، فأحببتها من البداية ، وتبينت من بينها على الخصوص رخامة صوت الفيولونسل . وقد عنيت دور السينما باختيار الأدوار الموسيقية التى تلائم عرض الفيلم . كما قدمت فى أعقاب الحرب الأولى فيلم « مدام بترفلاى » وصحبت العرض بكثير من موسيقى أوبرا بوتشينى . وسمعت مرة « سونات إلى كرويتزر » تؤدى كاملة فى موضع من أحد الأفلام .

ولم يكن لى ذوق موجه تماماً ، إلا من الناحية السلبية ، كأن أكره موسيقى الرقص الأفرنجى بقدر كرهى لموسيقى التخت .

وتبدأ معرفتى الجدية بموسيقى الغرب فى قاعتين من قاعات القاهرة اختفتا الآن ، هما قاعة سينما كليبر ، وقاعة الكورسال ، كان يعزف فيهما صباح كل أحد فى الخريف والشتاء أوركستران أحدهما بقيادة بولياكين ، والآخر بقيادة بونومى. وأذكر كأنه بالأمس أول سماعى للموسيقى السمفونية بقاعة كليبر . فقد وجدتنى أمام نحو خمسين رجلا منهم أكثر من النصف يلعبون الرباعى الوترى (الكمنجات الأولى والثانية والفيولات والفيولونسلات والكونترباسات) والآخرون موزعون بين الآلات الخشبية والنحاسية والناى الفضى . وأحدهم يوقع على نوع من الطبول (الطنبال) لم أكن أعرفه قبلا إلا فيما يشبهه من الطبول التى توضع على ظهور الجمال فى مواكب المحمل ، أو فى طليعة موسيقى الفرسان .

كانت أول مقطوعة سمعتها هى «السمفونية السابعة» لبتهوفن. وما زلت أذكر نوعاً من الخشوع استولى على والمايسترو يستعد بعصاه، ثم تنطلق كل هذه الآلات فى « زخمة » فجائية يتبعها لحن بطئ . ثم تنهمر السمفونية نغمات راقصة تشبع فى الجو نشوة من الفرح . وكانت تلك القاعة المستطيلة الخسيسة يعبق جوها

بالألحان التى جعلت تنعقد هنا وهناك صوراً صوتية تختلط فيها حرارة الآلات الوترية بلهيب الآلات النحاسية يطفئها خرير النايات الفضية ، ثم تضفى عليها الآلات الخشبية أشعة زرقاء أو خضراء ، مائعة ناعمة .

واصلت الذهاب صباح كل أحد إلى كونسيرات بولياكين وبونومى بالتوالى ، فسمعت أهم أعمال الموسيقيين الخالدين . وكنت فى ذلك الوقت أقرب إلى فهم الموسيقى ذات البرنامج « كالسمفونية الريفية » (بتهوفن) « وليلة على الجبل الأجرد » (مسورجسكى) « ورقصة الموت » و « فيتون » (سان صانس) و « الصياد الملعون » (فرانك) و « شهر زاد » (رمسكى كورساكوف) الخ . ولكنى كنت أيضاً أتذوق الموسيقى لذاتها إلى درجة أننى كنت أخرج الساعة الأولى بعد الظهر من هذه الكونسيرات فى شبه نشوة من الهناء والسعادة تلازمنى طول اليوم حتى آوى إلى فراشى ناعماً .

ولقد سمعت بكونسير بولياكين الكمنجاتى أنطون تشيهوف الأستاذ بكونسرفتوار تل أبيب فيما بعد . وقع كونشرتو مندلسون باصطحاب البيانو لا الأوركستر مع الأسف . ومع أنى أدركت فيما بعد سطحية موسيقى مندلسون ، ما زلت حتى هذه اللحظة أعتبر هذا الكونشرتو أحسن ما كتب مندلسون ، بل من أجود الأعمال التى ألفت للكمنجة . فيه حرارة وحياة هوجاء ، مع الرقة والسهولة اللتين تميز بهما ذلك الموسيقى المترف الذى عاش عيشة رخاء ويسر .

وكانت هذه الأوركسترات تعزف مؤلفات بعض الموسيقيين العصريين أمثال ديبوسى ورافيل ، فلم أتمكن من فهمها لأنى كنت أجهل الاتجاهات الفنية التى قامت عليها . ولا شك أيضاً أنها لم تكن تؤدى كما يجب ، فضلا عن خلو تلك الأوركسترات من بعض الآلات الهامة . وقد عرفت عضواً من أعضاء الأوركستر كان يضع كل الموسيقى العصرية فى جوالق واحد ويطلق عليها الموسيقى المستقبلية !

وسمعت أيضاً فى ذلك الوقت موسيقى الأربعيات [1] (الكواتيور) من فرقتى هرش وسفتشك — لوتسكى .

كنا أقل من عشرة مصريين نتابع هذه الكونسرات . ولم نكتف بالسماع ودراسة العزف بل رحنا نطالع ما وقع بأيدينا من كتب عن الموسيقى والموسيقيين . ونكتب المقالات فى التبشير بالموسيقى الغربية ، والمطالبة بالتجديد فى الموسيقى

---

(١) تمييزاً لها عن الرباعيات quatrains التى جرى بها العرف فى الشعر .

المصرية على أسس غربية . ونادينا بتوجيه البعثات الموسيقية ، ووضع ثلاثة منا تقريراً لوزارة المعارف بما نراه من أوجه التجديد .

وأنشأ برجرون الكونسرفتوار الذى يحمل اسمه ، وسعى للاستعانة بوزارة المعارف ، وسعينا لإلحاقه بتلك الوزارة . ولكنها اكتفت بأن تعهد إليه بتعليم بعض النشء . ولا أدرى ما انتهى إليه أمر هؤلاء ، وإن غلب على ظنى أن التيار الرجعى جرفهم ، فصاروا موسيقارين بالمعنى المتداول الآن ، والله خير حافظاً !

وتتلمذت بمعهد برجرون على أستاذ يزاول مهنته إلى اليوم بمصر ، وما زلت أعتبره من أفضل أساتذة الكمنجة ، حتى بعد أن عرفت بعض كبار الأساتذة فى أوربا . وقد التقيت به مصادفة فى أول إقامتى بفرنسا ، فكان خير دليل إلى ارتياد الكونسيرات الباريسية الكبرى . ولعله أول من نبهنى إلى فضائل أعلى التياترو فى سماع الموسيقى ، وهى فضائل فنية . . . واقتصادية أيضاً .

وكشفت لنا الموسيقى عن ناحية جديدة علينا فى الفنون الغربية ، وهى ناحية الرقص « الباليه » . عرفناها أول الأمر فى الأوبرا ، ثم أدركنا مداه البعيد حينما طلعت علينا تلك المرأة العبقرية الفذة برقصاتها الخالدة ، أعنى أنا بافلوفا ! وقد خاب ظن بعض مواطنينا الذين حسبوا أنهم سوف يطلعون على أنواع من رقص الحانات يثير غرائزهم الدنيا ، فخرجوا بين القلق والسخط على تلك المناظر التى لم تشبع شبقهم ، ولم تجد فى نفوسهم التربة الصالحة لفهمها . أما جماعتنا فقد سحرت بهذا الفن الرفيع الذى يجمع بين الموسيقى العالية وحركات الجسم الانسانى الكامل فى صور خلابة كلها شعر و إحساس .

وحين عرفت بوجود بافلوفا فى باريس أول عام لى بمدينة النور ، منعت نفسى قسراً من مشاهدتها وسط معامع الفن الأوربى ، إبقاء فى نفسى على أثرها الأول ، أثر الظمآن يرد الماء السلسبيل ، والمسافر عبر الصحراء يحط الرحال بالواحة الخضراء .

وليس غريباً أن أشير هنا إلى « الباليه » ؛ فقد كان موضع دهشتنا حقا أن نرى كثيراً من المقطوعات الموسيقية التى كنا نسمعها باعتبارها موسيقى بحتا ، تصبح أساساً لرقص الفرد والجماعة . وكانت فكرة الرقص عند ثقافتنا الضيقة وجونا المقفل محدودة بالرقص الشرقى فى خلاعته ، أو الغربى فى سوقيته .

فهذه موسيقى شوبان ألفها للبيانو ، تتحول إلى الأوركستر موسيقى لرقص رومانتيكى ، وهذه موسيقى شوبرت وتشايكوفسكى وبورودين تصور لنا فى قصص صامتة ، بلاغتها جسم الانسان فى كماله وقدرته على تأدية حركات توحى بالجمال العلوى والشعر العميق .

وكانت بافلوفا . . . ولكنى لست بعرض الباليه ولا بافلوفا ، وقد أعود إليهما فى وقت آخر .

إنما أنا أعيش إذ أكتب هذه الكلمات فى جو من الأحلام ، كأنى طائر يحمله الهواء ، أو مخلوق سابح فى أعماق الماء . والحقيقة أننى أسبح بروحى فى جو من النغمات . فهأنذا فى قاعة من قاعات الموسيقى ، ولتكن بالقاهرة أو فى باريس أو لوندره أو فينا أو برلين . وقد دخل الموسيقيون أفراداً وجماعات يحتلون المقاعد أزواجاً أمام أدراجهم ، ويأخذ كل منهم فى تمرين أصابعه على آلة موسيقية . وصاحب الطبل (أو الطنبالى) يشد طبوله ويضبط نغمها فيسمع لها هزيم كالرعد البعيد . ثم يرتفع صوت الكلارينت بنغمة « لا » فتتبعها جميع الآلات لتحقق التوافق التام . وتعود الجلبة الموسيقية متنافرة ، ولكنها محببة إلى نفس كل موسيقى ، لأنها تخلق فينا جوّ الترقب ، وتعد أوتار قلوبنا أيضاً للتوافق التام . ويدخل الكمنجاتى الأول ليحتل مكانه فى الصدارة إلى يسار منصة رئيس الأوركستر .

ثم تخفت الجلبة فجأة لأن المايسترو بدأ يخترق الصفوف إلى منصته . قد يكون من العظماء الذين يقوم لهم أفراد الأوركستر إجلالا ، أو هو ضيف عليهم فى هذه الحفلة يحيونه وقوفاً . ويستعد كل موسيقى للنوانت الأولى فوق درجه ، وتطفأ أنوار القاعة ، فتبدو المجموعة الموسيقية وحدها فى إطارها النورانى . ويمسك المايسترو بعصاه الرفيعة ويدير نظره فى أفراد الأوركستر ، ثم يرفع ذراعه اليسرى ويقرع بعصاه الدرج مرتين أو ثلاث مرات إيذاناً بالاستعداد . . . ثم يبدأ بتحريك ذراعيه فتنطلق النغمات يمنة ويسرة ، صعوداً وهبوطاً ، قوة وضعفاً ، وقد اختفى كل شئ عن ناظرى فى جو مسحور من الألحان، تصور ماتصور مما قد تدركه بعين خيالك دوائر ومربعات ، أو طرقاً ملتوية وسط الأحراج ، أو أبنية إغريقية ذات درج وأعمدة وفرنتونات . أو أنت تحسه فى أعماق مشاعرك ، فتندمج فى الألحان كأنك روح علوى يتنقل هنا وهناك بين نغمات الرباعى الوترى

وأصوات الناى والأوبوا والكلارينت والآرب والآلات النحاسية : طفل يستمع إلى صوت الأم الرءوم ، أو حبيب ينصت بروحه إلى حبيبة الروح ، مجاهد يجتاز ظلام اليأس والمحن إلى نور الأمل والظفر ، أو أنت المتنزه بخطوات الحائر بين الزهور ، الراقص بخطى الفرح بين الشموع ، المشرف على آفاق البحر والجو والسحاب !

وهناك شعور شبيه بهذا يعرفه من اشترك فى عزف الأوركستر . وقد سعدت زماناً بهذا الاشتراك فعرفته . ويختلف الشعور شيئاً نتيجة الجهد الذى تبذله كعضو من أعضاء الأوركستر . فأنت غارق فى بحر النغم الخضم أكثر من المستمعين، وأعصابك أشد إرهافاً ، وعيناك متطلعتان إلى المايسترو الذى يؤثر فيك وفى زملائك كأنه الساحر . يدك ممسكة بالقوس، والكمنجة على كتفك، وأصابع يدك اليسرى فى تأهب . ثم هى إشارة من الساحر لتبدأ ، و إذا بك و بمجموعتك تغوصون فى ذلك العباب الموسيقى . عيناك مركزتان فى النوتة أمامك ، وأذناك تستمعان لموسيقى مجموعتك وللمجموعات الأخرى . وأنت ترى من طرف جانبى ذراع المايسترو يوقع لك الوحدة ، ويشير إليك بالابطاء أو الاسراع ، بالهدوء أو القلق ، بالحنين أو الحماس . ولست بحاجة — ولا أنت مستطيع — أن تنظر إليه مواجهة ، فعينكَ تركزت فى النوتة فوق درجك تترجم رموزها أنغاماً . ولكنك تشعر بروح يسرى فى أعطافك من روح ذلك الساحر . و إذا انتهت فقراتك الموسيقية تخلفت أنت وجماعتك إلى حين ، تستريحون بقدر ما أمامكم من علامات السكوت ، فان كانت قصيرة اضطررت لعدها عدا ، لا بقدمك بل بقلبك ووعيك . و إن كانت طويلة فدليلك إلى دخولك القادم هو أولا شعورك بموضعك من النغم المحيط بك ، وثانيا عين المايسترو ويده تشير إليك بالمسير .

هذه لحظات لا تنسى ، لا يعرف قدسيتها إلا رجال الفن حين يؤلفون أو يصورون أو يوقعون ، و إلا الشعراء والكتاب يصوغون الشعر والنثر . لحظات سلك إنسانية عليا ، وعالم لا مادى .

ويتساءل الكثيرون ممن لا يعرفون عن فائدة رئيس الأوركستر ، وقد يعتبرون دوره كالساعة الدقاقة ، أو كالمصفق للراقصين . والواقع أن المايسترو هو سيد الآلاتية طرا ؛ فهو لا يعزف على بيانو أو أرغن ، إنما هو يوقع على أوتار

القلوب العديدة التى يتكون منها الأوركستر والخورس ، وقد تبلغ المئات .

وهذا أيضاً شعور لا يدركه تماماً إلا من اشترك فى الأوركستر . عرفته فى جمعية « شارل بورد » ذلك النادى الموسيقى الذى كنت أذهب إليه ليلتين فى الأسبوع للتمرن على المقطوعات التى نستعد لها فى حفلات الجمعية . هناك اشتركت فى إيقاع أوراتوريو « المسيح » لهيندل ، و « يهوديت » لهونيجر ، و « استشهاد سان سباستيان » لديبوسى . وعرفته فى أوركستر السوربون حين كنت أتوجه ليلة فى الأسبوع إلى قاعة من قاعات المحاضرة ، وأجتمع بزملائى لنشترك برئاسة أحد أساتذتنا فى إيقاع سمفونيات بتهوفن وشوبرت وموتسارت ومندلسون .

فهذا رئيس جمعية « شارل بورد » يدربنا شهرين على أوراتوريو « يهوديت » الأوركستر فى ناحية والخورس فى ناحية أخرى ، ثم يجمع شملنا لتكتمل الهارمونية ويزعق فينا بأعلى يافوخه ، يصب علينا التعنيف واللوم بلا جدوى . وينتهى بأن يقف التوقيع ليقول : « بدأتم هادئين حقا ، ولكنكم متى استقر بكم القرار فى الصوت المرتفع ، وما أسرعكم إليه ، صعب على أن أعود بكم إلى الخفوت . لكأنى فتحت أبواب الجحيم ! »

ونبدأ مرة ثانية وثالثة لنقع فى نفس المحظور ، وليعود الرئيس إلى قرع درجه بعصاه ليقفنا ، وليزعق ويؤنب . ماذا تستطيع يا سيدى الرئيس مع جماعة من الهواة المساكين ، قدرتهم من التأدية محدودة ! إغفر لهم يا سيدى الرئيس فقد أحبوا الموسيقى كثيراً .

وذات يوم يعلن لنا أن المؤلف آت ليقودنا فى ثلاث أو أربع تجارب ، وفى ليلة الحفلة . هونيجر نفسه جاء ليقودنا ، هونيجر الذى سمعت له فى باريس « الملك داود » و « القاطرة باسفيك » و « باستورال الضيف » و « الرجبى » ! هونيجر أحد أعلام الموسيقى الحديثة جاء ليقودنا ، بل جاء ليقود « يهوديت » لأول مرة فى فرنسا !

ويسلط علينا الرئيس بعض المحترفين قبل اليوم العظيم . فيرأس الكمنجات الأولى الأستاذ الأول بكونسرفتوار تولوز ، والكمنجات الثانية مساعده . وهكذا نحاط بالمحترفين كما يحاط العصاة بالجندرمة . ثم يجئ أرتور هونيجر فنتأمل رأسه الغضنفرى ، وشعره الأسود الكثيف ، ونعجب بشبابه ثم بهدوئه ،

فهو لا يزعق فينا ولا ينهر ، إنما يبدى ملاحظاته فى هدوء ودماثة . وها هو ذا يوجه كلامه إلى أعضاء الخورس من الرجال : « يا سادة ! لا تنسوا أنكم تنشدون لحن الموقعة التى ينهزم فيها جنود أوليفرن أمام جنود يهوديت . بعضكم أصيب فى بطنه بطعنة سيف ، والبعض الآخر دق عنقه هاوياً من فوق رأسه ، وثالث سحق رأسه بحجر . » يقول كل هذا باسما ساخراً . ولكن ملاحظته بلغت الصميم منا جميعاً . واستنارت الموسيقى بضوء جديد ، واندمجنا فيها ، وفى روح مؤلفها اندماجاً غريباً !

لى صديق مداعب حكيت له حكايتى هذه متفاخراً بعد عودتى إلى مصر ، فنظر إلى منكراً أن يكون هونيجر قد رضى عنا تمام الرضا إلا أن يكون قد طأطأ رأسه بعد أول تجربة وقال : «لا بأس يا سادة ، لولا أن هناك هذا المصرى ذا الشعر الأجعد ، الذى أرجو إبعاده حالا لأن إيقاعه أفسد كل موسيقاى ! »

عدت إلى مصر بعد غياب خمس سنوات ، فوجدت حركتنا الموسيقية تحت الثرى ، وقد طلعت فى سماء الفن كواكب « الطرب » تعود بنا إلى عهد ألمظ والحمولى وعبد الحى .

حسن الأول غارق فى كتبه وصحفه ، وحسن الثانى فى مشروعاته المعمارية ، ومحمود الأول يعيش فى جو فنى قوامه المثلات ، ومحمود الثانى يمزج عطوره .

ودعيت ذات يوم إلى قاعة الاحتفالات بالجامعة ، قاعة الآلات . وإذ بمائة أو مائتين من الناس انتثروا هنا وهناك ، جاءوا يسمعون يوسف يقود الاوركستر فى إحدى سمفونياته .

خرج علينا يوسف فى البونجور ، بزة المايسترو التقليدية ، وقد تضافرت السنون والفنون العبقرية على نتف شعر القمة من رأسه ، وتركت له شعراً كثيفاً أسود فى الفودين ومؤخر الرأس . بدا يوسف فى جسمه الممتلئ وقامته المديدة كأنه مزيج بالزبد من جوته وجرهارت هاوبتمان . وقاد الأوركستر قيادة متزنة ، أسمعنا فيها مقطوعات من ألحانه ، أقل ما فيها الدلالة على حسن استيعاب لدراساته الطويلة المضنية ، وقدرة على التعبير السمفونى .

هذه نهايتنا إذن ، نحن النبت الشيطانى ، وقد انصرف عنا الناس !

ولا ألومهم ، فالموسيقى التى أعنيها ، والألحان التى بذل نفسه يوسف فى

وضعها ، لا تلك القامة التى تهال على رءوسنا فى الحانات ، هى أرفع ما يصل إليه الادراك والشعور الغربى . ويخطئ من يحسب كل الغربيين من هواة هذه الموسيقى . إنما هى النخبة المثقفة وحدها ترتاد قاعات الكونسير السمفونى . ويمكننى تقسيم أهل الغرب من هذه الوجهة إلى طبقة العوام ، وهؤلاء يكتفون بأغانى الأزقة والحانات ، وقد يرتفعون أكثر ما يرتفعون إلى . . . موسيقات الجيش فى الحدائق العامة ، أو إلى الأوبرات البسيطة من أعمال الايطاليين ومن إليهم . وطبقة الخواص وهؤلاء يرتادون دور الأوبرا لسماع أرقاها وأعمقها من أعمال موتسارت وفاجنر وريشارد شتراوس ومسورجسكى وديبوسى . ومن طبقة الخواص نخبة تفضل الموسيقى السمفونية البحت إلى درجة أنهم يؤثرون سماع الأوبرات العظيمة فى قاعة الكونسير ، حيث يلقى المغنون أدوارهم وقوفا أمام الأوركستر بملابسهم العصرية دون حركة أو تمثيل . وقلة من بين الخاصة تستمع إلى الأربعيات الوترية ، وفيها خلاصة الفكر الموسيقى فى أرقى تعبيره ، أى حين يرتفع إلى مرتبة التجرد والتصوف .

وليس هذا تقسيما بالمسطرة . كما أنه ليس من الضرورى أن يتفق مع التقسيم الاجتماعى للطبقات . فقد نجد فيما تسمى نفسها الطبقة العليا أجلافا صعاليك لا يرقون إلى أكثر من موسيقى الحانات ، كما نجد من بين الطبقة العاملة أكثر الناس تفقهاً وفهماً للأربعيات الوترية . إنما يتبع تقسيمى إلى حد ما مقدار الثقافة العامة فى الأفراد ، بصرف النظر عن حسابهم فى المصارف .

والآن إذ أستعرض فى مخيلتى صور زملائى الأعزاء ، ولكل موقف وطريقة فى حبه للموسيقى الغربية وأدائه لها ، أرى يوسف يقود الأوركستر بقاعة الاحتفالات بالجامعة فى سمفونيته المصرية . وصورته تلقى ظلها على المستقبل البعيد حينما يتاح لحفدتنا أن يستمعوا إلى موسيقانا المصرية وقد تحررت من سلطان الفطرة والغريزة ، وتطورت حسب قواعد الموسيقى الرفيعة ، وراحت تردد ألحانها فى أنحاء العالم المتمدن ، لا كتحفة غريبة فى معرض ، بل كما تسمع موسيقى الشراكسة والأوزبك والكرج والأسبان والتشك فى قاعات الكونسير شرقا وغرباً ، بفضل أولئك الوطنيين العباقرة من أمثال بالاكيريف ورمسكى كورساكوف وبورودين وسميتانا وألبنيث وجرانادوس .

حسين فوزى

حماية حقوق التأليف

تجوز الحركة الفكرية فى مصر منذ نحو نصف قرن نهضة زاهرة شملت سائر ضروب الكتابة والفنون . وقد غدت الملكية الأدبية والفنية حقيقة ملموسة بتوالى الإنتاج الأدبى والفنى القيم ، وقيام الهيئات العلمية والأدبية المختلفة ودور النشر المنظمة . ومع ذلك فان مصر لم تظفر حتى اليوم بتشريع خاص يحمى حقوق التأليف ، وهو تشريع حرصت على إصداره سائر الأمم المتمدنة .

على أن ذلك لا يعنى أن المشرع المصرى قد أغفل هذه المسألة ، فهو لم ينس فى الواقع أن الملكية الأدبية كأية ملكية أخرى تقتضى حماية خاصة ، ولم ينس أن يشير فى القانون المدنى الصادر فى سنة ١٨٨٣ فى باب « الملكية » إلى هذا النوع الخاص من الملكية ، فنص على أن يكون الحكم فيما يتعلق بحقوق المؤلف فى ملكية مؤلفاته وحقوق الصانع فى ملكية مصنوعاته على حسب القانون المخصوص بذلك (المادة ١٢) . وإذن يكون المشرع المصرى قد اعترف بحقوق التأليف بصفة عامة فى وقت مبكر جدا وإن كان يحيل فى الوقت نفسه إلى قانون خاص يرجع إليه فى هذا الشأن ، وهو قانون لم يصدر مع الأسف حتى يومنا .

وقد كان لهذه الإشارة العابرة لحقوق التأليف قيمتها من حيث المبدأ؛ إذ لم يك ثمة شك فى أن الشارع المصرى يقصد بهذا النص إلى حماية الملكية الأدبية والصناعية . ومع أن القضاء لم يجد أمامه نصوصاً خاصة يطبقها فى هذه المسألة فانه لم ير مانعاً من أن تستلهم نصوص القانون العام ومبادىء العدالة كلما عرض عليه نزاع من هذا النوع .

وعلى ذلك فقد جرى قضاؤنا المصرى على تطبيق هذه النصوص والمبادىء فيما يتعلق بحقوق التأليف، وتعددت أحكام المحاكم الوطنية والمختلطة فى تقرير مبدأ حماية الملكية الأدبية والفنية ، والحكم بالتعويضات المناسبة عند الاعتداء عليها.

والظاهر أن إصدار التشريع الخاص بحقوق التأليف كان أمنية تساور المشرع

المصرى باستمرار . ويبدو ذلك فيما قرره فى قانون العقوبات المعدل من المعاقبة على الاعتداء على حقوق التأليف . فاذا طبع شخص بنفسه أو بواسطة غيره كتباً « على خلاف اللوائح والقوانين المتعلقة بملكية تلك الكتب لمؤلفيها فانه يرتكب جنحة تقليد يعاقب عليها (المادة ٣٤٨) . وكذا يعاقب كل من باع أو عرض للبيع كتباً أو أشياء مقلدة وهو عالم بحالها (المادة ٣٤٩) . وكل من قلد أشياء صناعية أو ألحاناً موسيقية مختصة بمؤلفها (المادة ٣٥٠) . وكل من غنى علناً بنفسه بألحان موسيقية أو حمل غيره على التغنى بها أو لعب ألعاباً تياترية أو حمل غيره على اللعب بها إضراراً بمخترعيها » (المادة ٣٥١) .

وهذه محاولة شاملة لحماية حقوق الملكية الأدبية . بيد أن قانون العقوبات يحذو حذو القانون المدنى فى الإشارة إلى التشريع المتعلق بتنظيم هذه الملكية دون أن يكون لهذا التشريع وجود ، وأخيراً عقد المشرع المصرى النية على إصدار هذا التشريع المرتقب والذى طال أمد انتظاره منذ سنة ١٨٨٣ فوضع فى سنة ١٩٢٧ مشروع قانون شامل لتنظيم حقوق التأليف ونشر يومئذ فى الصحف واستقبل بكثير من الترحاب والرضا ، وأبديت بشأنه آراء وتعليقات كثيرة . ولكن الأمر وقف عند هذا الحد وقبر مشروع القانون الجديد فى المهد ، وذلك بالرغم من رصانته ووضوحه واسترشاده بأحدث المبادئ الدولية المرعية فى هذا الشأن . ولم تتضح لنا يومئذ بواعث العدول عنه وذلك بالرغم مما كان واضحاً من مساس الحاجة إليه .

والآن وقد انقضت عشرون عاماً أخرى تبذل محاولة جديدة لإصدار تشريع يحمى حقوق التأليف ، وتجئ المحاولة هذه المرة عن طريق اللجنة القانونية لجامعة الدول العربية التى تضم ممثلى مصر والدول العربية ، فتقدم إلينا مشروع قانون جديد فى هذا الشأن .

ومن المعقول أن يكون مثل هذا التشريع من حيث التطبيق شاملا لسائر الأمم التى تتكلم العربية ؛ إذ هو خاص بتنظيم الحقوق الفردية ، فى التراث الأدبى والثقافى المشترك ، وهو تراث التفكير العربى الذى تتنافس مختلف الأمم العربية فى صونه والعمل على إغنائه وتدعيمه بكل طارف وجديد من منتجات أبنائها . ومن المرغوب فيه أن تمتد حماية حقوق المؤلفين الذين يكتبون بالعربية إلى سائر

البلاد العربية ، وهذا يكفله تبادل هذه الحماية أو تطبيق التشريع المشترك الخاص بها .

وأمامنا نص مشروع القانون الجديد . وهو مشروع مفصل يشتمل على أربعة أبواب تضم أربعاً وستين مادة . ويتناول الباب الأول أنواع المصنفات التى تشملها الحماية ، والباب الثانى مدى حقوق المؤلف ، والباب الثالث الجزاءات التى توقع فى حالة المخالفات ، والباب الرابع بعض الأحكام الختامية . وهو يستلهم فى كثير من نصوصه نفس المبادئ التى أخذت بها معظم التشريعات المماثلة . بيد أنه يختط فى بعض المسائل خطة خاصة وقد يجاوب أحياناً بعض المبادئ الدولية المتفق عليها .

ولا شك أن حقوق التأليف وحمايتها ومدى هذه الحماية هى لب القانون . وقد أخذ المشروع الجديد فى مدى هذه الحماية بالرأى الأكثر اعتدالا ، فجعلها مدى الحياة وثلاثين عاماً بعد وفاة المؤلف (المادة ٢٣) . والواقع أن معظم الدول يأخذ فى ذلك بمدد أطول ، ففى انجلترا وفرنسا والسويد والنرويج والدانمارك والبلجيك تمتد الحماية مدى حياة المؤلف وخمسين عاماً بعدها ، وفى إيطاليا تطبق الحماية مدى حياة المؤلف أو لمدة أربعين عاماً من تاريخ النشر ثم لأربعين عاماً أخرى بعد ذلك . وفى أسبانيا تمتد الحماية مدى ثمانين عاماً بعد الوفاة . وفى هولنده تمتد إلى أطول الزمنين حياة المؤلف أو خمسين عاماً . وفى أمريكا تمتد إلى ثمانية وعشرين عاماً من تاريخ النشر ، وتجدد لمدة أخرى مما يجعل مدى الحماية ستة وخمسين عاماً . وأما الدول التى تأخذ بمبدأ الثلاثين عاماً بعد الوفاة فهى ألمانيا والنمسا وسويسره واليابان . والظاهر أن اللجنة القانونية لجامعة الدول العربية تأثرت فى تفضيل هذا المبدأ بالظروف المحلية ، فلم ترد أن تبالغ فى حبس الانتفاع بالإنتاج العلمى والأدبى لمدة طويلة فى بلاد لا تزال فى بداية نهضتها الفكرية . بيد أن اللجنة نسيت أن استثمار المنتجات الفكرية لم يصل لدينا بعد إلى درجة من الازدهار تمكن المؤلف من التمتع بثمار إنتاجه على نطاق واسع وفى مدى قصير . والثلاثون عاماً التى تمتد إليها الحماية بعد وفاته قد لا تكفى لاصدار طبعة أو طبعتين من مؤلفاته ، وبذلك يقع الغبن على ورثته . وكان الأفضل فى رأينا أن تأخذ اللجنة بمبدأ الخمسين عاماً بعد الوفاة ، على أن تضع لذلك بعض التحفظات على نحو ما يأخذ به القانون الانجليزى حيث يجوز

نشر المؤلف بعد مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاة المؤلف إذا وجدت لذلك مبررات عملية واتبعت إجراءات خاصة .

ويأخذ المشروع الجديد بمبدأ أشد فيما يتعلق بالشخص المعنوى ، فيجعل مدى الحماية لحقوق التأليف ثلاثين عاماً فقط من تاريخ النشر (المادة ٢٥) وفى ذلك إجحاف ظاهر بحقوق الهيئات العلمية والأدبية التى تشتغل بالنشر بل فيه ما يهدد كيانها .

وفيما يتعلق بالمؤلف الذى ينشر على أجزاء يجعل احتساب مدى الحماية بالنسبة لكل جزء على حدة كأنه مؤلف مستقل (المادة ٣٠) وفى ذلك تجزئة للحماية بالنسبة للمصنف الواحد يترتب عليها اضطراب فى مزاولة الحقوق .

ومن المسلم به أن الترجمة هى جزء لا يتجزأ من حقوق التأليف ، وهذا ما يقرره مشروع القانون فى مادته العاشرة . ومع ذلك فان المشروع يحاول أن يضع حلا خاصا لمسألة الترجمة إلى اللغة العربية بالنص على سقوط الحق فى حمايتها بعد مرور عشر سنوات على تاريخ أول نشر للمؤلف أو إذا انقضت سنة من تاريخ طلب الترخيص بترجمتها من المؤلف أو صاحب الحق (المادة ١١). وقد تشعبت الآراء فى هذه المسألة حسبما يبدو من محضر أعمال اللجنة . والظاهر أن الاتجاه الذى غلب على اللجنة هو أن المبدأ الذى وضعته الاتفاقات الدولية فى برن و برلين وهو أنه لا تجوز الترجمة إلا بإذن صريح من المؤلف أو صاحب حق النشر يعتبر مبدأ قاسياً بالنسبة للبلاد العربية ؛ إذ الواقع أن الآداب العربية تجوز اليوم فترة نهوض وانتقال ، والترجمة عن المصنفات الغربية عنصر من أهم عناصرها . وقد صرح مندوب مصر فى اللجنة بأن قسوة النص الخاص بمسألة الترجمة فى اتفاق برن هو الذى حمل مصر على التردد فى الانضمام إلى اتحاد برن الدولى . ولهذا رأت اللجنة أن تضع هذا النص التمهيدى بحماية حق الترجمة لمدة عشر سنوات فقط على أن تبدى كل دولة من الدول ذات الشأن رأيها فى ذلك .

ونحن مع تقديرنا للبواعث التى حدت اللجنة إلى اتخاذ هذا الموقف بالنسبة لمسألة الترجمة ، ومع تسليمنا بأن الترجمة ما تزال من أهم العناصر فى تدعيم الآداب العربية ، فإنا نخالف اللجنة فى هذا الاتجاه ، وذلك لأسباب أدبية بالأخص . ذلك أنه لا يسوغ لنا أن نستحل تراث التفكير الغربى بهذا اليسر والتساهل

فى تقدير حقوق الغير . وعلى ذلك فإنه يحسن بنا أن نحترم المبدأ الدولى فى هذا الشأن إذا كنا نعتزم بعد إبرام التشريع المقترح أن ننضم إلى الاتحاد الدولى الخاص بحقوق التأليف لكى يتمتع المؤلفون فى البلاد العربية بحق الحماية المتبادل فى الدول الأخرى المنضمة إلى الاتحاد ، أو يجب علينا على الأقل أن نحدد لحماية حق الترجمة أجلا أطول كخمسة عشر عاماً مثلا على أن يكون ذلك بطريق التبادل إذ يتاح نقل المصنفات العربية أيضاً إلى اللغات الأخرى . وقد دلت التجارب على أى حال أنه لم تقم إلى اليوم فى سبيل الترجمة إلى العربية عوائق خطيرة ، وأن المؤلفين والناشرين الغربيين يرحبون على الأغلب بإجرائها دون مقابل أو نظير مقابل معقول .

ومن جهة أخرى فقد نص مشروع القانون فى المادة السابعة عشرة على أنه يجوز للصحف والمجموعات الدولية أن تنقل المقالات العلمية أو الأدبية أو الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة التى تنشر فى الصحف والمجلات والمجموعات الأخرى ما لم ينص على عدم جواز النقل . وهذا النص يناقض المبدأ المعمول به فى اتفاق برن الدولى وفى جميع قوانين البلاد المنضمة إليه . وتنص المادة التاسعة من اتفاق برن على أنه مع استثناء الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة يجوز لأية صحيفة أن تنقل مقالا نشر فى أية صحيفة أخرى على شرط أن تقرن النقل بذكر المصدر ، هذا إلا إذا كان النقل ممنوعاً بنص صريح . وعلى ذلك فإن مشروع القانون الجديد يرفع الحصانة عن الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة ، وهى اليوم من أعظم عناصر الإنتاج الغربى ، وقد أخذت تغدو أيضاً عنصراً هاما فى إنتاجنا المحلى . وربما كانت بواعث الميل إلى هذه الإباحة هى نفس البواعث التى حدت بواضعى المشروع إلى التساهل فى أمر الترجمة . ومما يجدر ذكره أن المشرع المصرى قد اتبع فى المشروع الذى وضعه فى سنة ١٩٢٧ أحكام التشريعات الأوربية المماثلة ونصوص اتفاق برلين ، فنص فى المادة السادسة عشرة على حظر نقل المقالات العلمية والأدبية والروايات المسلسلة التى تنشر فى الصحف فى صحف أخرى دون إذن مؤلفها . واعتبر هذا الإذن ضمنيا فيما عدا الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة إلا إذا اشترط منع النقل بصورة واضحة . وهذا النص أفضل فى روحه ومبناه من نص المشروع الجديد ، وهو فى الواقع أكثر تمشياً مع قواعد العدالة والإنصاف .

وقد نصت المادة العشرون من المشروع على إباحة النقل من الكتب المعدة للتعليم وفى مؤلفات النقد والتاريخ وفى المصنفات العلمية ، وذلك فى حدود الاعتدال « على ألا يشمل هذا النقل كل المصنف » . ومع التسليم بإباحة النقل خدمة للأغراض التعليمية والثقافية فإن هذا التعميم فيه تجاوز و إسراف ، ومن المستحسن أن يقرن ببعض التحفظات التى تحول دون الإجحاف بحقوق المؤلفين .

ولم يخل المشروع الجديد مع ذلك من بعض المبادئ المستحدثة ؛ فهو مثلا يعطى المؤلف الحق فى المطالبة بجزء من الأرباح التى تنتج من استثمار مصنفه وذلك علاوة على ما يكفله له الاتفاق الخاص بذلك إذا تبين أن فى هذا الاتفاق غبناً له أو لم تراع فى وضعه ظروف لم تكن فى الحسبان وقت وضعه (المادة ٤٨) كما يعطى المؤلف الحق فى سحب مؤلفه من التداول إذا طرأت أسباب أدبية خطيرة تدعو إلى ذلك أو إذا رغب فى إدخال تعديلات جوهرية عليه ، وذلك بالرغم من تصرفه فى حقوق امتيازه (المادة ٥١) .

وأما فيما يتعلق بأحكام الباب الثالث الخاص بالجزاءات فنلاحظ فيما يختص بمصر أن الاعتداء على حقوق التأليف أو إصدار الكتب المقلدة أو بيعها هى جرائم تناولها قانون العقوبات المصرى (المواد ٣٤٨ وما بعدها) . وإذاً فلا داعى لتكرارها فى القانون المتعلق بحقوق التأليف . وفى نظرنا أن ما ورد فى المادة الثانية والخمسين تكرار لا محل له . وعلى أى حال فمن الواجب أن يكون التناسق تاما بين القانونين فيما يعرض له كل منهما من أحكام متماثلة .

ونلاحظ أخيراً أن مشروع القانون يشير فى مادته الستين إلى حرمان المصنفات الأجنبية التى تصدر فى بلد أجنبى من الحماية إلا إذا تمتع رعايا الدول العربية بمثل هذا الحق بالنسبة لمصنفاتهم فى هذا البلد الأجنبى والبلاد التابعة له ، أو بعبارة أخرى يعترف المشروع بأهمية الحماية الدولية . ومتى كان الأمر كذلك فقد وجب أن يكون المشروع فى أحكامه الجوهرية متمشياً مع أحكام التشريعات الدولية المماثلة ، وهو ما لم يتوافر فى كثير من نصوصه حسبما أسلفنا .

هذه بعض ملاحظات أثارها مشروع القانون الجديد لحماية حقوق التأليف . وقد اقتصرنا فيها على ما تعلق منه بالناحية العلمية والأدبية . أما ما يتعلق بالناحية الفنية فقد تركنا الكلام فيه إلى ذوى الاختصاص . وفى رأينا أنه يجب إعادة النظر فى كثير من أحكامه وخصوصاً ما كان منها معارضاً للمبادئ الدولية

المعمول بها . ذلك أن الحماية التى نسبغها على حقوق التأليف تكون ناقصة إذا لم تكن حماية عامة شاملة تتناول سائر البلدان . ولا يقوم التبادل فى الحماية إلا على قاعدة التماثل فى المبادئ العامة . وقد أصبحت مصر والدول العربية الآن أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة وفى لجانها الفنية والثقافية . ومن المتعذر عليها أن تنفرد فى الأخذ فى هذا الموضوع بمبادئ وأحكام لا تتفق تمام الاتفاق مع ما يقتضيه روح التضامن الدولى فى الشئون العلمية والثقافية .

محمد عبد الله عنان

فى الفن

وقفة خالدة

كان لاوكوون راهباً يونانياً ، عرف بحبه لابنيه وحدبه عليهما ، كما عرف بحبه لأثينا و إخلاصه لها مدى الحياة . وكان هذا الراهب يعبد الإلـٰهة منيرفا ، عبادة خالصة ، ولكن تحول عن عبادتها إلى عبادة إله البحر بسويدون . فأرادت منيرفا أن تنتقم منه فسلبته نور عينيه ، ثم أمعنت فى عذابه بأن سلطت أفعيين هائلتين على ابنيه فافترستاهما ، ولم يستطع الوالد المتفانى فى حب ولديه أن يدفع عنهما شر الموت . فكان هذا الصراع العنيف الذى جاهده ، ثم هذا الإخفاق الحزين الذى آب به مضرب المثل فى انتقام الآلهة ممن كفر بها .

وجرت مأساة هذا الراهب الذى كفر بإلـٰهته فانتقمت منه وحى الشعراء والمثالين ، فصوروا المأساة بطرق مختلفة صوراً عديدة ، لم يصلنا منها إلا صورتان خالدتان . أما الأولى فهى الأبيات التى خصها فرجيل فى أنيادته بهذا الراهب وقصته . وأما الأخرى فتمثال رائع لمثال يونانى لم يعرف اسمه محفوظ فى الفاتيكان .

وجذب هذا التمثال الرائع أنظار زائرى المتحف ، فكتبوا عنه واصفين معجبين محاولين تحقيق تاريخه فى كثير من الإمعان . ولكن الزمن لم يخلد لأحد من هؤلاء الزوار وقفته أمام هذا التمثال ؛ حتى كان منتصف القرن الثامن عشر، عندما وقف أمام تلك الآية الخالدة من آيات الفن القديم ، رجل هزيل الجسم ، قد خط الحزن على جبهته سطوراً كثيرة عميقة ، لو قد امتد الزمن بصاحبها أكثر مما امتد لازدادت عدداً وعمقاً ؛ فلقد كان من هؤلاء الذين كتب عليهم أن يلموا بالحياة إلمامة قصيرة مفعمة بالأحداث الحزينة ، حتى إذا رحل عنها لا يملك من هذا الكد المتصل العنيف مايكفل لجسد دفناً محترماً ، صحا الناس فجأة فتنبهوا إلى علو مكانته وما كان يجب له من سعادة ، بل من تشجيع و إكرام و إجلال فى هذه الحياة التعسة القصيرة التى حييها .

وقف الناقد الروائى العظيم جوتهلد إفرايم لسنج أمام تمثال لاوكوون يوماً

فى الفاتيكان وقفة خلدت اسمه فى عالم النقد ، ورفعته من روائى ممتاز وأديب كبير إلى ناقد عبقرى فذ . فلقد وقف أمام التمثال وأخذ يتأمل ويتأمل . وعاد إلى ذاكرته ماقد حفظ من شعر لاتينى ، فى وصف مأساة هذا الراهب ، وأخذ عقله المتعب اليقظ يقارن ويسائل ويحاول أن يصل إلى أشياء لم يكن يتبينها ، ولكنها كلها تصب فى نهر واحد . لماذا اختلفت صورة لاوكوون حجراً عنها شعراً ؟ أنقل الشاعر عن المثال ، أم المثال عن الشاعر ، أم نقلا عن مصدر مشترك ؟ وهل هذا الفرق ينطبق فى جوهره على سائر ماعرف عن تماثيل صور بها أصحابها ما قد جاء فى شعر هوميروس من قصص ومآس ؟

وما كادت الشعلة تتقد فى رأس لسنج حول هذه الآية من آيات الفن ، وما يمكن أن تمثل من فرق يبين فنى الشعر والنحت ، حتى علا لهيبها وعم نورها وانتشرت نارها ، وكثرت الأسئلة وتزاحمت . وعاد لسنج فى هذا اليوم إلى مكتبه مكدوداً تعبا ، يحاول أن يصور من هذه الأسئلة التى تلح على رأسه شيئاً فلا يستطيع . ومرت أيام وأيام ، وكتب لسنج شيئاً ونسى أشياء ، وعاد وكتب شيئاً ونسى أشياء ، حتى استوت الفكرة آخر الأمر قائمة ، وحتى استطاع أن يخرج إلى عالم النقد نظرية قوية ثابتة لم تعارض إلى اليوم . بل إننا نتمادى فنطبقها على أوسع مما اشتملت عليه ، فتستمر صحيحة قوية تنير لنا أشياء كثيرة نحسها فى عالم النقد ، ولا نجد أحياناً مايفسرها أو يعبر عنها .

ولما اجتمعت لدى لسنج جملة مقالات فى هذا الموضوع أخرجها لنا كتاباً إن يكن متوسط الحجم فهو عميق الفكرة متسع الأفق ، يشمل كثيراً من النقد القيم حول شعر هوميروس وما قد تفجر عنه من تماثيل خالدة ، بل قد يشمل أيضاً شيئاً من شعر المحدثين وآيات فنهم هم أيضاً .

وماذا أراد لسنج أن يقول بكل هذا ؟ إنه لم يرد أن يقول شيئاً كما يعترف . وإنما هى خواطر عديدة متفرقة خطرت له نأخذ فى تدوينها ، لا يتبع نهجاً ولا يسير على خطة . وإذا الفكرة آخر الأمر تقوم بنفسها وحدها كما ينبت النبات الوحشى الجميل . إن الفرق الذى لفت نظره بين لاوكوون فى تمثال هذا الفنان المجهول وبينه فى شعر فرجيل ، لهو فرق يأتى من طبيعة الفنين : فن النحت أو التصوير ، وفن الشعر أو القول .

وقديما حاول النقاد محاولات عدة أن يفرقوا بين الفنون . فلقد أحس اليونان

قبل الميلاد بقرون وقرون ، أن لهذه الفنون ميادين مختلفة ، يوم نصبوا لكل فن منها آلهة ترعاها . فلم يكن عبثا جعلهم للفنون سبعة آلهة ، كل منها اختصت برعاية فن دون غيره . ولكنا فى القرن الخامس قبل الميلاد وعند أرسطو فى كتاب الشعر ، نجد نضوجاً قويا للاحساس بهذه الفروق . فلقد سجل أرسطو أن هناك فنوناً شكلية لها جسد وكيان خارجى ، وفنوناً ليس لها فى عالم الواقع شكل أو جسد . وجعل أساس التفرقة بين النوعين من أنواع الفن لا ما امتاز به كل منهما من الآخر ، ولكن ما اتجه إليه كل منهما من حاسة فى الانسان . فهذه فنون يتلقاها البصر ، وتلك أخرى يتلقاها السمع ، والشعر من الأخيرة . ولم يحاول أرسطو ولا من جاءوا بعده لنحو عشرين قرناً أن يجدوا لهذه الحقائق نتائج تتبعها لها أثر فى طريقة إخراج الفنين .

وما أخذت النهضة فى أوربا تعم بلدانها وتزحف مشرقة نحو ألمانيا ، حتى تصدى لمثل هذه المسائل التى شغلت أذهان الناس نقدة ألمان عرفوا بما عرف به شعبهم من القدرة الفائقة على التحليل واستخلاص النتائج ، حتى إنهم ليبعدون فى ذلك إلى حد الإفساد أحياناً . وإذا كلام يدور حول الجمال وتحديده ودرسه ، وماذا تحقق الفنون على اختلافها من ظواهر ، وماذا تستطيع الفلسفة أن تكشف عن جوهره ، وإذا كلام عن آيات الفن اليونانى القديم ، يكثر فى المجلات والمجالس والكتب ، يمثل آثار النهضة فى مثل هذه الميادين ، وكلما سار الزمن بهؤلاء النقدة نضج تفكيرهم وكثرت استعانتهم بالأمثلة من شعر هوميروس وفرجيل ، والمقارنة بين صور الشعر وصور النحت لهذا التاريخ الفنى اليونانى القديم . ويقرأ لسنج هذه الكتب ، ويسمع لهؤلاء الناس ، فلا يجد فيما يقولون بغيته ، حتى يقف فى هذا اليوم المشهود أمام تمثال لاوكوون فى الفاتيكان .

وكان أول ما أثار تفكيره عن الفرق بين الصورتين أن أثرهما فى النفس يختلف . فالراهب فى شعر فرجيل رجل عظيم ، ولكنا ننسى عظمته إلى حين فى هذا الموقف بالذات من مواقفه ؛ لأننا نرى أمامنا آدميا يتعذب مثلنا ويصرخ من الألم ، حتى ليملأ صراخه جنبات الوادى السحيق . إن راهب فرجيل كان مبصراً لا يرى صراع الأفعيين مع ابنيه ، ولكنه يصارعهما هو نفسه لأنهما سلطا عليه وعلى ابنيه معه . وهو يصرخ هذا الصراخ المدوى ، فنحس نحوه بالألم والشفقة ، بل إنا لنكاد نبكى معه من فرط ما يلقى من عذاب . أما الراهب

حجراً فهو يثير فينا شعوراً آخر . إنه يألم ، ولكن فى صمت وصبر وجلد وثبات إنه الرجل العظيم الذى يقهر الآلام الانسانية فى عظمة وجلال ووقار وهيبة . وإذا نحن نألم له على نحو آخر ، إننا نألم لألمه والاعجاب يملأ نفوسنا من ثباته وجلاله ، بل إنا نكاد نصفق له بدل أن نبكى معه .

قال لسنج : من أين أتى هذا الفرق بين الصورتين ؟ ترى لو قد أراد المثال أن ينقل إلينا صورة راهب فرجيل ، أميناً مخلصاً فى تفاصيلها ، أكان مستطيعاً ذلك ؟ أكان يمكن أن يصور هذا الراهب فى لباسه الكهنوتى ؟ كلا ! فان هذا اللباس وحده كان كافياً لإخفاء معالم الجسد كلها . والجسد فى التمثال كل شئ . إن أجمل لباس فى الدنيا لا يمكن أن يعدل جمال هذا الجسد الانسانى العارى ؛ لأنه قادر على التعبير ، وليس اللباس بمستطيع شيئاً إلى جانبه فى هذا الميدان . أنظر إلى البطن وقد دخل فأوحى بالكبت والألم . وانظر إلى عضلات الصدر وقد عبرت عن جهاد فظيع لألم مروع . وانظر إلى الأفاعى نفسها ، إنها قد انتحت عن هذا الجزء الأعلى من جسد الراهب ، لتترك لتلك العضلات حريتها فى التعبير . فما كان لوصف فى الوجود أن يعادلها فى قوة التعبير عن غاية الألم . ثم هذه الأذرع الممتدة وقد شدت عضلاتها وظهرت معالمها واضحة لترينا قوة الراهب فى هذا الصراع المميت . وراهب التمثال لو قد صرخ كما صرخ راهب الشعر ما تجلت قدرة هذه العضلات جميعاً فى التعبير عن الثبات والتجلد ، والشدة والمعاناة ، بل إنه لو قد صرخ لفتح فاه ولكانت هذه الفجوة السوداء فى هذا الوجه المعبر عن أقصى درجات الألم تشويهاً وانتقاصاً من جمال الخطوط الفنية ، التى تسير فى تناسق وتناسب ، من قمة الرأس إلى أسفل القدم . ولو قد أراد المثال أن يكون أميناً فى نقل صورة الشعر لجعل هذا الراهب يحاول أن يعدو ويقفز من الأفعيين ليتخلص منهما ، ولكنه فى الحجر واقف ، ولا يمكنه إلا أن يكون واقفاً . ولكن المثال لا يصوره واقفاً بلا سبب ، فيناقض الموضوع إخراجه ، أنه أوجد لوقفته الفنية السبب . فلقد التفت الأفعيان بقدميه التفافة قوية ، منعته ومنعت ابنيه عن يمين وشمال من أن يتحركوا جميعاً منعاً قويا .

إن المثال لا يستطيع أن يصور الحركة بالحجر ؛ لذلك هو يختار جزءاً من الحركة أو وقفة منها ، ليعبر بها عن كل ما يريد من حركة وحياة . وفنه يتجلى

فى اختيار تلك الوقفة بالذات أو هذا الجزء المعين من أجزاء الحركة . ولا بد أن يكون هذا الذى اختاره يعبر عن كل ما قد سبق من حركات ، وما سيلحقه أيضاً منها . أنظر إلى تمثال السبع حارس النيل المحفوظ فى المتحف البريطانى ! إنه بوقفته يوحى بغاية اليقظة ، بل بالقفز أيضاً ، لأنه يكاد يقفز بالفعل ، ولو قد صور هذا الأسد شعراً لقفز وافترس من تعدى على حرمة ما يحرس ولفعل كل ما أراد ، دون أن يحرج الشاعر أو يجعله يقف ليختار شيئاً من أفعاله بالذات .

إن طبيعة الحجر وطبيعة فن النحت الذى يتخذ الحجر مادته ، هى التى جعلت لاوكوون عند المثال ثابتا متجلداً بطلا خالداً ، ولاوكوون عند الشاعر آدميا يصرخ صراخاً يملأ جنبات الوادى ، لأنه فى أشد المواقف مدعاة إلى الصراخ والتألم ، وإذا نحن فى الشعر نكاد ننسى أنه بطل من أبطال اليونان ، ووطنى عظيم من مواطنيها .

والحجر معرض للنظر الدائم المستمر الطويل ، لذلك لا يمكنه أن يمثل قبحاً ، بل هو ملزم بأن يومئ لنا بالجمال . لأننا لا نستطيع أن نعاود النظر إلى قبيح ولا أن نستوحى تشويهاً . لذلك لم تكن عبثاً تلك القوانين التى كانت تسنها الحكومات قديماً فنسخر نحن الآن منها ، وننظر إليها على أنها عبث الطفولة الانسانية . إن هذه القوانين كانت أصدق فهماً لطبيعة الفن مما نظن . لقد كانت تحرم على المثالين ألا يعرضوا على الناس إلا كل ما هو جميل ، والمثال الذى يعرض القبح يعاقب عليه عقاب من يخالف قانوناً من قوانين الدولة .

إن الشاعر يستطيع أن يصور القبح لأننا لا يمكن أن نرى هذا القبح كله دفعة واحدة ، وإنما بحكم مادته سنراه على أجزاء متفرقة ، على دفعات تتلوها دفعات ، نرى آخر جزء وقد بهتت ظلال الأجزاء الأولى منه . لذلك لن يبلغ فى التأثير منا من حيث قبحه ما يبلغه فن النحت أو التصوير ، حينما نراه كله دفعة واحدة بكل بشاعته وبكل ما ينفر من إعادة النظر إليه ، بل إن صورته حجراً تظل عالقة بأذهاننا زمناً طويلا ومعها آثارها السيئة التى تحدثها فى النفس.

إن الشاعر أكثر حرية من المثال . لأنه يستطيع أن يصور القبح والجمال ، وهو أقدر منه فى تصوير الحركة بنوع خاص ؛ لأن مادته تعينه على ذلك . فمادته كلام يظهر ليختفى ، يسمع أو يقرأ ليأتى غيره ثم غيره ، وهكذا ، كالحركة فى تتابع أجزائها واختفاء كل جزء بظهور ما يليه . ولكن الشاعر لا يستطيع أن

يصور صورة كاملة بكل أجزائها مهما حاول ذلك . إنه لا يستطيع أن يوحى لنا بالكل دفعة واحدة ، ولا بد له من رسم الأجزاء جزءاً جزءاً . أليست مادته الخام كلمات لا يمكن أن تقال كلها دفعة واحدة ، ولا يمكن للسمع إلا أن يتلقاها مجزأة ! فاذا حاول شاعر أن يصور وقفة جميلة أخفق فى إشعارنا بجمال التناسب والتناسق بين كل هذه الأجزاء التى تؤلف الوقفة الساكنة . ولذلك نرى الشاعر الحق لا يصور لنا منظراً جامداً و إن بدا فى ظاهره كذلك . إنه يصور لنا الحركة والحياة من وراء هذه المناظر الصامتة . ألست ترى إلى هوميروس وهو يصف درع البطل اليونانى أشيل وصفاً بارعاً ، لا يحاول حتى أن يوحى لنا بصورة هذه الدرع ، كما لو كنا نراها بالفعل ، مادة جادة . كلا إنه يصفها عن طريق وصف كيفية صنعها . فهذا هو الحفار الماهر وقد جلس إلى الدرع جلسة الفنان ، يصور منظراً منظراً من مناظرها . ما ينتهى من منظر ، بل من جزء منه حتى ينمحى ، ويبدو جزء آخر فى حركة وفن وحياة .

و يحدثنا لسنج فى سياحة طويلة شائقة عن كثير من صور الشعر والنحت ، التى رسمت صور التاريخ اليونانى الخالد ، مقارناً بين الصورة نفسها فى الفنين ، خالصاً آخر الأمر إلى هذه النتيجة المؤثرة فى تصورنا الفنين وتقديرنا لهما ، بل نقدهما أيضاً . وهى أن الكلمات أصوات تلقى فى الفضاء لا يمكنها أن توجد دفعة واحدة ، ولا يمكنها إلا أن توجد فى أذهاننا صوراً متعاقبة مسلسلة ، ننسى إلى حد ما أولها عندما نكون نتصور فعلا آخرها . ولذلك كان الشعر باعتباره فنا صوتيا أليق الفنون للتعبير عن الحركة عن هذا الذى يوجد مثله مجزأً على دفعات . أما الحجر الذى يوحى لنا بالأجزاء كلها دفعة واحدة وفى لحظة واحدة ، ولا بد لذلك من أن يتوافر فيه شرط التناسق والجمال ، فهو أقدر على التعبير عن وقفات بعينها ، توحى لكثرة النظر إليها بالمعانى الكثيرة المتوالدة ، وهو أقدر أن يوحى لنا بالخلود ، وأن يطبع الصور فى أذهاننا بحيث لا تبرحها أبداً . ومن هذا الفرق بين طبيعة المادة الخام فى الفنين وما يحيط بتلك المادة من ظروف ، نستطيع أن نتبين دقائق الاتجاهات فى كل من الفنين ، بل أن نفهم تاريخهما ونتذوق آثارهما فى ضوء يجعل لهذا التاريخ عمقاً ما أحسسناه من قبل ، ولهذا التذوق طعماً ما لمسنا أسبابه من قبل .

ترى لو قد طبقنا نظرية لسنج إلى أبعد مما قد سار بها صاحبها فى عالم الأدب

وحده ، ألسنا نخرج من هذا التطبيق أشد اقتناعاً بسلامتها ؟ أنظر إلى المادة الخام وكل ما يحيط بها من ظروف فى عالم الفنون الصوتية ، ثم فى عالم الفن القولى بالذات ، تجد سلامة هذا التطبيق ومعونته فى الوصول إلى نتائج طيبة . فالموسيقى أصوات ، ولكنها أصوات لايحدها معنى متعارف عليه . فليس بين أنغامها نغم يمكن أن يثير فى نفوس الناس صورة مشتركة لشئ بعينه ؛ لذلك كانت الموسيقى أليق من فن القول فى التعبير عن الحركة الغامضة ، حركة العواطف والانفعالات العنيفة ، على حين أن وجود المعنى المتعارف عليه لصوت الكلم يجعله أقدر فى التعبير عن الحركة المادية أو المعنوية المتضحة شيئاً ما . أو لسنا نجد الأديب نفسه كلما قويت عاطفته أُرتج عليه فلا يستطيع إلى وصفها بالكلام سبيلا ! و إذا هو يستعين بالموسيقى ليصور بغموضها هذا الغامض الذى يحسه ، و إذا كلامه يخرج لنا موزوناً مقفى ، يخرج لنا شعراً تغلب عليه الموسيقى فلا نجد لكلامه رونقاً إلا بها . فاذا خمدت العاطفة قليلا واستنارت أمام الأديب سبل التفكير فاتضحت له معالم ما يريد أن يصور ، وَفَى الكلام المحدود بمعنى متعارف عليه بما يريد من غرض . بل إنه كلما نامت العاطفة وصحا العقل عمد إلى أكثر هذه الكلمات تحديداً فى معناها ، ليدلنا على فكرته . وهكذا يظهر لك جوهر الاختلاف بين الشعر والنثر ، لمجرد التزام نظرية التفرقة بينهما على أساس المادة الخام . وما يقال فى التفرقة بين الشعر والنثر ، يقال فى التفرقة بين القصة والخطبة ، والمقال والمسرحية وهكذا . سائل نفسك دائماً ماهى المادة الخام ، وما الظروف المحيطة بها ، وماذا تستوجب تلك الصفات من آثار فى الصورة التى يخرج عليها الفن ، فلن تجد لهذه النظرية شذوذاً فى النقد ، بل إنك لواجد منها خير معين ، لا فى تصور هذه الفنون القولية وما بينها من اختلاف وتشابه ، فحسب ، ولكن فى تذوق تلك الفنون أيضاً وفى الحكم عليها آخر الأمر وأنت تحاول أن تبين مواطن الجمال فيها والقبح .

لقد فطن النقاد قديماً إلى أطراف كثيرة من هذا الكلام ؛ فانا نجد كلاماً مثلا حول الخطابة وما يميزها من سائر فنون القول ، على أساس أنها تقال لجماهير فى مكان عام ، وكلاماً حول ما تمليه هذه الظروف على الخطيب من طرق فى التعبير دون سواها . ولكن الذى أذاعه لسنج فى عالم الفن لم يكن نضوجاً لتلك الفكرة المبعثرة ، بل إنه فكرة جديدة تؤدى إلى نتائج أعظم من هذه

ويصب فيها هذا القديم لأنه يتمشى معها . وفى ذلك مجرد إثبات للنظرية . ذلك أن القدماء نظروا إلى الموضوع من زاوية بعيدة عن الزاوية التى نظر إليه منها لسنج . إن نظرية المادة الخام وما تطيق هذه المادة من أنواع التعبير بحكم طبيعتها وما يحيطها من ظروف ، فكرة يجب أن نعترف للسنج فيها بفضل الكشف الجديد . فان تداخل فيها شئ مما قد سبق إليه فان ذلك يزيد من قيمة الكشف ولا يقلل منها لأنه برهان على صحته ، كما يكون ذلك فى سائر الكشوف العلمية والعملية التى نعرفها .

وبهذه النظرية ، نظرية التفرقة بين الفنون على أساس ما بين موادها الخام من فروق ، خلدت تلك الوقفة التى وقفها لسنج منذ أكثر من قرنين ، أمام هذا التمثال الرائع من تماثيل متحف الفاتيكان .

سهير القلماوى

جيوش كسرى أنوشروان

لم تهدأ حماسة الشعب ، ولم تسكن خفة طربه الجامح الذى تولاه منذ استوى عاهله كسرى أنو شروان على إيوانه . فقد ظل سبعة أيام تتدفق وفوده صوب القصر الكسروى هاتفة للشاه الجديد هتافاً ما زال يشتد ويتقد حتى خرج بها عن وعيها .

وجلس كسرى على عرشه فى تلك الليلة يحتفل بمرور أسبوع على أسعد حادث قديقع لانسان ، وقبع إلى يمينه عمه الأكبر ، وإلى يساره عمه الآخر . وامتدت أمامه حلقة دار بها رقص القيان الحسان ،وأحاط بالحلقة العازفون والزمارون يذكون الرقص بأنغامهم الشجية ، ومن وراء هؤلاء جلس أعيان البلاد وسراتها .

أخذ كسرى ينظر إلى ما حوله نظرة الحالم ، وازدحمت فى رأسه الخواطر التى ظلت تهيمن عليه طوال الأيام السبعة . كانت هذه الخواطر تدور حول معنى واحد ، هو أنه صار مالك الملك والمتحكم فى رقاب أولئك الناس الجالسين حوله ، والمزدحمين أمام قصره ، والمنتشرين فى أرجاء مملكته . ولما كان الجشع يزداد بازدياد الغنى ، فانه طفق يحلم بتوسيع رقعة ملكه ، ومضاعفة عدد رعاياه، ثم زخرف له الوهم أمانى حسبها قريبة المنال ، وهى أن يخضع العالم بأسره لسلطانه الشامل .

وفى أثناء الفترة التى توقف فيها العزف ليستأنف العازفون دوراً جديداً ، ملا الغرفة هتاف السابلة بحياة سيدهم الجديد . وتقدم الوزير فى خشوع إلى مليكه ، وتوسل إليهأن ينزل فيتفضل على عبيده المتشوفين فى الطريق إلى اجتلاء طلعته الملكية باطلالة قصيرة من نافذة قاعة العرش ليثلج صدورهم ، ويمتع نواظرهم . ونزل الشاه الخطير وقبل الرجاء ، وتهادى بين صفّى الساجدين له إلى النافذة ، فقوبل بصيحات طرب تصم الآذان ، وجازى الصائحين على إخلاصهم بابتسامة تنم عن رضاه السامى . رأى من خلال أغصان الأشجار

ألوان المصابيح ذات الورق المكور المكسر ، واستطاع أن يتبين على ضوئها ذلك الحشد الزاخر الذى ضاق به شارع القصر على اتساعه ، واطمأنت نفسه إلى دلائل ولاء رعيته . ثم خاض بين الساجدين فى وقار عائداً إلى سدته العلية .

ولكنه لم يكد يطمئن فى أريكته بعد عودته حتى توقف هتاف السابلة فجأة ، وساد الشارع صمت رهيب أعقبه هرج ومرج . وأسرع الوزير إلى النافذة ليتبين ما حدث ، فانخلع قلبه إذ رأى فلول الجماهير تولى الأدبار متوارية فى الأزقة المظلمة ، وإذ سمع الكلمة الرهيبة تتهدج كالحشرجة فى أفواه الجازعين : « الثوار . . . الثوار » .

وهبّ الشاه واقفاً وقد أفقده الجزع وقاره ، وجالت عيناه ذات اليمين وذات اليسار . وتقدم خطوتين ثم نكص فى ارتياع على عقبيه . وجرى بعض الحضور من علية القوم إلى النافذة يستزيدون من أخبار ما يجرى خارج القصر . وتردد بعضهم الآخر لا يدرى أيظهر للشاه عطفه وعزمه على الدفاع عنه حتى الموت فيتعرض لسخط الثوار فى حالة فوزهم ، أم يعرض عنه فيتعرض لسخطه فى حالة إخفاقهم .

وخاب أمل الشاه فى شعبه بعد أن كان موقناً منذ برهة من ولائه له . وتقوض على حين فجأة صرح آماله الباسق ، ولم يعد يملأ رأسه فى تلك اللحظة إلا خاطر واحد ، هو الاهتداء إلى مخرج من حرج المأزق الذى وقع فيه .

ولم يجرؤ وزيره الذى نعم بآلاء أبيه على التخلى عنه وخذلانه فى محنته ، فأسرع إليه واقتاده إلى باب النفق السرى الذى أُعد من قديم لمثل هذه المناسبة المنكودة . وهرول وراءهما الأميران اللذان كانا يزينان العرش منذ برهة بجلوس أحدهما إلى يمينه والآخر إلى يساره . وقال الوزير لسادته وهو يهم باغلاق الباب السرى وراءهم : « سينتهى بكم هذا النفق إلى بئر مهجورة ذات سلّم صاعد إلى وجه الأرض ، وستجدون هناك ثلاثة جياد لن يعجزها قطع المسافة القائمة دون الحدود . . . وأتمنى لكم التوفيق » . ورجع الوزير أدراجه ليعد الجياد الثلاثة ويرسلها إلى البئر المهجورة . أما السراة والأعيان الذين خذلوا مليكهم ، فقد استعدوا فى قاعة العرش لاستقبال الثائر بهرام ، وللمناداة به شاها على بلاد الأكاسرة . وبينما كان هذا الأخير يستقبل حياة جديدة حافلة بالعز والمجد والرفاهية ، كان كسرى يستدبر مثل تلك الحياة ، ويودع كافة أمانى الدنيا

إلا أمنية واحدة . كان يتمنى أن تكتب له النجاة ، وأن تتاح له حياة لا يشترط لها شروطاً ، بل يرضى بها ولو كانت أتعس من حياة أتعس رعاياه . . .

تنكّب الشاه وعماه اللذان صحباه الطريق السوى ، ولاذوا بالطرق الجبلية الوعرة يقطعونها تحت أستار الظلام ، ويأوون إلى الكهوف المعتمة طوال النهار ، فكان نهارهم أسود كليلهم سواء بسواء . ولم يكل الشاه ولم يتعب ، ولم تهدأ ثائرة خوفه . وكانت حوافر خيله التى تنهب الأرض تزعجه لأن الوهم أدخل فى روعه أن الثوار قد يسمعون وقعها ، فكان يكبح جماح جواده ويطلب إلى رفيقيه تخفيف سرعة العدو . ولكن سرعان ما كان الوهم يصور له من جديد أن أعداءه فى أعقابه وعلى وشك اللحاق به ، فيختلف رأيه ، ويلهب ظهر جواده بسوطه ، ويندفع بين الصخور الزلقة التى قد تكون أشد خطراً عليه من ملاحقة الثوار .

ومر على الطريد الشريد ورفيقيه أسبوع لشد ما اختلف عن سابقه . أسبوع جزع وشدة وقنوط ، على حين قد امتلأ الأسبوع السابق بألوان الدعة والرفعة والأمل البراق . وأدرك عندئذ أولئك الهائمون على وجوههم أنهم صاروا بمنجاة من طائلة الثوار ، فأخذوا يتخيرون النجعة المناسبة للالتجاء إليها . وأشار الأميران بالتوجه إلى الجنوب، صوب الحجاز أو اليمن منوهين بما جبل عليه العرب من حسن الضيافة و إغاثة الملهوف ، ومتوجسين خيفة من الروم الذين تأصلت كراهية الفرس فى نفوسهم . ولكن الشاه الذى بدأ يطمئن على حياته لم يشاركهم فى رأيهم ؛ لأن سراب الأمل عاد إلى مداعبته ، وأوحى إليه أن إمبراطور الروم قادر من دون العرب على إسداء يد المعونة إليه ، و إمداده بجيش يمكنه من استرداد ملكه . وغرّب الركبان الجياع الواهنون فى اتجاه بلاد الروم لأن أمر الشاه مكتوب له النفاذ ولو كان صاحب الأمر مخلوعاً منبوذاً .

ولم يلبثوا أن اعترضت سبيلهم ربوة لم يكادوا يتبوءون قمتها حتى أشرفوا على مدينة رومية تقع على الحد الفاصل بين بلادهم وبلاد الروم . وخفقت قلوبهم وتنزّت بين جوانحهم لاقتراب الساعة التى سيتقرر فيها مصيرهم . وشطح بهم التخمين ورجّحهم بين اليأس والأمل . والتمس كسرى الخلاص من عذاب خواطره المضنية باعداد الحديث الذى سوف يلقى به بين يدى العاهل الذى يقصده ، و إحكام الحجج التى سيدلى بها إليه ليقنعه بضرورة معاونته على إخضاع

مغتصبي عرشه . ولم يشعر ثلاثتهم ، وهم فى شغلهم الفكرى الشاغل ، بطول المسافة التى قطعوها إلى تلك المدينة ، ولم يفيقوا من سبحات فكرهم إلا وهم وقوف على باب السور الكبير .

رحب بهم حاكم المدينة وأكرم مثواهم . وقد أدهشهم أن يعلموا منه أن نبأ الثورة وما أعقبها من انتصار بهرام وهروبهم وصل إلى علمه منذ يومين ، وأنه أرسل إلى إمبراطوره رسولا يستطلع رأيه فى شأنهم لأنه توقع مرورهم بمدينته. وضاقت الدنيا فى وجه كسرى وثقلت عليه خطوات الزمن وهو ينتظر قرار عدوه فى شأن مصيره .

وحان الفرج بعد شدة الحرج ، ووصل وفد من قبل الامبراطور موريق إلى هيرابوليس ، وهى المدينة التى نزلها كسرى وقضى بها حقبة عسيرة لم يعرف خلالها أهو أسير مقيد أم ضيف مكرم . وسمع هذا اللاجئ الحائر ، وهو لا يكاد يصدق أذنيه ، من رسل قيصر الروم ، أن سيدهم سعيد بالتجاء عاهل الفرس إلى بلاده ، وأنه يود أن ينعم بلقائه فى القسطنطينية ليظهر بنفسه مبلغ اغتباطه بهذه الزيارة الميمونة .

وانتشر بين الناس نبأ قدوم الشاه إلى بلادهم وترحيب قيصرهم به ، فخرجوا فى كل مدينة مر بها وهو فى طريقه إلى القسطنطينية لاستقباله ، وأظهروا له من دلائل الابتهاج بمقدمه ما أثار عجبه . ولو اطلع على ما يدور بأخلادهم لهاله أن يعلم أنهم أملوا من وراء وقوعه فى أيديهم أن يتخذوه وسيلة لتغلغل جيشهم إلى قاعدة ملك أعدائهم . وبعد رحلة طويلة هوّنت عليه مظاهر إجلاله وإكباره مشقتها ، وصل إلى شاطئ البسفور حيث استطاع أن يلمح فى شاطئه المقابل معالم القسطنطينية التى كان يطمع فى القدوم إليها غازياً ، وما ابتعدت السفينة التى استقلها لاجتياز المضيق عن الشاطئ قليلا حتى أمكنه أن يتبين أعلام الزينة التى نصبت فى عاصمة بلاد أعدائه احتفاء بمقدمه إليها .

رست السفينة إزاء حديقة القصر الامبراطورى ، وكان سيد القصر واقفاً بين وزرائه وكبار رجال حاشيته لاستقبال زائره . وما التقيا حتى طوق كل منهما الآخر فى عناق حار ، وبدا الخصمان اللدودان كأنهما صديقان حميمان . وافتر ثغر كل منهما عن أعذب البسمات ، فى حين لم يفكر كلاهما إلا فى أمثل طريقة يستطيع أن يستغل بها صاحبه .

ولم يعن كسرى بما حوى قصر بيزنطة الفاخر من روائع التحف التى ترامى إليه صيتها وهو لم يزل فى بلاده النائية ؛ فقد شغل عنها فى هذه الآونة العصيبة بتهالك نفسه على معرفة النية التى بيتها له مضيفه . وبعد جولة فى أنحاء ذلك القصر الفاخر جلس الضيف والمضيف فى شرفة شرقية تطل على القرن الذهبى حيث تبرجت الطبيعة عن أروع فتنها . وما وقع لمخلوق أن رأى تلك الفتن إلا بهر بها وأُخذ أخذاً . ولكن نصيبها من اهتمام كسرى لم يكن أوفى حظًّا من نصيب التحف والرياش البيزنطية التى مر بها منذ هنيهة وألقى عليها نظرات شاردة .

أخذ يتحدث إلى جليسه فى أمر استعادة ملكه . وقال له فيما قال إن الكارثة التى أصابته لا تتعلق به وحده ، لأن كل ذى سلطان معرض لمثلها ، فهى تتعلق بالملوك جميعاً . ومصلحتهم تقتضى التكاتف والمعاضدة فى حالة نزول أية ملمة بأحدهم ، حتى يطمئن كل منهم إلى حصوله على العون نفسه فيما إذا احتاج إليه ، وحتى لا يحدِّث أى طامع فى الملك نفسه بالثورة على مليكه . وتكلف قيصر الروم العطف على المستعين به ، وتظاهر بأنه اقتنع كل الاقتناع بالآراء السديدة التى أدلى بها ، وعاهده على أن يجيش له جيشاً جراراً يضعه تحت تصرفه . ووقع كسرى فى الغفلة التى يقع جل الناس فيها ؛ لأنه لم يفطن إلى أن موريق قد يكون مثله فى طمعه وفى تحرقه إلى بسط سلطانه على بلاد غيره من زملائه الملوك .

اطمأنت نفسه ، وشاعت الغبطة فى كيانه ، وسرّح طرفه فى ألوان الطبيعة المتلألئة أمامه ، فرأى جمالا لا يطيف مثله بخيال الشعراء ، وتعاون الأمل الجديد المنبثق فى نفسه مع حسن المناظر المتجلية له على تهيئة جو حوله من السعادة لم يعرف مثله حتى أيام تتويجه السعيدة .

وجاء الليل بخواطره السود ، وأقض مضجع كسرى التفكير فى أولئك الثوار الذين أزعجوه وشردوه ، وجعل يتخير لتعذيبهم أبشع الوسائل ، ويفتر ثغره عن بسمات رهيبة وهو يفكر فيما يفكر فيه . ولم تحدث له فكرة استرداد سلطانه بعض النعيم الذى أحدثه شعوره بقرب إشباع شهوة انتقامه .

ولم يضيع موريق هنيهة من الوقت عبثاً . وأشرف بنفسه على الاستعداد لغزو البلاد التى طالما حلم بضمها إلى أملاكه . ولكن كسرى القلق المتبرم

كان يستبطئ ذلك الاستعداد متهماً الروم بعدم المبالاة بأمر تلك الحملة التى تورطوا فى تجريدها لمجرد مرضاته . وبعد انتظار مضن مشحون بلواعج الضجر والسأم تم له ما أراد . وسار ملك الفرس على رأس جيش أعدائه ليفتك بجيشه ويرغم أنف رعيته .

توغلت كتائب الروم فى أراضى الجارة المخوفة ، ولولا قيام الشاه على رأس الغزاة لقهرهم الجزع قبل أن يقهرهم أعداؤهم . ومر يوم بعد يوم دون أن يظهر للخصم المرتقب أثر . وعاود الشاه المتعطش لسفك الدماء ضيقه وتململه ، وزاده هذا الضيق والتململ حرصاً على التشفى والأخذ بالثأر . وفى عشية أحد الأيام جاء المستطلعون الروم بنبأ وضع حدًّا لذلك الانتظار الممل . قالوا : إن جنود الفرس يرابطون على شاطئ نهر الزاب القريب .

طاف نرسيس قائد الروم فى صحبة الشاه بفصائل جيشه متفقداً مبلغ أهبتها للالتحام بالعدو . ولم يغب عن الجند أن سيد الفرس كان أكثر لهفة على قهر بلاده من قائدهم . وخيم الليل وسجا ، واعتل نسيمه ، وانتثرت نجومه ، وأتاحت الطبيعة للقوم نعمة الاستمتاع بسحرها . ولكنهم انصرفوا عن هذا النعيم إلى التفكير فى نار الجحيم التى سوف يصلونها فى الصباح التالى . وانقضت ليلة رهيبة اختلجت فيها القلوب ، واضطربت الأعصاب ، وبات الجميع يذكرون الموت الذى يترصدهم إلا كسرى الذى لم يكن يفكر إلا فى استرداد عرشه ، وفى الانتقام من أعدائه .

وما كاد فجر اليوم التالى يرسل أشعته الأولى حتى مشى كل من الجيشين إلى الآخر فى حذر وتهيب . ولم تلبث الواقعة أن وقعت ، والتحم الفريقان فى قتال بذل أحدهما فيه دماءه ليحتفظ بهرام بعرش الأكاسرة ، وبذلها الآخر ليشبع موريق مطامعه ويوسع رقعة ملكه . ولولا وصول الشاه سالماً إلى بلاد الروم واستعانته بعاهلها لما أُريقت تلك الدماء ، ولا بذلت تلك الأرواح .

ولم يشترك كسرى أنو شروان فى المعمعة ، ولم يُزج الصفوف تحت الدِّرَفْس كما ظهر فى نقوش أنطاكية ، ولكنه وقف مع عميه على ربوة عالية يرقب المعركة التى كانت تدور على آخر مرمى بصره ، ويغتلى غيظاً لقصور نظره عن تمييز ما يعتورها من كرّ وفرّ . وكان يزعجه بين حين وحين صهيل الجياد الثلاثة التى أُعدت لهربه مرة أخرى إذا دعت إلى ذلك حاجة .

وجرى لبهرام أثناء المعركة ما جرى لكسرى فى قاعة عرشه أثناء الثورة، إذ خشى أنصاره انتقام الشاه فى حالة اندحارهم . وفكر كل منهم فى أن يسبق غيره إلى الاستسلام والاستغفار عما سلف . ولم يلبثوا أن تباروا فى هذا المضمار، وطفقت جماعة من الزعماء تلقى سلاحها بعد جماعة، وسعوا إلى الأسر صاغرين. ثم توسلوا إلى نرسيس قائد الروم أن يقودهم إلى الشاه ليقدموا إليه فروض الطاعة . وعندما هلّ عليهم المليك الذى ثاروا عليه سجدوا له والتمسوا المغفرة . وتفقد كسرى بينهم الثائر بهرام، فلما لم يجده وعلم أنه ولى الأدبار، وعد أن يغفر لمن يأتيه برأسه .

وجرى الذين عاونوا بهرام على الثورة فى كل اتجاه، باحثين عن زعيمهم المنكود . ومنّى كل منهم نفسه بأن يتمكن من قتله ليعود إلى الشاه المنتصر برأسه ويفوز برضاه . ولم يلبث بعض المحظوظين منهم أن فازوا بما أملوه، وعادوا بالرأس المقطوع تقطر منه الدماء، وقدموه وهم يصيحون صيحات الطرب إلى العاهل الغاضب . وما افتر لهم ثغره عن ابتسامة الرضا حتى سجدوا له وتمسحوا فى التراب .

وتبدلت حظوظ سراة فارس، واختلفت أقدارهم ؛ فحظى بالعطف السامى كل من أصابته نقمة فى العهد الغابر، كما أصاب التنكيل كل من نعم برضا بهرام . وأُخرج وزير كسرى القديم من غيابة السجن واقتيد إلى قصر سيده وقد أعشى عينيه ضوء الصباح . وجرت الأمور من جديد فى مجراها القديم . ولم يتغير إلا قلب كسرى الذى زادته ثورة الثوار ثم العصف بقادتها عنتاً وخبث طوية، وإلا مجلسه فى قاعة العرش إذ احتل نرسيس قائد الروم المقعد القائم إلى يمين كرسى الملك .

ولم يهتم أحد بهذا التغير الأخير الطفيف إلا الوزير المسن ؛ فقد كره القائد الرومى من صميم قلبه، وازداد له على توالى الزمن كرهاً ؛ لأن ذلك الأجنبى لم يجلس إلى جانب كسرى صورة كما كان يجلس عم هذا الأخير من قبل، بل كان يتدخل فى كل حديث يجرى بين العاهل وبين كبار رجال حاشيته أو كبار حكام الدولة . وكان يبدى رأيه فى كل شأن من شؤون الحكم، ويصر على أن يحمل رأيه دائماً على أنه أمر واجب الطاعة .

لم يطق الوزير الصبر على هذه الحال . وفاتح كسرى فى أمر هذا الدخيل

المتهجم على سيادة الدولة ، وعلى حق صاحب الأمر والنهى . ولكن صاحب الأمر والنهى كان مشغول البال عن مثل هذه الترهات بتوزيع رضاه وسخطه بين عباده وفق أهوائه المتضاربة . وطال الزمن وقائد الروم ما يزال سادكاً بمقعده إلى يمين الشاه ، وجيش الروم ما يزال مرابطاً بمعسكره إلى جانب قاعدة الملك .

وجرؤ الوزير على سيده ونبهه مرة أخرى إلى ما فى بقاء تلك الحال على ما هى عليه من مساس بعزة الدولة وكرامة العرش ، وأشار عليه بأن يكتب إلى إمبراطور الروم مطالباً بأن يستدعى هذا الأخير قائده نرسيس ، ويسحب جيوشه التى فرغت من المهمة التى كلفت بها . وما طرقت أذن كسرى عبارة سحب الجيش الرومى حتى ثارت ثائرته ، واشتد حنقه على وزيره ، ورماه بالحمق وأفن الرأى .

وعوّل الشيخ المحنك على أن يحقق غايته بحسن السياسة ، فصبر على مضض متحيناً الفرص . واستطاع بما جبل عليه من دهاء ، وما اكتسب طوال إقامته فى قصر سادته من طول باع فى الحيلة والمكر والخداع أن يوغر على مر الزمن صدر كسرى على القائد الذى أعاد إليه ملكه ، وأن يحمله على الكتابة إلى موريق فى أمر مسلكه النابى . وأملى الشاه على وزيره شكواه إلى الامبراطور ، واقتصر على المطالبة باراحته من ذلك الممتن عليه . فلما أعاد الوزير الكرة وأشار عليه بأن يطالب كذلك بجلاء جيش الاحتلال عن بلاده ، غضب كسرى من جديد ، ورماه بخيانة عهده وعدم مبالاته بسلامته وسلامة عرشه من طمع الطامعين فيه ، وتحمس فختم رسالته بأن ذكر لموريق أنه اتخذ الجيش الرومى الذى وطد له ملكه حرساً له .

وحقق له صديقه الطامع فيه رغبته . وأرسل القائد جرمانوس ليحل محل نرسيس ، وقال فى رسالة أنفذها إليه إن المحافظة على حياته الغالية التى هى أثمن شئ فى الوجود لا تقوّم بعوض ، وهو لذلك لا يقتضى منه ثمنها كاملا ، ولكنه يكتفى باقتطاع البلاد الفارسية الواقعة بين التخوم الشرقية لدولته وبين نهر الرس ، ويضمها إلى أملاكه . ولم يجد كسرى فى طلب نصيره أى ضير . فما هى قيمة البلاد والعباد إذا قيست بسلامة رأسه الغالية ! وقبل أن يجيب الطلب المتواضع كان جيش موريق قد غمر تلك المقاطعات السحيقة ونفذ رغبة سيده دون انتظار موافقة من صاحب الشأن عليها .

وصبر سراة الفرس مرغمين على تلك المعرة التى لطخت بلادهم ، وسكتوا على رضا صاحب العرش بالضيم وصبره عليه . ولم يشذ إلا الوزير الذى اعتاد أن يرى سادته أقوياء الشكيمة شمّ الأنوف . وصارح مليكه بأنه يفضل غيابة السجن على وضح النهار الذى تجرى فيه هذه الخطوب . وتناسى كسرى أياديه عليه ، وأخذه بقوله ، وأعاده إلى الغرفة المظلمة التى اختارها له بهرام فيما مضى .

ولم يكن جرمانوس أقل جوراً على سلطة الشاه من سلفه نرسيس ، ولكنه كان أكثر منه توخياً للكياسة واللباقة فى تحقيق مراميه . وجرت الأمور فى هوادة على منوال واحد ، ولم يعكر صفو كسرى معكر وهو يغترف وسعه من متع حياته المترفة وملذاتها ، حتى تؤامت إليه أنباء مثيرة عن أحداث جسام خطيرة العواقب حدثت فى بلاد الروم ، إذ وقع موريق فى محنة أشبه بالمحنة التى وقع هو فيها من قبل ؛ فقد شق عليه فوكاس عصا الطاعة ، وألب عليه شعبه ، واندفع على رأس جحفل جرّار من الثوار صوب بيزنطة ليثل عرشه .

دار الفلك دورته ، وأخذ نجم موريق يأفل على حين أخذ نجم كسرى يتألق من جديد . ونفض هذا الأخير عن نفسه الذلة والمسكنة ، وعصفت فى نفسه عواصف العزة المكبوتة إذ شعر بأنه يستطيع اليوم أن يرد مثل اليد التى أسديت إليه ، وأن ينقذ منقذه ويحمى من حماه . ونشط إلى إعداد جيشه ، وجهز منه العدد العديد والعدة الوفيرة . واعتدل فى هذه المرة على ظهر جواده ، وسار على رأس جيشه الجرار ميمماً شطر جارته الثائرة . وكان كل جندى من جنوده يتحرق لهفة على الانتقام من الروم وغسل الإهانة التى لحقت بلاده منهم بالدم المراق . وعب عباب ذلك الجيش وسال على بطاح أرمينية فغمرها . وشد ما اختلفت حاله اليوم عن حاله بالأمس حين انحسر عن بلاده أمام جيش نرسيس كاليم وقت جزره ، أما اليوم فهو يطم ويربى على البطاح كاليم إبان مده . ودلت الأنباء المتواترة على خطورة الحالة فى بيزنطة حيث وصل الثائر فوكاس إليها ، وضيق الحصار على الإمبراطور وأسرته وهم قابعون فى قصرهم . وبينما كان كسرى يستعد لاقتحام آسيا الصغرى إذ وصل إلى سمعه النبأ الفاجع ، وهو مقتل موريق وأولاده فى قصرهم الإمبراطورى .

ونبتت فى ذهن الشاه من جديد تلك الفكرة التى خلبت فيما مضى لبه ، وهى ضم الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى أملاكه . ولكنها لم تكن فى هذه المرة

وهماً يتوهمه حين يشطح به الخيال ، بل كان تحقيقها فى متناول يده ، لا سيما بعد أن اغتيل موريق ، وشاعت الفوضى فى أرجاء تلك البلاد ، وتخاذل حماتها أمام قواته الزاحفة كما تخاذل الفرس من قبل أمام قوات نرسيس . وقسم جيشه قسمين ، ووّجه أحدهما إلى بيزنطة والثانى إلى الشام .

وبينما هو ينتظر تسليم مدينة أنطاكية بعد أن طال حصاره لها إذ جاءه جرمانوس يبشره بأن هرقل والى ليبيا الذى زحف بجيش عرمرم إلى القسطنطينية بأمل إنقاذ الامبراطور ، اشتبك بجيش الثوار ودحرهم ، وتمكن من دخول بيزنطة والانتقام لمليكه بقتل فوكاس وأشياعه . وظن جرمانوس أن كسرى سيغتبط بهذا النبأ الذى سيكفيه مؤونة مواصلة القتال ، ويتيح له العودة إلى بلاده لاستئناف حياة المرح واللهو الماضية . ولكن الشاه الذى لم يشبع من إراقة الدماء صارحه بعزمه على مواصلة القتال متذرعاً بأنه يريد أن يتحقق بنفسه من أنه لم ينج أحد من المعتدين على صديقه الراحل من القصاص .

تولى خوريام قيادة شطر الجيش الفارسى المتجه شرقاً . وما آنس من خصمه الضعف حتى انطلق بجنده فى أعقابه من غير هوادة ، يدك حصونه ، ويتلف عدته ، ويشتت شمله ، ويلاحق فلوله . ولم يزل به حتى أوهن عزمه ، وقلقل البقية الباقية من نخوته وشجاعته ، ولم يجد بعد ذلك مشقة فى القضاء عليه قضاء مبرماً . وسقطت دمشق وقيصرية فى يده كما تسقط الثمار اليانعة ، وواصل زحفه حتى وصل إلى بيت المقدس فضرب حوله الحصار .

ولم يجهل الفرس مناعة أسوار تلك المدينة ، ووطّنوا النفس على احتمال طول الحصار . ولكن الحظ الذى واتاهم منذ ابتداء حملتهم لازمهم كعادته حتى النهاية . فثار جماعة من المضطهدين فى المدينة على حكومتها . وتناحر أصحاب الملل والعقائد المختلفة . وهب اليهود فى وجه المسيحيين مطالبين بدم شهدائهم الذين نكل بهم هؤلاء . وشاعت الفوضى فى البلد المحاصر ، واختل فيه الأمن ، وعمه النهب والسلب ، فنفدت المؤونة قبل الأوان . وتمكن الساخطون الثائرون من فتح أبواب الأسوار المنيعة ، فتدفق منها جحفل الفرس كالسيل الجارف .

ولم يوطد الغزاة النظام بل زادوه اختلالا . وأخلى لهم اللصوص الميدان ، لخلوا محلهم ، وأتوا على البقية الباقية من مال أهل المدينة ومتاعهم . ثم أعملوا

السيف والنار ، فقتلوا من صادفهم من السابلة ، وأحرقوا الدور . وزادهم توقد النار وتدفق الدم جنوناً ، فلم يتورعوا حتى عن قتل النساء والأطفال ، وعن إحراق الكنائس والمعابد . وأُعدت بذلك مدينة بيت المقدس أفخم إعداد لاستقبال الشاهنشاه المنتصر .

لزم فتى من طلبة العلم نافذة غرفته الحقيرة القائمة على دار متوارية فى أحد الأزقة ، وأخذ يرقب فى هلع واضطراب ما يحدث فى الطرق المكشوفة له . وكانت عيناه تشخصان وتتسع حدقتاهما كلما تتبع حادثاً من الحوادث الرهيبة التى لم تكف عن الوقوع على مرأى منه ، ثم تدوران فى أثر مشهد آخر لا يقل رهبة عن سابقه . رأى المذبحة منذ بدء نشوبها حين جرت الجماهير فى الطرقات وهى تصيح صيحات وحشية : « دخل العدو المدينة . . . العدو فى أثرنا » . ثم سمع الصراخ والعويل والأنين يتصاعد و يمتزج فيؤلف نغما مؤلما أشبه بموسيقى الجنازة . ولم تلبث شوارع المدينة أن أقفرت إلا من جثث القتلى والجرحى الملقاة فى عرضها . وما هى إلا هنيهات أخرى حتى ظهر الفرس الذين كانوا يطاردون ضحاياهم ، و يرشقونهم بالنبال . وكثر جريهم يمنة ويسرة ، واقتحامهم الحوانيت ، وملء أيديهم مما وقع تحتها من خيرات . وحاول بعضهم دخول المنازل فأخذ يدق أبوابها دقًّا عنيفاً ثم يبذل جهده فى سبيل خلعها . ولكن القوم المحتمين فى عقر دورهم بذلوا هم كذلك قصارى جهدهم ليدفعوا عنهم غائلة أولئك المعتدين . فوضعوا كافة ما يمتلكون من أثاث وراء تلك الأبواب ، وقابلوا دفعها من الخارج بدفع مثله من الداخل . واستماتوا فى الدفاع عن مساكنهم لأنهم لم يجهلوا المصير الذى كان ينتظرهم فى حالة انخذالهم .

وما نشر المساء إهابه الأسود على المدينة حتى وقعت الطامة الكبرى . فقد طاف حملة المشاعل من جنود العدو بالأبواب الموصدة وأضرموا فيها النار . وهب نسيم السحر العليل فأجج اللهب المشتعل ، وارتفعت الألسنة الحمر متوهجة . وشاهد طالب العلم المروع على ضوئها تفتح الأبواب الموصدة ، وتدفق المناكيد منها ، ووقوف الفرس لهم بالمرصاد ، وانهيالهم عليهم طعناً وضرباً . وسمع ولولة النساء وهن يجرِّرن ممزقات الثياب ، مطوقات بالأذرع المفتولة العضلات ، وعبثاً كن يحاولن منها الانفكاك . وكثيراً ما لمح الفتى المروع أناساً يجرون صارخين وقد شبت النار فيهم ، وزادها جريهم تأججاً .

كان المسكين يحس كأنه يلفظ روحه كلما شاهد روحاً تلفظ ، وكأن جلده يحترق كلما أبصر النار تمسك باطراف محترق . كان يموت ويحيا فى كل طرفة عين ، ويعلم علم اليقين أن مصير هؤلاء ينتظره بين لحظة وأخرى . وكثيراً ما أيقن أن تلك اللحظة الأخيرة حانت فعلا . فقد كان يطرق أذنيه وقع أقدام تصعد فى السلم حتى السطح ، فيغمض عينيه ، ويحبس أنفاسه ويستسلم للموت الموشك على افتراسه . ولكن الأقدام الصاعدة فى السلم كانت تعود أدراجها ، وكان يسمع وقعها أثناء نزولها وهو يتنفس الصعداء .

ولم يطق البقاء على هذه الحال المفزعة . فقد كان على يقين من أن العدو سيصل إلى غرفته لا محالة ، وسيظفر به ويقضى عليه دون أن تتاح له فرصة للهرب. فاذا عوّق العدو فى مجيئه فستلتهمه النار التى كانت تقترب من داره شيئاً فشيئاً . ولم يزل فى هذا الاضطراب والعذاب حتى زاغ بصره ، وخيل إليه أن الغرفة تضيق به ، وأن حوائطها يقترب بعضها من بعض ، فصرخ من هول ماهو فيها ، ووثب صوب السلم ، ونزل درجاته قفزاً ، وخرج من الدار لاهثاً . وما وصل إلى الطريق حتى سرت فى بدنه رعدة جديدة من الخوف . فقد ذكر ما شاهده وهو يطل من نافذته على شوارع المدينة . فتوارى مسرعاً فى الأزقة المظلمة ، مبتعداً على قدر إمكانه من الأحياء التى شبت فيها النار .

وقادته ساقاه المرتجفتان اللتان كانتا تخوران وتلتويان تحته إلى غرب المدينة . ووجد نفسه فجأة إلى جانب سورها الكبير . ورأى وهو يحسب ما يراه وهما ، أشباحاً تنسل من فجوة فى السور أحدثتها أحجار مجانيق الفرس قبيل سقوط المدينة. واستطاع حين ثاب إلى رشده أن يدرك أنه يرى أناساً أسعفهم الحظ مثله ، وقادهم كما قاده إلى طريق النجاة .

ألفت المحنة بين أولئك المهاجرين الذين انضم إليهم الفتى طالب العلم . وعطف بعضهم على بعض ، وساعد قويهم الضعيف وهم يقطعون المفاوز والسهوب متخبطين فى جنح الظلام ، متلهفين على الوصول إلى ساحل بحر الروم . وأشرق الصباح ، ثم توسطت الشمس عرض السماء ، وهؤلاء المنكودون يغذون فى السير دون توقف . واقتسموا فيما بينهم الزاد الذى استطاع أقوياء الأعصاب منهم أن يفكروا وقت هربهم فى حمله معهم .

واصلوا السير يوماً آخر ، وهانت عليهم مشقة السفر فى وهج الظهيرة كما

هان عليهم سرى الليل ؛ لأنهم كانوا يشعرون بعد كل خطوة يخطونها أنهم صاروا أكثر بعداً من الهول الذى خلفوه وراءهم . وفى صباح اليوم الثالث هبت عليهم نسمات البحر فأنعشت أجسامهم الخائرة القوى . ثم انبسط أمامهم الأزرق الرجراج الممتد إلى غير حد . فهبت عليهم نسائم الحرية والحياة الآمنة الرغدة .

استقلوا سفينة سارت بهم فى طريق الاسكندرية ، وحدثهم الربان وهم فى عرض البحر عن ذلك الثغر التاريخى الذى ثبت لأشد الغزاة خطراً ، وردت أسواره الضخمة أعنف هجماتهم . ورشفت أذن الفتى طالب العلم هذا الحديث العذب وارتوت منه نفسه . وأخذ يحلم بيوم الوصول إلى ذلك الثغر المنيع ، غير عابئ بالبحر الذى زاد اضطرابه حتى أقلق بال جميع الركاب . وألقت السفينة مراسيها بعد أيام على شاطئ السلام والأمان . وتفتح للفتى مجال اغتراف العلم من مناهله الأصيلة ، وبدد بعد الشقة بينه وبين بيت المقدس كل أثر للوهم والجزع اللذين طالما انتاباه . وتوطدت طمأنينته توطد أسوار الثغر الضخمة . ومرت الأيام حتى كاد سرورها ينسى الفتى الأهوال التى وقعت تحت بصره فى البلد المنكود الذى خلفه وراءه .

ولكن سوء الطالع أبى إلا أن يلاحق الفتى حتى بعد اعتصامه بنجعته النائية الحصينة . فوصل إلى علمه فى يوم نحس نبأ تناقلته الألسن عن اقتحام الفرس مدينة بلوز القائمة على حدود مصر الشرقية ، وانحدارهم مع فرع دمياط إلى مدينة منف . ثم توالت الشائعات عن دورانهم حول رأس الدلتا ، وصعودهم مع فرع رشيد إلى الأسكندرية . ولم تفزع هذه الأنباء الفتى فحسب ، بل كذلك ملأت قلبه يأساً ؛ فقد أيقن أن حتفه يلاحقه ، وأن أسوار الأسكندرية لن تحول بينه وبينه ، بل إنه لا بد لاقٍ هذا الحتف على يد الفرس ولو اعتصم بكبد السماء .

وخرج يوماً من داره فرأى الناس صفر الوجوه مرتعدى الفرائص . وسأل عما حدث فعلم أن حراس أسوار المدينة شاهدوا عن بعد طلائع الجيش الفارسى زاحفة صوبهم . وبعد ساعات مليئة بالجزع والخور سمع أهل الاسكندرية همهمة الغزاة متصاعدة من وراء الأسوار ، وشاهدوا جنود الدفاع تعتصم بأماكنها المنيعة فى فجوات الحصون والقلاع .

وأعادت تلك الهمهمة المتصاعدة من وراء الأسوار إلى ذهن الفتى ذكرى

المذبحة الرهيبة التى توشك أن تقع من جديد ، وظهرت له صورها قوية واضحة حتى لكأنها تتكرر أمامه ثانية . فانتفض كما كان ينتفض أمام نافذته فى ذلك اليوم المشئوم . وحمل رأسه بين يديه ، وجرى فى الطرقات كالمخبول ، وصاح فى الناس يحذرهم بطش الفرس ، ويستنزل اللعنة على كل من تحدثه نفسه بخيانة المدينة وخذلان المدافعين عنها . ولولا الكرب الذى ملأ كل قلب لشبع سامعوه فى ذلك اليوم سخرية منه ومفاكهة .

وشغل نفسه بالطواف المستمر بالأحياء المجاورة للأسوار ، يراقب قطانها . ويتجسس أخبارهم خشية أن يكون بعضهم قد بيت النية على فتح أبواب المدينة لمحاصريها كما فعل الخونة فى بيت المقدس . وكان كلما حدث الناس عن وساوسه ، وقص عليهم نكبة بلده القديم أجابوه بأن أهل الأسكندرية يضعون مصلحة ثغرهم فوق كل خلاف خاص بنحلهم ومذاهبهم ، وأن كل واحد منهم أيا كانت عقيدته يؤثر الموت على أن تطأ قدم الغازى أرض وطنه .

ولم يهدأ الفتى ولم يطمئن باله ، ولم يكف عن الطواف طوال النهار بالأحياء التى اشتبه فى أمرها ، وعن التقلقل أثناء الليل فى فراشه ، والتقلب فيه كل هنيهة على جنبيه . وكثيراً ما كانت أعصابه المضطربة تصور له وهو على تلك الحال من التقلقل والتقلب أن الفرس تمكنوا من دخول المدينة ، وأن حملة المشاعل يضرمون النار فى المتاجر والمنازل . فكان يحس ما أحسه فى غرفته القديمة من خوف ويوقن أن بقاءه محصوراً بين الجدران الأربعة سينتهى به إلى الوقوع فى قبضة السفاحين أو فى لهب النيران دون أن تتاح له فرصة للهرب . وكان يقفز من فراشه كلما انتابته هذه الوساوس ، ويدخل ملابسه فى مثل خطف البرق ، ويهفو إلى خارج الدار ليعود إلى طواف المراقبة والتجسس .

وبينما كان يجول ذات ليلة مثل هذه الجولات المسائية على أثر وقوعه فريسة لأوهامه ، قادته قدماه إلى شاطئ البحر ، واستهواه لألاء القمر المائج فوق سطح الماء ، فجلس على الرمال يرقب المنظر الساحر الذى خفف عنه عبء الوهم الجاثم على صدره ، ورأى القمر يغيب فى أحضان اليم ، ولاحظ اكفهرار الأفق وتجهمه بعد غيابه . ولم يطل أمد ذلك الاكفهرار والتجهم ، ونسيت البسيطة قمرها الراحل، وأخذ الأفق الشرقى يتورد استعداداً لاستقبال الشمس المؤذنة بالطلوع .

ولم يلبث الفتى أن غفل عن نفسه ووسواسها وهو يتأمل الطبيعة التى بدأت

تكشف النقاب عن قسمات حسنها الساحر . ورأى فيما رأى خطاً قاتماً يرين على الأفق البعيد ، حيث يلتقى الماء بحافة السماء ، وحسبه بادئ الأمر سحابة تساقطت على صفحة اليم وتراكمت هناك . ولكنه لاحظ بعد قليل أن ذلك الخط يقترب من الشاطئ ، وسرعان ما ازداد ضوء الفجر سطوعاً ، وصرخ الفتى صرخة مدوية إذ تبين حقيقة ما رأى . وحاول الهرب من الشاطئ فخانته قدماه ، وسقط على الرمال فاقد الوعى . وفتح عينيه بعد قليل فوجد نفسه محاطاً بأناس أقبلوا على صراخه . وطن فى أذنه لغطهم وتساؤلهم عما به . ودارت عيناه إلى البحر . وأيقن فى هذه المرة أن ما رآه لم يكن وهماً . فالبحر ملئ بآلاف المراكب القادمة إلى الشاطئ ، وسرت فى جسمه رعدة اصطكت لها أسنانه . وخرج من حلقه المرتعد صوت أشبه بصوت وحش مذعور ، وأشار بيده إلى ناحية البحر ، واستطاع الملتفون حوله أن يميزوا من قوله كلمة « الفرس . . . الفرس » . وقهقه بعضهم ضاحكين لدى سماع هذه الكلمة ، وأقبل بعضهم الآخر عليه مشفقاً . وقال له رجل منهم وخط الشيب لحيته : « ليس هؤلاء القادمون إلى الشاطئ فرساً . ولكنهم صادة الأسماك ، يقضون ليلهم فى رمى الشباك . ويعودون بصيدهم عند طلوع الفجر . »

ولم يهدأ روعه إلا عندما نزل الصيادون المصريون الشاطىء واستوثق بسمعه وأذنيه من حقيقة أمرهم . وسار إلى داره مضعضع الحواس . ودخل غرفته وارتمى على فراشه منهوك القوى . وظل باله مشغولا بذلك الخط الذى اكتمل به الأفق فى الصباح . وإذا به يستوى جالساً على حين فجأة فى فراشه ، وإذا وجهه يمتقع ، وأطرافه تبرد وترتعد ؛ فقد خطر له خاطر رج كيانه رجًّا : خطر له أن الفرس قد يلجأون إلى الحيلة ، فيرتدى بعض جنودهم ملابس صادة الأسماك . وينزلون الشاطىء دون أن يستلفتوا الأنظار ، ويقصدون إلى الأبواب فيقتلون حراسها ويفتحونها على مصاريعها ، ويتدفق جيشهم منها إلى المدينة ، وتتكرر مأساة بيت المقدس .

ظل ينتفض فى فراشه ، وجحظت عيناه من شدة الرعب . ولكن خاطراً جديداً خطر له كالتماع البرق ، فهدأ فجأة ، وانبسطت أساريره ، وقرت عيناه . وشعر بعد الاضطراب المضنى بهدوء عجيب . خطر له أن ينسل تحت جنح الظلام إلى معسكر العدو ، ويقابل كسرى فيبسط له تلك الحيلة التى

تيسر له مهمته ، وتمكنه من فتح المدينة التى استعصت على جبابرة الفاتحين .

وبعد يومين نزل الفرس شاطىء الأسكندرية فجراً فى ثياب الصيادين المصريين وفتحوا أبواب الأسوار . وأخذ الجيش المصرى على غرة ، فانهزم أمام الخدعة غير المتوقعة ، بعد أن عزت على أعدائه هزيمته عنوة .

وظل الفتى فى معسكر العدو خارج المدينة لا يجرؤ على دخولها . ولم يذق طعم الهدوء والاطمئنان كما توقع ؛ لأنه شعر بأنه يشارك كسرى هذه المرة فى تحمل وزر المذبحة التى أقامها الفرس هذه المرة على شاطىء عروس بحر الروم .

وصل جيش الشام فى مده إلى آخر المطاف . ولو تبصر كسرى وفطن إلى أن صرح المجد الذى يبنى على العدوان لا يلبث أن ينهار ، لاستطاع أن يرى ما يخبئه الغيب ، وأن يعلم أن أوان الجزر قد آن ، وأن جيشه سيجلو عن الأصقاع التى احتلها ، وينهزم أمام الأمم التى هزمها ، وسيتقلص سلطانه ، وسينكمش حتى يقبع فى دياره من جديد .

محمد مفيد الشوباشى

CONDORCET

ALEXANDRE KOYRE

كوندرسيه (١)

وعمل كوندرسيه السياسى يتفق تماماً والمبادئ الفلسفية التى رأينا تفصيلها فى كتابه « الوجيز » . ولم يكن تفكير كوندرسيه فى تلك المبادئ واعتناقه لها فى آخر حياته ، وإنما قد أحس منذ بدء حياته الفكرية بحب لا يقهر للعدالة (٢) وآمن منذ أمد طويل ، وخاصة منذ معرفته لترجو Turgot ، بالنور والتقدم وبقابلية النوع الانسانى لتحسن دائم ، وبواجبنا فى استحثاثات ذلك التقدم ، وهو واجب يمنحنا من ناحية أخرى أعظم ما نشتهى من رضا .

ولهذا نشر فى سنة ١٧٧٣ بامضاء مستعار « خطاب من أحد رجال الدين إلى مؤلف قاموس القرون الثلاثة » دفاعاً عن الفلسفة والتسامح وحرية الضمير ضد الاضطهاد والتعصب ، كما نشر فى عام ١٧٨١ تحت اسم الدكتور شوارتز « آراء عن استعباد السود »(٣) ومقطوعات عن « حالة البروتستانت فى فرنسا » وفيها يدافع عن حرية المعتقدات .

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٨ (مارس ١٩٤٧) .

(٢) أنظر : *«Un ermite de la forêt de Sénart»*, dimanche 22 juin 1777 dans le *Journal de Paris* No. 173.

« سئل ديموستين : ما أول مزايا الخطيب ؟ فقال : العمــل . فقيل له : وما ثانى مزاياه ؟ فقال العمــل — وما ثالثها فقال : العمل . وأنا كذلك أجيب ، لو سئلت : ما أول القواعد السياسية ؟ هو العدل . وما ثانيها ؟ العدل . وما ثالثها ؟ هو العدل أيضاً . »

أنظر : Buisson, *Condorcet* . ص ٥٣ . إن كوندرسيه هو الذى أوحى إلى ڤولتير ذلك الاحتجاج الشهير على حادث تغيب الفارس دولابار . وفى عام ١٧٨٦ نشر آراءه فى قضية معروفة حينذاك ، وبهذا أنقذ حياة ثلاثة فلاحين كان برلمان باريس قد حكم عليهم ظلماً بالتعذيب . وأول ما يأخذه كوندرسيه على مونتسكيو هو إهماله للعدالة .

(٣) فى نيوشاتل سنة ١٧٨١ وفى باريس سنة ١٧٨٦ . الجزء السابع من مؤلفاته ص ٧٠ .

ولقد سار بالطبع من الرياضيات البحتة[1] أول الأمر ، إلى الاقتصاد السياسى[2] ثم إلى السياسة بعد ذلك . ونستطيع أن نقول إنه قد بقى رياضيا سواء فى السياسة أو فى الاقتصاد السياسى . ومنهجه عام ؛ فهو يضع القاعدة ويبين شروط تطبيقها ، ويستنتج النتائج المترتبة على ذلك ؛ أو هو بالعكس يحدد المشكلة ثم يبحث عن حل لها ينطبق مع القاعدة . ونستطيع أن نقول إن كوندرسيه قد عالج موضوع الدستور الواجب وضعه لفرنسا كما يعالج إحدى مسائل حساب التكامل .

والنظرية أو البديهية التى تسيطر على علم السياسة فى رأى كوندرسيه ، والتى يجب أن تسيطر على عملنا وأن توجهه ، هى تعريف الانسان بأنه « كائن حساس قادر على القيام بتعليلات منطقية وعلى اكتساب أفكار أخلاقية » . فهو كتلميذ لفولتير[3] ولوك Locke يرى « أن الآراء عن الحق والعدالة والواجب ، والآراء عن الخير والشر ، إنما تولد من تفكيرنا فى أنفسنا وفى علائقنا بالآخرين . وليست هذه الآراء التى تحددها طبيعتنا ، آراء مبهمة ولا غامضة . وللحقائق التى موضوعها هذه الآراء نفس التأكيد ونفس الدقة التى للحقائق فى كل العلوم النظرية . وإذا تعمقنا بعدئذ فى قلوبنا فسنجد أن ما للعمل الطيب من جمال ، وما للعمل السىء من شناعة وما يتبعه من تأنيب الضمير ، إنما هو نتيجة ضرورية لتكويننا الخلقى . »[4] وبما أن التكوين الفكرى والخلقى للانسان هو واحد لدى جميع

---

(١) امتدح دالمبرت ولوجرانج كثيراً من مؤلفات كوندرسيه الرياضية وهى :
Essai sur le calcul intégral (1756), *Essai d'analyse* (1767-1768).

(٢) لم يكن الاقتصاد السياسى فى رأى مؤلفى القرن الثامن عشر مقصورا على دراسة الحقائق الاقتصادية ، وإنما كان يشمل العلوم السياسية والاجتماعية برمتها . ولما كان كوندرسيه تلميذاً لتورجو فقد اعتنق مذهبه الذى يعتبر الأرض مصدر الثروة الوحيدة ، وحاول أن يطبق الرياضة على العلوم الاجتماعية . قارن :

Essai sur l'application de l'analyse à la probabilité des décisions rendues à la pluralité des voix (1875).

Tableau général de la science qui a pour objet l'application du calcul aux sciences politiques et sociales (publié par le *Journal de l'Instruction Sociale* en 1795).

(٣) إن مايفسر أثر لوك Locke فى القرن الثامن عشر هو — إلى حد ما — تصريح فولتير فى خطاباته السياسية بأنه من أنصار لوك . وإنا لنرى أثر لوك فى كتابات فولتير .

(٤) راجع أوراق كوندرسيه الخاصة (١٧٨٩) بمكتبة المعهد :
Papiers personnels de Condorcet (1789) Bibl. de l'Institut.
وراجع : F. Quinson, *Condorcet* p. 37

أفراد النوع الانسانى ، فينتج عن هذا إذن مساواة أساسية بين الناس بصفتهم أناساً. ولكن هذه المساواة لا تنفى بالطبع كل اختلاف فيما بينهم ولا سيما الاختلافات الطبيعية والاجتماعية ؛ فليس الناس متساوين فى المواهب الطبيعية ولا فى نعم هذه الدنيا[١] ، ولكنها تتضمن أيضاً ملكية لا تفقد لنفس « الحقوق الطبيعية » التى لا يستطاع حرمان أىّ كان من التمتع بها دون ارتكاب الظلم .

وهكذا نراه منذ عام ١٧٨٧ على لسان « مواطن من الولايات المتحدة » ، يوضح للفرنسيين أنه إلى جانب الأمان والملكية ، توجد المساواة . « وليست المساواة أقل أهمية منهما فى كونها أحد الحقوق الطبيعية للانسان فالناس يولدون متساوين ، وقد أقيمت الجماعة لتمنع عدم المساواة القهرية — وهى الوحيدة التى تأتى من الطبيعة — من ارتكاب أى ظلم دون أن تنال العقاب عليه » [٢] ، وأعلن كوندرسيه فى عام ١٧٨٩ تحت اسم فيلولاوس أنه « لا وجود للقانون ، ولا وجود للسعادة الحقة إلا مع المساواة المطلقة بين كل المواطنين . » [٣]

وهذه « المساواة المطلقة » تتعارض بالطبع مع الفوارق الوراثية بين مختلف المواطنين ، وتتعارض مع وجود طبقة الأشراف بل مع الملكية . وهى تتطلب دستوراً ديمقراطيا وجمهوريا للدولة حيث إن حرية المواطنين والمساواة بينهم مشتقة من حقهم المتساوى فى العمل على إقامة قوانين تنظم الدولة . وهكذا يقول

---

(١) يرى كوندرسيه أن إلغاء الامتيازات الوراثية ونشر العلم سيخففان بالضروة ، من عدم التساوى فى الثروة ، وذلك شرط لابد منه لقيام ديمقراطية حقة ، إذ أن هذه تتنافى مع الثروة العظيمة والفقر الشديد .

(٢) Lettre d'un citoyen des Etats-Unis à un Français sur les affaires présentes, *Œuvres* IX, p. 102, Buisson, p. 31.

لما كانت حقوق الناس الطبيعية بصفتهم بشراً هى واحدة بالنسبة للجميع فينتج عن ذلك أن القوانين الأساسية لكل الجماعات الانسانية يجب أن تكون واحدة . فما هو حسن بالقياس إلى رجل فرنسى هو حسن كذلك بالقياس إلى أمريكى أو إلى روسى . وظروف التطبيق هى وحدها التى تتغير بتغير الجو والأعمال . . . الخ ، ولكن المبادئ لا تتغير . وأما أولئك الذين يقولون بالفروق وفقاً للتاريخ والعادات والدين فهم فى الواقع حماة الأخطاء ومعارضو التقدم . ومن هنا يستنتج فلاسفة القرن الثامن عشر احتمال التشريع للجنس البشرى بأجمعه .

(٣) راجع : Première lettre d'un gentilhomme à M. du Tiers-Etat, *Œuvres* IX, p. 227, Buisson p. 32.

كوندرسيه حتى من قبل الثورة فى كتابه « حياة تورجو » : « الدستور الجمهورى هو خير الدساتير » .(١)

ويكاد هـذا أن يكون أمراً شائعـاً ؛ ففلاسفة القرن الثامن عشر — ماعدا فولتير — لم يتشككوا إلا نادراً فى إمكان الكمال فى الدستور الجمهورى(٢) . وأما ما تشككوا فيه فهو إمكان تحقيقه فى دولة كبيرة . ويبدو أن التاريخ ، قديمه وحديثه ، تاريخ روما وتاريخ انجلترا ، قد أيد الشك لديهم .

وأما كوندرسيه — ولم يكن فريداً فى ذلك كما نعلم — فيرى أن التجربة الأمريكيـة تثبت عكس ذلك ، حيث ظهر أن النظام الجمهـورى ، ولو فى صورة « فيدرالية » ، أمر ممكن فى دولة كبيرة .

وربما استطاع المرء أن يذهب إلى أبعد من ذلك . ولكن الديمقراطيـــة الباشرة أمر مستحيل أما إذا كان المقصود بكلمة « ديمقراطية » دستوراً ينتخب فيه المواطنون جميعاً نواباً مكلفين بتمثيلهم وبالتعبير عن إرادتهم أمام مجلس عام يمثل الأمة : أما إذا كان الأمر كذلك ، فمن السهل أن نرى أن مثل ذلك الدستور يلائم الدول الكبرى ، و يمكننا أن نطبقه حتى على أوسع الامبراطوريات بتكوين عدة مجالس تمثيليـة . و بهذه الطريقة نهيئ لتلك الامبراطوريات كياناً لم تستطع إحداها أن تناله حتى الآن ونهيئ لها فى نفس الوقت وحدة فردية فى الاتجاه ، وحدة لا يمكن تحقيقها بوساطة الدساتير « الفيدرالية » .(٣)

وستقل الصعوبات التى تعترض إقامة نظام جمهورى لو اكتفى — بدلا من الجمهورية الديمقراطية — باقامة نظام جمهورى غير تام تماماً ، يكون فيه حق الانتخاب مقصوراً على الملاك من المواطنين . و إن فى هذا التضييق لمنافاة للحق

---

(١) راجع : Vie de Turgot, *Œuvres* V, p. 209. Notes sur Voltaire, *Œuvres* IV, p. 393.

وفيه يقول : « مامن أحد يقول أن الملكية خير من الجمهورية ، اللهم إلا إذا كان الرجل من الرقيق . فنى الجمهورية يتمتع النـاس بقوانين حسنة أساسها حقوقهم الطبيعيـة وفى ذلك النظام يكون الناس فى حمى أى استبداد خارجى » .

(٢) وحتى مونتسكيو نفسه يرى أن الدستور الجمهورى خير الدساتير . ولـكنه للأسف قام على مبدأ القنصلية السياسية ، أى على حب المواطن لبلده ، مما لا يمكن تطبيقه فى دولة كبيرة .

(٣) Notes sur Voltaire, *Œuvres* IV, p. 393. — Assemblées provinciales, *Œuvres* VIII, p. 127.

الطبيعي بمعناه الحرفي (١) . ولكن التجربة التاريخية تدلنا على أن طبقة العمال في المدن ، ولا سيما في المدن الكبرى ، هي التي كانت دائماً عماد الديكتاتورية والاستبداد . وهنا أيضاً نجد المثل في التجربة الأمريكية . ونرى كوندرسيه يعطي هذا التحذير للفرنسيين باسم بورجوازي من نيوهفن : « لو أعطيتم حق التصويت للمواطنين جميعاً فقراء وأغنياء ، فان نفوذ الأغنياء سيكون أظهر وأعظم في المجلس الناتج عن ذلك مما لو كان في مجلس أقل عدداً انتخب أعضاءه مواطنون من ذوي الثروات المتوسطة لا المعدمون » . (٢)

وإذن فقصر حق الانتخاب على الملاك بشرط أن يكون معدل الثروة منخفضاً انخفاضاً كافياً ، سيأتي في آخر الأمر بالفائدة لعديمي الملكية . ذلك لأن الطبقة المتوسطة ، لا الفقيرة جدا ولا الغنية جدا ، هي صاحبة المصلحة الكبرى في أن يسير الحكم في الدولة سيراً حسناً .

وضرورة الامتلاك ، والحذر من قتل الجمهور في المدائن . هي ملامح عامة نراها لدى كتاب ذلك العصر(٣) فليست هي بأي حال مما يميز أفكار كوندرسيه . وأما ما يميزه فهو تقديره ليوم ١٤ يوليه ، وهو القائل : « عند ما استولى شعب باريس على الباستيل أثبت نضجه السياسي وحبه للحرية . وبذلك أصبحت الجمهورية احتمالا ملموساً بعد أن كانت مثلا أعلى بعيد التحقيق . وأصبح بعدئذ من المعقول أن

---

(١) Assemblées provinciales, *Œuvres* VIII, p. 127
«حق المواطن ، هو الحق الذي تهبه الطبيعة لكل رجل يسكن بلداً ما في أن يشارك في وضع القواعد التي يجب أن يخضع لها السكان . »

(٢) Lettres d'un bourgeois de New-Haven, *Œuvres* IX, p. 12
راجع أيضاً : L. Cahen, *Condorcet et la Révolution Française*, Paris, 19, p. 138.

(٣) الديمقراطية لدى جيفرسون La démocratie Jeffersonienne هي ديمقراطية ملاك . ويرى الفيزيوقراطيون (القائلون بأن الأرض وحدها هي منبع الثروة) أن مالك الأرض هو أساس البلد لأنه هو الذي يجعلها تعيش . واما الفقراء والمحتاجون فهم لا يساهمون في حياة البلد . ثم إنهم مستعدون لبيع أصواتهم لمن يدفع فيها أغلى ثمن ، وذلك اعتبار لا يخلو من وجاهة . وبالاختصار ليس للرجل الذي يعتمد على آخر ليعيش الحرية الكافية ليمارس حق الانتخاب ، أي حق السيادة .
راجع : D. Mornet, *La préparation intellectuelle de la Révolution Française*, Paris 1933.

يعمل المرء لإقامتها (١) بوضع دستور لفرنسا يكون ديمقراطيا من أساسه » .

ولن نبسط هنا عمل كوندرسيه السياسى بالتفصيل ، ولا نصيبه فى حوادث الثورة ؛ إذ لو فعلنا هذا لذهبنا بعيداً جداً . ويكفينا بضع كلمات وبضع وقائع نختارها بقدر ما تكشف لنا عن فكره .(٢)

لم يكن كوندرسيه عضواً فى الجمعية الوطنية — فقد كانت آراؤه تسبق بكثير آراء ناخبيه — ولم يقدر هو أعمالها ، وانتقد بشدة روحها المشوبة بالخوف والمضادة للديمقراطية (٣) ، وبطئها فى إعلان حقوق تصريح الانسان ، بل انتقد ذلك التصريح ذاته(٤) والدستور الذى وضعته لفرنسا ، ذلك الدستور الاقطاعى ..ورغم ذلك فأمام الفوضى المتزايدة ، وأمام انحلال الدولة ، وأمام أعمال الرجعية التى كانت تعود إلى الظهور شيئاً فشيئاً ، قرر كوندرسيه أن يدافع عن الجمعية التأسيسية ، وأن يدعو الوطنيين للالتفاف حولها ؛ إذ لو فقدت ثقة الأمة لضاع كل شئ . ولن تستفيد الجمهورية من الفوضى — وليست فرنسا للأسف ناضجة للديمقراطية ، فهى ملكية وليست جمهورية — وإنما سيعود الاستبداد . ولهذا نشر بالاتفاق مع سييس Siéyès ، قبل هروب الملك عند فارين ، منشوراً عدد فيه ما تتعرض له الحرية من أخطار ، ثم دعا الوطنيين إلى أن يعلنوا خضوعهم — بمحض إرادتهم — للدستور الفرنسى . . .

---

(١) راجع : L. Cahen, p. 138

(٢) L. Cahen, *Condorcet et la Révolution Française*. Allendy, *Condorcet, guide de la révolution*. H. Sée, Condorcet, ses idées et son rôle politique, *Revue de Synthèse Historique*, 1905.

(٣) وأخذ عليها هو و Siéyès رغبتها فى منع النظر فى تغيير الدستور لمدة عشر سنوات وذلك خطأ لا يغتفر ، فليس لأحد أن يشرع للمستقبل .

(٤) ويرى كوندرسيه كما يرى صديقه جفرسون Jefferson أن إعلان حقوق الانسان أهم من الدستور نفسه فهو ليس مقدمة له وإنما أساس له . ولذلك فهو يصر على صفة العلنية لذلك الاعلان : فهو إعلان لحقائق واضحة ، يعمل بها من ذاتها . وهو ليس بمرسوم أو قانون يعبر عن إرادة أحد ، وإنما هو تعبير العقل عن نفسه . وعندما يؤكد ذلك الاعلان القول : « نرى من الواضح . . . » فانه يحدد ما يقول به العقل . وأولئك الذين لايرون هذا الوضوح فانهم غير جديرين بأن يتمتعوا بالحقوق التى يقول بها ذلك الاعلان .

ولم ينجح المنشور ، إذ قوبل مقابلة سيئة من أحزاب اليمين ومن أحزاب اليسار . ومن جهة أخرى ، فقد قلب هروب الملك — وقد عرف فى باريس فى ٢١ يونيو سنة ١٧٩١ — الموقف رأساً على عقب ، وأمسى العرش خالياً وبقيت فرنسا قرابة شهر بلا ملك . وعد كوندرسيه ذلك فرصة نادرة للتخلص من الملك ولتحويل الأمر الواقع إلى أمر قانونى . فأعلن كوندرسيه[١] أن الملك قد فسخ العقد الذى كان يربطه بالأمة ، وقد حنث فى اليمين التى حلفها بالاخلاص للدستور . بل لقد ارتكب الخيانة بمحاولته مغادرة فرنسا والانضمام إلى أعدائها . وإذن فهو قد نزل عمليا عن العرش ، وقد أحل فرنسا من كل واجب حياله (وحيال الدستور الملكى) . ففرنسا حرة إذن فى اتخاذ نظام جمهورى ، أى نظام تكون فيه السلطة التنفيذية مسئولة أمام الأمة . وذلك أمر ممكن التنفيذ جدا . ألا يوجد أمامنا الدليل الواقعى على أنه من الممكن الاستغناء عن الملك — وذلك أن يتفق فى نفس الوقت « مع العقل ومع الكرامة الانسانية » ، على حين أن الوراثة وعدم مسئولية السلطة هى اعتداء على الشعب وعلى حقوقه ، وكل ما يقال للدفاع عن الملكية إنما هو أدلة خادعة ؛« فيقال مثلا إن الدولة فى حاجة لملك ليحمينا من وجود طاغية ، ولكن الشعب الحر يعرف كيف يدافع عن نفسه . ومن ناحية أخرى ففرنسا واسعة جدا ، وإذن فليس هناك مايخيفنا من أن يتحول معبود العاصمة إلى طاغية فى الأمة » . أما عن تنظيم السلطات فليس علينا إلا أن نجعل الشعب ينتخب وزراءه ويجعلهم مسئولين أمام المجلس . وبهذا لا نخشى أن يجمع المجلس كل القوة فى يده ؛ كما يمكن ضمان الاستقرار وقوة السلطات بانتخاب الوزراء لمدة طويلة — عشر سنوات مثلا — مع تقرير عدم إقالتهم إلا كل سنتين (وكل مجلس ينتخب جديداً يعطى تصويتاً لكل وزير) وإذا لم نرد هذا النظام فبمقدورنا أن نجد غيره وليس ذلك يستعصى .[٢]

ومن المعروف أن فرنسا لم تصغ إلى نصائح كوندرسيه ، فقد كانت فرنسا ملكية وبقيت كذلك . وأعيد الملك إلى العرش فى شهر يوليه ، وكان ذلك خيبة أمل لكوندرسيه ودرساً له لن ينساه .

---

(١) راجع : Avis aux Français sur la Royauté, N° 1 du *Républicain*, juillet 1791; Buisson p. 74.

(٢) راجع : F. Allendy; L. Cahen (سبق ذكره) .

ولما انتخب كوندرسيه عام ١٧٩١ عضواً فى الجمعية التشريعية أعلن إخلاصه التام للدستور . وهو دستور غير كامل بلا شك . ولقد أخطأت الجمعية التشريعية باصدارها حكماً على المستقبل ، إذ منعت تعديل الدستور لمدة عشر سنوات . ولكن الأمة قد قبلته ، و إذن فهو القانون ، وهو المعبر عن إرادتها العامة (١) وتجب له الطاعة ، وليس لأحد أن يرفض ذلك الواجب . ومن ناحية أخرى فليس الدستور شراً كله ، إذ هو يضمن حقوق المواطن ويسمح بالقيام بذلك العمل الضرورى الذى لا تقوم الديمقراطية بدونه ، ألا وهو تنظيم التعليم العام . فبتأسيس المدارس وبتعليم الشعب نستطيع إذاعة النور وهدم الخرافات . و بهذا نعد الأرض لاقامة الجمهورية .

ومن المعروف أن مشكلة التعليم العام هى من أهم ما شغل أفكار رجال القرن الثامن عشر . فلقد آمن « الفلاسفة » بنعم التعليم وقوته . ويقول ديدرو « تعليم أمة هو تحضيرها . . . والجهل هو نصيب الرقيق والمتوحشين »(٢) « إنه لكفر منا أن نترك أحداً من إخواننا فريسة للجهل المفروض عليه » . هكذا يقول ميرابو إلى مارجراف دى باد وهو يبين له أن « التعليم العام هو أول وأهم الواجبات على الحاكم العادل » ، وأنه من مصلحة الدولة طبعاً نشر التعليم . ومن ناحية أخرى فان المساواة المدنية تتضمن تعليم الشعب . فهذا التعليم إذن واجب على الدولة وحق للمواطن ، بل إنه حق « لكل مخلوق إنسانى . . . فانه يحصل على حق التعليم عندما يمنح الحياة » . ولهذا يجب أن نفتح أبواب التعليم للجميع « لكل أبناء الدولة » كما يقول ديدرو ، لا للأغنياء فحسب .(٣)

و إذن فكوندرسيه لا يأتى هنا بجديد . فلم يكن الدور الذى قام به ، كما رأينا ، دور المبتكر لآراء جديدة ، و إنما دور من ينظم ويجمع ويبوب مذاهب عصره ، ثم يدفع بها إلى خاتمتها المنطقية . هو لا يأتى بجديد عندما يعلن فى مذكراته الخمس عن التعليم العام التى نشرها فى سنة ١٧٩٠ فى مكتبة « الرجل

---

(١) يؤمن كوندرسيه بهذا أشد الايمان . فليس لأحد الحق فى أن يثور ضد الأمة ، وإرادة الأمة ، حتى ولو كانت خطأ ، هى القانون . ولهذا فهو ينقد بمرارة حزب الجبل فى ثورته على المؤتمر الوطنى .

(٢) Diderot, Projet d'une université, *Œuvres* III, p. 429-30

(٣) راجع : L. Cahen p. 326 (سبق ذكره) .

العام »[١] وفى « تقرير ومشروع قانون عن التنظيم العام للتعليم العمومى مقدم إلى الجمعية الوطنية »[٢] عام ١٧٩٢ أن « التعليم العام واجب على الجماعة نحو المواطنين »[٣] « واجب تقتضيه العدالة وتفرضه المصلحة العامة للجماعة بل للانسانية بأكملها » ، وأن الغرض منه أن يهيئ لكل مواطن « المقدرة على تحسين صناعته ، والمقدرة على القيام بالوظائف العامة التى من حقه أن يعين فيها ، وأن ينمى فيه كل المواهب الطبيعية . وبهذا يقيم بين المواطنين مساواة حقيقية ، ويجعل المساواة السياسية المعترف بها فى القانون أمراً واقعيا » .[٤]

ويعترف كوندرسيه اعترافاً صريحاً بالصلة بين الحق فى المساواة والحق فى التعليم فى « مشروع عن تصريح بالحقوق الطبيعية المدنية والسياسية للناس » عام ١٧٩٣ ويأتى فيه الحق فى التعليم فى مكان جليل بعد الحقوق الطبيعية وهى « الحرية ، المساواة ، الأمن ، ، الملكية ، الضمان الاجتماعى ومقاومة الاضطهاد »[٥] يجب أن يتساوى « أبناء الأمة » أمام التعليم وأن يتمكنوا جميعاً من التعليم . وليس معنى هذا أن يحصلوا جميعاً على تعليم واحد ، ولكن شيئاً من التعليم ضرورى للمواطن . ويجب لهذا أن يكون إجباريا . ولكن ليس من الضرورى بل ليس من الممكن تعليم الناس جميعاً تعليما ثانوياً أو تعليما علمياً عالياً . فهذا النوع الأخير من التعليم لا يناسب بطبيعته إلا صفوة من الناس امتازوا بمواهب خاصة . وهذا التفريق الذى لا معدى عنه لا يمس المساواة الأساسية بين الناس على شريطة أن يكون الاختيار ، ولا سيما فى درجات التعليم العليا ، متوقفاً على

---

(١) مكتبة « الرجل العام » هى مجموعة كتب فى تحليل أشهر المؤلفات الفرنسية والاجنبية ، الخاصة بالسياسة عامة ، وبالتشريع والشؤون المالية والزراعة والتجارة ، والحق الطبيعى والعام بصفة خاصة . . . وكانت تصدر فى باريس لدى الكتبى Buisson . وكان ينشرها كوندرسيه بمعاونة de Peysonnel قنصل عام سابق لفرنسا فى سميرن ، وبمعاونة Le Chapelier نائب فى الجمعية الوطنية . وتشمل تلك المكتبة ثمانية وعشرين مجلداً .

(٢) فى يومى ٢٠ و ٢١ ابريل سنة ١٧٩٢ .

(٣) Mémoires sur l'instruction publique, *Œuvres* VII, p. 169
وراجع نفس الكتاب صفحة ١٧٠ وفيه : « عدم التساوى فى التعليم هو أحد الأسباب الرئيسية للاستبداد . »

(٤) Rapport, *Œuvres* VII, p. 449-451

(٥) المادة ٢٣ : « التعليم هو ضرورة للجميع وهو دين للجماعة نحو كل أعضائها »
راجع : *Œuvres* XII, p. 417-22. Buisson, p. 109

الكفاية لا على المركز الاجتماعى أو المادى للتلاميذ أو لذويهم . وبعبارة أخرى يجب أن يمكَّن كل تلميذموهوب من الوصول إلى أعلى درجات التعليم مهما كان حال ذويه . ومن هنا وجب أن يكون التعليم مجاناً فى كل درجاته .

وخطة تنظيم التعليم العام التى وضعها كوندرسيه[١] ، وهى خطة غاية فى الجرأة والاقدام [٢] ولم يتحقق منها إلى اليوم إلا بعضها ، مؤسسة من ناحية على معانى الحق والواجب ، حق الفرد وواجب الجماعة . وقد لخصناها آنفاً ، ومن ناحية أخرى على فكرة الاختيار والتقدم : اختيار المواهب المبعثرة فى الأمة حتى نوجهها لخدمة التعليم وتقدمه وهو صنو التقدم العام . ففى المدرسة وبالمدرسة نستطيع تهيئة المستقبل ، ذلك المستقبل الذى يراه كوندرسيه فى الجمهورية الديمقراطية العادلة التى تتجه بكليتها إلى التقدم أى إلى المستقبل .

وهذا الاهتمام بالمستقبل ، وهذه الرغبة فى تركه مفتح الأبواب هى التى أوحت إلى كوندرسيه مشروعاته الدستورية ؛ إذ أخذ يقتنع بالضرورة القصوى لوجود مؤسسات دائمة فى الجمهورية ، وللعمل على إقامتها بأقصى ما يمكن من السرعة مما يضمن استقرار الجمهورية . وبعبارة أخرى اقتنع بضرورة وضع دستور جديد نهائى ، كما آمن أيضاً باستحالة إبقاء ذلك الدستور كأنه نص مقدس . فالماضى

---

(١) يرى كوندرسيه وجوب إنشاء خمس درجات للتعليم :

ا — تعليم ابتدائى إجبارى للجميع .

ب — تعليم ثانوى «للأولاد الذين يستطيع آباؤهم الاستغناء عن عملهم مدة أطول».

حـ — المعاهد التى يكون التعليم فيها كاملا ويتخرج فيها معلمو المدارس الثانوية والابتدائية (وهى توازى الآن مدارس النورمال) .

ى — الليسيه « حيث تدرس جميع المواد مع التبحر فيها . وفيها يتخرج العلماء والأساتذة » (وهى تماثل الآن الكليات ومدرسة النورمال العليا) .

هـ — الجماعة الوطنية للعلوم والفنون وهى مؤسسة للبحوث أو أكاديمية تعمل على تقدم العلم وتكون فى الوقت نفسه الشبان الذين يصبحون فيما بعد أعضاء الأكاديمية .

(٢) ينصح كوندرسيه بجعل التعليم حديثاً وبالاهتمام خاصة بالعلوم واعتبار الغرض من التعليم تنمية الذكاء وملكة النقد لدى التلاميذ بدلا من إعطائهم علماً ومجهزات . ولا يفرض شئ كأنه العقيده حتى إعلان حقوق الانسان . ولا يدرس الدين مطلقا بالمدارس العامة ، فالدين مسألة خاصة بالمواطن وليس للدولة أن تتدخل فيها . وتترك التربية للأسرة إلا فيما يختص بالتربية الوطنية التى تهدف إلى تنمية الاحساس بالواجب نحو الوطن ونحو الانسانية ، وإلى تنمية معنى المساواة والشعور بالاخاء وضرورة العدالة .

لا يسيطر على الحاضر ، والحاضر لا يسيطر على المستقبل . وليس لأحد أن يشرع لأبنائه . ولهذا كان مشروع الدستور المسمى «الدستور الجروندينى» — وهو الذى قام بوضعه بمعاونة توماس بين [١] — وقدمه إلى المؤتمر الوطنى فى ١٥ فبراير سنة ١٧٩٣ ، متضمناً مواد تسمح باعادة النظر فيه كل عشرين سنة .

وكان كوندرسيه جد فخور بعمله . «وضع دستور لبلد شاسع (مساحته حوالى ١٢٠,٠٠٠ كيلومترا مربع) ، ويسكنه نحو ٢٥ مليون نسمة ، دستور مؤسس على مبادئ العقل والعدالة وحدهما مما يضمن للمواطنين تمتعهم التام بحقوقهم ، ثم تنظيم أجزاء الدستور بحيث تسمح ضرورة الطاعة للقوانين وخضوع إرادة الفرد لارادة الجماعة ، بوجود سلطة الشعب ووجود المساواة بين المواطنين كما تسمح بممارسة الحرية الطبيعية ، تلك كانت المشكلة التى وجب علينا حلها » [٢] وهى المشكلة التى يفخر بأنه حلها .

ولكن دستوره الكامل لم يكن عمليا للأسف ؛ فهو بما فيه من حق أخذ رأى الشعب بالاستفتاء ، وهو حق لا حد له عملياً ، و بما فيه من توازن بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وهو توازن يتسلل إلى الدولة بدعوى المحافظة على سلطان الشعب (فالشعب ينتخب الوزارة مباشرة ولا تستطيع الجمعية التشريعية إقالتهم إلا باحالتهم إلى محكمة وطنية) ، غير ممكن التطبيق ، ولو نفذ لجعل فرنسا كلها نادياً دائماً للمناظرات debating club . وليس من العجيب إذن أن يرفضه المؤتمر الوطنى ، وأن يفضل عليه الدستور الذى وضعه حزب الجبل .[٣] ومن ناحية أخرى كان من الضرورى أن يرتفع صوت كوندرسيه عالياً بالاحتجاج الشديد[٤] إزاء الانقلاب الحكومى الذى قام به حزب

---

(١) كان أثر T. Payne فى كوندرسيه عظيما للغاية . ولقد درس M. G. Chinand أثر الأمريكيين والآراء الأمريكية فى فرنسا . تراجع مؤلفاته .

(٢) Exposition des motifs, *Œuvres* XII, p. 335

راجع أيضاً: L. Cahen (p. 471)

(٣) وهو دستور لا يفضله من الوجهة العملية إلا قليلا ، ولهذا لم يطبق قط . وقد قرر المؤتمر الوطنى عام ١٧٩٣ « أن حكومة الجمهورية هى حكومة ثورية ويجب أن تبقى كذلك » .

(٤) راجع *Lettre à la Convention Nationale* «عند ما لايكون المؤتمر حراً ، فان ما يصدره من قوانين لا تلزم المواطنين . »

الجبل ، وهو احتجاج كان كوندرسيه أول من يعلم أنه يوقع به وقيعة اتهامه .
ومنذ ذلك الحين لم يكن له من عاصم إلا الهرب ، وكتب كتابه الرائع « الوجيز » الذى تكلمنا عنه طويلا ، وهو هارب مختف مهدد بالموت . وذلك الكتاب هو فى الوقت نفسه وصيته وصك إيمانه ، إيمان رجل مخلص لفكره إيمان فيلسوف ، فى العقل وفى التقدم .(١)

و« الوجيز » ، كما رأينا ، نافذة مفتوحة على المستقبل ؛ وهل كان يرجى أن يكون غير ذلك ؟ أليست النظرة إلى المستقبل أو توقع المستقبل ، هى ما يميز التفكير الانسانى ؟ أليس تحديد الانسان للمستقبل . وتحديده لنفسه هو ما يميز عمله؟ وهكذا أبانت فلسفة القرن الثامن عشر فى شخص كوندرسيه ، أن المرء ، ذلك المخلوق العاقل ، حين يفضل المستقبل على الحاضر فانه يؤكد حريته ويحققها .

ألكسندر كواريه

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) ولكن القوم رجعوا إلى الحق ، ففى يوم ١٣ جرميناك من السنة الثالثة للجمهورية «قدم دونو Daunou مشروع مرسوم يصرح للمؤتمر بالحصول على ثلاثة آلاف نسخة من كتاب كوندرسيه الذى نشر بعد وفاته» ، وقد ووفق عليه بالاجماع وقال وهو يقدم مشروعه «لقد ألف كوندرسيه كتابه فى حال بلغ فيه نسيانه لنفسه ولآلامه درجة أن لم يتأثر كتابه بشئ منها ، فلا شئ فى ذلك الكتاب يشعر بالأحوال المروعة التى كتب فيها . وهو لا يتكلم فيه عن الثورة إلا بكل حماسة . وإنا لنرى أنه لم ينظر إلى اضطهاده الشخصى إلا باعتباره كارثة شخصية يكاد منعها يكون مستحيلا فى مثل تلك الحركة العظيمة التى جلبت الخير للجميع » .
راجع كتاب Buisson عن كوندرسيه ص ١٩ Paris, Alcan . ولقد كان دونو على حق : فان كارثته الشخصية ، بل كوارث الثورة كلها لم تهدم إيمان كوندرسيه وثقته . ومات كما عاش فيلسوفاً .

ثوبان أسودان

ثوبان أسودان يلبسهما بعض الناس . فأما أولهما فيلبسه آباؤنا الرهبان والقساوسة . وأما الآخر فيلبسه علماؤنا من أساتذة الجامعة . . . وهذان الثوبان يتشابهان فى الكثير من الصفات ، فى لونهما الأسود ، وفى بسطتهما وسدولهما واتساع أكمامهما . . . لكن أقرب ما يجمعهما فى الحقيقة صفة متميزة غالبة ، فكلاهما يستبد بصاحبه حتى ليحيله فى بعض الأحيان إلى إنسان آخر !

وقد شاء القدر أن يرتدى صديقان من أصدقائى هذين الثوبين ويظهرا بهما بين الناس ، حين صار أحدهما قسيساً والآخر أستاذاً فى الجامعة . والحق أنى دهشت لهذا ، فقد كنت أظن أن كل شئ يجوز أن يقع إلا أن يكون صديقى فلان هذا قسيساً وصديقى علان ذاك أستاذاً . . . لكن هكذا حدث لنقول حين نرى هذا الصديق الأستاذ وهو فى ثوبه الجامعى إن الله سبحانه قد ملأ صدر هذا الرجل بالعلم فعكف عليه حتى اتخذه مهنة ، ولنقول حين نرى هذا الصديق القس إنه سبحانه وتعالى أنزل التقوى على هذه النفس فاتقت ، وأودعها الرضا فرضيت ! . . .

رأيت صديقى الأستاذ ورأيت صديقى القس فى ثوبيهما هذين الأسودين ، فابتسمت ثم تألمت وقلت : لشدّ ما يغالب كل منهما نفسه ويشدّ عليها ! أما أستاذنا فكما عرفته ليس فى طبعه وقار العلماء و إخلاصهم للعلم ، لكن وظيفته اضطرته إلى الوقار الذى يصطنعه العلماء و إلى البحث والتقصى كما يصنع العلماء، وهكذا رأيته بعد حقبة طويلة من الزمن فرقتنا . . . لم يكن فى طبعه الابتعاد كثيراً عن الناس، لكن مركزه قد ارتقى به بحيث أصبح يصطنع مايصطنع كبار الأساتذة الذين لا يختلطون كثيراً بالناس ، والذين تفرد لهم حجرات خاصة حتى لا يعكر الناس عليهم هدوءهم ويصرفوهم عن الاستغراق فى التفكير والتأمل فى

البحث ! لقد أصبح لايضحك إلا بقدر ، ولا يتحرك كذلك إلا بقدر ؛ لأنه دائماً مهموم بحياته العقلية . . . بل رأيته أقلم ملامحه — إن صحّ أن الملامح تؤقلم — لأن البيئة العلمية التى يشغل فيها مركزاً ممتازاً تحتاج إلى مثل هذه الملامح العلمية ، بحيث أصبح لايبدو للناس إلا مفكراً أو شبه مفكر . وأعجب من هذا وأكثر قسوةً عليه وعلى النـاس أنه اضطر ليؤلف بعض الـكتب لأنه بغير هذه الظاهرة العلمية لا يستطيع أن يكون أستاذاً فى مثل هذا المركز الممتاز ! والحق أنى أشفقت عليه حين رأيته يعكف على القراءة الـكثيرة المتصلة ، ويضطر لتأليف كتابين طبعهما طبعة متقنة . . . وللعلماء لون خاص من ألوان العيش يصطنعونه فى حياتهم المنزلية ؛ فشدّ صاحبنا على نفسه فى اصطناع هذا اللون ، فملأ الجدران بالـكتب ، وظل طول ليله يقلب فيها . أى مغالبة وأى إرهاق ! أعلم أنه يود لو كان هناك بدل هذه الـكتب بعض الصور التى يهواها قلبه . . . أعلم أنه يود لو قضى ليله فيما تشتهيه نفسه ، لـكن هذا الثوب الجامعى الأسود اللون مستبد به كل الاستبداد حين اضطره أن يبتعد كثيراً عن المجتمع ، وحين اضطره أن يقيد من حركاته ومن نزعات قلبه . . . بل لقد بلغ من استبداد هذا الثوب الجامعى الأسود أن كاد يحيل صاحبه إلى إنسان آخر غير هذا الانسان الذى فى نفسه وتحت قميصه ! . . .

قلت له حين رأيته : أراك صرت أستاذاً كبيراً ! . . . قال : نعم . قلت : أسعيد أنت بهذه المهنة ؟ قال : إنه مركز ممتاز يا صديقى . . . لـكنى مع ذلك لا أكتمك شيئاً ، فان هذا الروب الجامعى على جلالته ورحابته قد أفسد علىّ الحياة ، وضيق على قلبى الخناق ! وأنت تعلم أن ظروف الحياة قد تدفع الانسان منا نحو غاية لا تشتهيها نفسه . . . وهل كنت تقدر أنت أو أقدر أنا أننى سأصبح أستاذاً فى الجامعة ؟ كل ما فى الأمر أن يداً ما دفعت كرة من الـكرات نحو جهة ما ، فاندفعت هذه الـكرة وصارت تتدحرج وتتدحرج ! . . . ولا بد أن ستقف هذه الـكرة من نفسها أو بقوة خارجة عنها ، ستقف هذه الـكرة يوماً ما أو ساعة ما ، غير أنى لا أعلم متى . . . أليس كذلك ياصديقى ؟ ألسنا فى الغالب نشغل وظائفنا فى الحياة مدفوعين بمؤثرات مختلفة ، فنسير أكثر ما نسير فى حياتنا بهذا القصور الذاتى ؟ قد تعرف أنى رجل لا صبر لى على هذا التحقيق العلمى الدقيق ، لـكنى مع ذلك أحقق وأدقق . . . وقد تعلم أنه لا صبر لى على

هذه الحياة العلمية المنزلية بين هذه الكتب التى تطلق عليها المراجع ! لكنى مع ذلك ألفت هؤلاء الأصدقاء الثقلاء ، وفهمت قول المتنبى :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بُدّ

والذى يغيظنى حقا أنى لا أستطيع أن أقنع نفسى بترك هذا العمل إلى غيره ؛ لأن مركزه كما تعلم مركز ممتاز . . . وماذا تقول لو عرفت أن هذه الناحية العلمية التى برزت فيها يوماً ما والتى أقوم بتدريسها الآن فى الجامعة ، إن اتسع لها عقلى وأحبها ، فقد طالما ضاق بها قلبى وأراد الخلاص منها ! وإنى لأعلم أن قوماً آخرين من زملائى يشقون بمثل ما أشقى به لكنهم لا يتصارحون ! أرأيتنى وأنا أدخل الكلية ! أرأيتنى وأنا أضع هذا الروب على كتفى ! أرأيتنى كيف أتركه فى بعض الأحيان يتهدل على جسمى دون أن أظهر العناية به لأنه لا ينبغى لرجل العلم أن يعنى بغير الفكر ! لشد ما يزعجنى يا صديقى حين أعلم أن الحياة بالنسبة لى لم تعد إلا معهداً للتمحيص والدرس ! لكن الكرة لا تزال تجرى قوية سريعة ، وربما سبقت غيرها من الكرات ، لا لشئ إلا لأن طاقتها الذاتية المادية قوية ! ثم سكت صديقى الأستاذ كأنه لم يشأ أن يصارحنى بشئ أكثر من هذا .

فأما صديقى القس فثوبه هو الآخر ثوب فضفاض ، ولكنه فى الحقيقة يضيق على نفسه الخناق ! وما أكثر ما أشفقت عليه حين رأيته يصطنع من أجل هذا الثوب ما يصطنع ! . . . عرفته طروباً مرحاً يستخفه اللهو ويملك عليه أمره فى بعض الأحيان ، لكن حياته الدينية أصبحت لاتسمح له أن يأخذ من هذا الطرب أو هذا المرح بكثير أو قليل . . . رأيته يسير فى الطريق بتؤدة هادئة جدا ، وما كان يعرف التؤدة فى شئ . . . ورأيته يضع فى يده كتاباً صغيراً ، وكنت أراه يقبل على قراءة كثير من الكتب إلا هذا الكتاب الصغير الذى أصبح لا يفارق يده . . . ورأيت الزنار يلف خصره . . . فأما قسمات وجهه فقد أشفقت عليه حقا حين رأيته يروضها على هدوء يشبه الجمود ! أقسم أنه لا يحب هذا الثوب الأسود الكنسى الذى يعوقه عن الحركة الخفيفة السريعة ، والذى لا يقدمه للناس إلا فى صورة الرجل الزاهد فيما فى الدنيا من متاع وجمال ! وأستطيع أن أقسم أيضاً أنه ضيق الصدر بهذا الكتاب الصغير الذى لا يفارق

يده ! . . . وهذا الزنار الأبيض المتدلى من خصره ، فلقد كان يود من صميم قلبه أن لو كان ذراعاً ملساء بضّة ! نعم ، ما أكثر ما أشفق على صديقى القس هذا حين أراه يفتح عينيه الوادعتين فيرى ماتهفو إليه نفسه ويخفق له قلبه ، لكنه يسارع فيغض من عينيه ؛ لأن هذا الثوب الأسود يرده إلى ما ينبغى أن يرد إليه ... لقد كان صديقى القس هذا يتحدث إلىّ فى كل شئ إلا حديث الدين ، فها هو ذا لم يعد يرغب من الحديث إلا فيما يتصل بالدين ... أين تلك الحياة الفنية التى كان يحياها هذا الفتى قبل أن يصبح قسًّا ؟ أين لهوه وعبثه ! بل أين ذهب عنه شيطانه إن كان حقا ذهب !

قلت له : أتصدقنى ؟ قال : ماذا تريد ؟ قلت أسعيد أنت بهذه الحياة الدينية التى تحياها ؟ فنظر إلىّ نظرة وادعة هادئة وقال : نعم ! قلت ولكنى أعلم أنك كنت تفكر فى كل شئ إلا أن تكون عليك هذه المسوح . . . قال : ومن قال لك إن الانسان مخيّر ؟ قلت : أو ما يهفو قلبك حيناً إلى شئ مما كان يهفو إليه قديماً ؟

فابتسم صديقى القس وقال : دعنا من هذا . . .

محمد عبده عزام

الهجاء السياسى فى مسرحيات أريسطوفان

من الأمور التى تتردد عادة على خاطر المشتغلين بالأدب كلما عرض متحدث أمامهم لكاتب من الكتاب المعاصرين التساؤل عن آثار هذا الشاعر أو القصصى أفيها مايضمن لها شيئاً من البقاء والتأثير فى نفوس الأجيال المقبلة ؟ وليس من الغريب أو النادر أن نرى النقاد يتحدثون عن بعض الكتّاب قاطعين بثقة أن مؤلفاتهم ذاهبة دون شك مع سيرتهم . و يمر الزمان بالناقد فيظهر صدق حكمه أو كذبه ، وتأتى الأيام أحياناً بعكس ما كان يتوقع البعض ، فيكف الناس عن قراءة كتب كان المعاصرون يخالونها خالدة ، ويتهالك الناس على مؤلفات كان الجميع يتحدثون عنها يوم نشرها فى شئ من الاستخفاف والاحتقار . وأقطع مثل لذلك فولتير الذى كان يظن ويظن معه الناس أن رواياته المسرحية هى أحسن ماأنتج ، وأن قصصه الفلسفية ليست إلا مداعبات فنية أراد فولتير أن يشغل بها أوقات فراغه ليلهو بها القارئ ويستريح إليها من التفكير المضنى . والواقع أن مسرحيات فولتير لا يقرؤها اليوم إلا الباحث فى أدب القرن الثامن عشر عامة ، وفى آثار فولتير بنوع خاص ، على حين تتعاقب طبعات قصصه الفلسفية ويتسابق الفنانون إلى إخراجها فى أناقة مزينة بالصور والرسوم .

و إذا كان الشعر من الآثار الفنية التى تبقى حية لما فيها من وصف خالد للشعور ، ومن صور لتجارب إنسانية يعانيها كل فرد ، ومن إيحاء إلى آمال وأحلام ملازمة لكل عصر ولكل جيل ، فالمسرحيات والهزلية منها بنوع خاص تقل فيها تلك العناصر . وقد استنبط برجسون فى كتابه — وعنوانه «الضحك» — الأسباب التى تدفعنا إلى الضحك ، وخصص ناحية من بحثه للايحاء ووصفه بالعنصر الأساسى للضحك . وقد يضطر الكاتب فى أكثر من مناسبة ليثير الضحك (ومن الكتاب من ينسى أن الضحك على أنواعه هو الغرض الأخير لكل المسرحيات الهزلية)

إلى استغلال حوادث تاريخية أو أوضاع اجتماعية أو شخصيات سياسية يكفى أن يشير إليها ليضمن لروايته النجاح وللمتفرجين السلوة والمرح .

وفى مسرحيات أريسطوفان إشارات لا نضحك لها إلا بعد الرجوع إلى البيئة التى عاش فيها والوقائع التى يسخر منها أى — بعبارة أخرى — بعد الرجوع إلى التاريخ اليونانى فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ فتكشف لنا وقتئذ الكلمات عن معان كنا نجهلها ، وتثير العبارات ضحكا كان يردّنا عنه جهلنا لما تحتويه من دوافع إلى الضحك . وقد نشأت فكرة هذا البحث عن حرصنا على ألا تفوتنا فرصة للضحك ، وعن اطلاعنا على بعض المراجع مثل تاريخ الأدب اليونانى « لألكسيس بيرون سنة ١٨٩٤ والجزء الثالث من تاريخ الأدب نفسه لألفريد وموريس كروزيه سنة ١٩١٣ ودراسات فى أدب أريسطوفان لإميل ديشانيلى سنة ١٨٧٦ والمقدمة لآثار أريسطوفان فى مجموعة بوديه G. Budé بقلم فيكتور كولون ، والتعليقات على كل رواية بقلم فان ديل سنة ١٩٣٤ ، وأخيراً الكتاب القيم عن أريسطوفان والأحزاب فى أثينا بقلم موريس كروزيه سنة ١٩٠٦ » . ولما كان الهجاء على اختلاف أنواعه من ضروب الأدب الفردى المتصل بحياة الكاتب ، فسنحاول أن نعطى القارئ فكرة وجيزة عن أريسطوفان وعن بعض مؤلفاته .

من الأجزاء التى تتكون منها المسرحيات الهزلية اليونانية جزء يسمى « الاستطراد » parabase وهو عادة فى آخر النصف الأول من المسرحية ، يتجه فيه الشاعر مباشرة إلى مستمعيه . وهو فى أغلب الأحيان حديث يفتخر فيه تارة صاحبه بما أقدم عليه من عمل جرئ فى محاربته أو نقده لحاكم أو زعيم ، وتارة أخرى يؤاخذ الحاضرين على سوء إدراكهم لرواية سابقة ، أو يطلعهم على ما يجول فى نفسه من شك أو أمل أو قنوط كلما فكر فى هذا الزعيم أو ذاك من المستبدين بالشعب المسيطرين على عقله المزدرين لشعوره . وسيرة أريسطوفان التى نقرؤها فى التراجم القديمة وفى الكتب الحديثة عن الأدب اليونانى نجد تفاصيلها منتشرة فى المسرحيات التى وصلتنا فى صفحات الاستطراد الذى أشرنا إليه .

وكذلك نعلم أن أريسطوفان ولد فى نحو سنة ٤٤٥ ق.م وكان أبواه فيليب وزينودورا من أحرار الأثينيين . وكان لأسرته فى مدينة ايجين حيث استقرت سنة ٤٣٠ أرض تستغلها وقد يتعذر علينا أن نعرف بدقة المبادئ التى شب عليها

أريسطوفان والعوامل الثقافية التى أثرت فى تكوين عقله . ولكن هناك أمراً لاريب فيه ، وهو أن عبقرية أريسطوفان ظهرت جليا وهو فى الثامنة عشرة من عمره فى مسرحية نال بها الجائزة الثانية فى مسابقة سنة ٤٢٧ وفى العام التالى مثلت له مسرحية « البابيليين » وهى عبارة عن نقد عنيف لسياسة عهده وهجاء لاذع يقذف به الزعيم كليون . ولم يغفر له كليون هذه الجرأة بل قدمه أمام مجلس الشيوخ لمحاكمته . ولم يكن أريسطوفان من الذين تهزهم المحن أو تثبط هممهم . ففى سنة ٤٢٥ قدم مسرحية « الأكرنيين » ثم « الفرسان » سنة ٤٢٤ وهى أكثر مسرحياته شجاعة وأشنعها هجاء . ومع شهرته الواسعة فانه لم يحصل فى سنة ٤٢٣ إلا على المرتبة الثالثة بمسرحية « السحاب » التى عرض فيها لأساليب التربية الجديدة ، كما أخذ يسخر سنة ٤٢٢ من داء القضاء فى مسرحية عنوانها « الزنابير » وقد تبعتها مسرحية « السلم » سنة ٤٢١ و«العصافير» سنة ٤١٤ و«ليزيزترات» سنة ٤١١ و«بلوتوس» سنة ٤٠٩ . وفى سنة ٤٠٥ لأول مرة فاز بالمرتبة الأولى بمسرحية « الضفادع » وهى خير ما أنتج فى الهجاء الأدبى ونجد فيها مقارنة بين أوريبيدوس و إسكيلوس .

وفى ذلك الحين حدث انقلاب فى أثينا عندما قهرها ليزندر ، فهاجت الحياة واضطر الشعب أن يلجأ إلى العنف والحرب الأهلية ليخلص من نير « الثلاثين » وليعيد نظام الديمقراطية . كل هذا أضعف الدولة وصرف الجماهير عن اللهو البرىء وعن إقامة الحفلات . وأول من فطن لهذا التغيير هو أرسطوفان ، فتمشى مع الروح الجديدة وساير معاصريه ، فلم يتحفهم بمثل المسرحيات الخالدة التى أشرنا إليها ولم يطرق باب الهجاء السياسى كما ألفه فى أول عهده بالمسرح ولكنه لم يكف عن الإنتاج الأدبى . ففى سنة ٣٩٢ مثلت له مسرحية « جمعية النساء » وهو يسخر فيها من النظريات الشيوعية التى كانت موضع جدال فى المدارس الفلسفية. وعاد سنة ٣٨٨ إلى مسرحية «بلوتس» فعدّل فيها وبدل، وهى أيضاً من القصص الاجتماعية الخطيرة عن مشكلة توزيع الأموال . وينقطع هنا عهدنا بأرسطوفان ولا نجد فائدة من ذكر المسرحيات التى لا نعرف منها إلاعناوينها أو بعض أشعار ضئيلة. وحسبنا أن نعرف أن عدد مسرحيات أريسطوفان على أقل تقدير ٤٤ مسرحية ، وأن من بين المؤرخين من يعتقد أنه ٥٤ مسرحية. وعلى كل حال فقد بلغتنا إحدى عشرة منها .

ولما كان أريسطوفان ينشر مسرحياته بعد زمن قصير من تمثيلها ، فالنص الذى نقرؤه اليوم صورة للنص الأول الذى أشرف المؤلف على نسخه .

مما يقرب المسرحيات الهزلية إلى الحقائق الواقعية اتجاهها نحو الهجاء . وهناك ثلاثة موضوعات حاول الكتّاب أن يعالجوها فى مؤلفاتهم ، وهى الأخلاق والعادات من جهة ، والسياسة من جهة أخرى ، والآداب من جهة ثالثة . وشاعر مثل أريسطوفان ترك لنا فيما ترك من مسرحيات نقداً شاملا لعصره من النواحى الثلاث التى ذكرناها . ونحن لا ننظر اليوم إلا فى مسرحياته السياسية مع ملاحظة أن الهجاء السياسى ، وإن كان العنصر الجوهرى فى بعض مسرحياته ، متكرر فى أغلبها على شكل إشارة أو تلميح . وقد اضطر أريسطوفان كغيره من الشعراء الذين سبقوه إلى أن يثير العواطف القومية السائدة فى عصره — تلك التى كانت لا تمس حتى يجأر الشعب بسخريته ونقده وتهكمه . ولابد من هذا الانسجام بين الجمهور والكاتب ، وبين موضوع الرواية والأمور التى تشغل بال الجمهور ، ليجوز الضحك ويستساغ الهجاء .

ولقد تواترت مسرحيات أريسطوفان وتلاحقت معها أساليب من الهجاء انفرد بإبداعها وبرع فى استعمالها ، فجاءت مرآة صادقة لما كان يتردد على ألسنة الأثينيين ويغلى فى قلوبهم من غضب وبغض واستنكار . وربما صادفوا من أريسطوفان هجاء يمسهم فيما ألفوه من عادات ودأبوا عليه من آراء ؛ غير أنهم كانوا يقبلون نقده وسخريته لما كانوا يعترفون له به من الإصابة فيما بينهم وبين أنفسهم وهم المشهورون بحدة ذكائهم وحسن إدراكهم للأمور . ونحن عندما نعكف على دراسة الهجاء السياسى عند أريسطوفان تستوقفنا تفاصيل ربما كان الأثينيون يمرون بها مسرعين ، وتضيف إلى مشاعرنا أغراضاً ربما لم يعرض لها إلا مصادفة ، ونعجب لآراء جريئة ربما صدرت عنه عفواً ، ولا نمعن النظر فى ألوان من النقد ربما كان يعتبرها هو ومعاصروه أقوى مافى المسرحية من عتاب وهجاء . وإليك نبذة عن الروايات التى يعتبرها النقاد الذى قرأنا بحوثهم واقتبسنا منها الكثير فى صميم عالم السياسة .

ليست مسرحية « الاكرنيين » أول محاولة لأريسطوفان فى باب الهجاء السياسى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مسرحية عنوانها «البابيليون» نقد فيها الشاعر

كليون نقداً مباشراً منددا بالزعيم المتملق للشعب العابث بأموال الدولة . أما مسرحية «الأكرنيين» التي تهمنا الآن فاننا نفهم من سياق الحديث أنها كتبت تحت تأثير الغضب والأخذ بالثأر؛ لأن كليون أبى إلا أن يقابل غلو الشاعر في النقد بشيء من العنف . والمسرحية دفاع عن السلم ؛ فقد طال النزاع وسفك الدماء والعذاب ، ولم يتوقع فرد نهاية للحرب بين أثينا وسبرتا ؛ فقد عجز الأثيني ديكايوبوليس عن حمل هيئة الشعب على درس شروط الصلح ، فلجأ إلى توقيع هدنة شخصية مع العدو ، فلم يستجب له أحد بادئ الأمر بل تهافت الجميع على لومه . ولكنه لم يضطرب لما شنوه عليه من عداء ، بل أخذ يثبت لهم أن الحرب بدعة بعض الساسة الطامعين في المال واللذة حتى بلغ منهم قصده . واقتنعوا أن أقطع دليل على حسن تفكيره السعة التي كان يعيش فيها على مقربة من أناس يقاسون مر الحياة وبؤسها .

أما مسرحية « الفرسان » سنة ٤٢٤ فهي أول مسرحية يتقدم بها أريسطوفان باسمه . نرى خادمين ديموستين ونسيلس وهما يتظلمان إلى سيدهما ديموس (وهو يمثل شعب أثينا) من تصرفات البفلجوني (كليون) منذ دخوله البيت . وهما ذات يوم يستغلان نشوة زميلهما و إغراقه في النوم ويسلبان نص التنبؤات التي كان يقرؤها من حين إلى حين على سيده لاستمالته ، فيقع بصرهما على نص يشير إلى قهر كليون وإذعانه لغالبه وهو بائع . . . ويمر بهما البائع ويعلم منهما ما في الغيب من خير يخصه ومن مرتبة عالية سوف تسند إليه . ويحضه الخادمان على مطاردة كليون بمعاونة الفرسان وأهل الجاه . ثم يقبل كليون وهو يتأجج غيظاً ويفوه بالتهديد والنذير ، فيستعين ديموستين بالفرسان فيذيقه الفرسان ألواناً من الضرب لم تكن تخطر بباله . ويتشجع بائع المقانق فينشأ بينه وبين كليون نزاع شديد يخرج معه كليون مغلوباً ، ولكن يأبى إلا أن تكون له الكلمة الأخيرة ، فيطلب إلى منافسه أن يرفعا أمرهما إلى ديموس ليفصل بينهما . ويصغي ديموس إلى ثنائهما ويتقبل ما يجودان عليه من هدايا ، ثم يؤثر بائع المقانق على كليون ، ويعينه ناظراً على بيته ومدبراً لماله . ويأسف ديموس على ضلاله القديم ويقطع على نفسه عهداً بأن يعوض ما ضاع ويصلح ما فسد . وأخيراً يحكم على كليون بأن يرتدي ثوب بائع المقانق وبأن يتخذ حرفته ليبيع اللحم على أبواب المدينة .

ثم يستصحب ديموس فتاة جميلة (وهى تمثل هدنة ثلاثين سنة) ليعيش معها فى الريف .

هذا ، ولا بد أن نرجع إلى تاريخ اليونان لندرك معنى رواية « السلم » ، فقد فاز كليون بثقة الديمقراطيين واستأنف القتال ضد سبرتا، ولكنه لقى حتفه فى معركة أنفيبوليس . وقد شعرت أثينا وسبرتا بعد حين بحاجة ماسة إلى السلم والسكينة . فجاهد كل من ملك سبرتا ونسياس زعيم الحزب المعتدل لإعادة الطمأنينة إلى النفوس ، واتفق الفريقان على توقيع الصلح على أن يرد كل فريق للآخر الأقطار التى استولى عليها أثناء الحرب مع احتفاظ أثينا بميناء فيسيا ، فدعت سبرتا حلفاءها للتشاور فوافق بعضهم على شروط الصلح واعترض عليها البعض لأسباب قومية واقتصادية . فكتب أريسطوفان مسرحيته ليشجع البعض على التمسك بنزعاتهم السلمية ولدعوة الآخرين إلى شئ من التأنى ، وهو من أجل ذلك لا يجادل فى السلم أهو مأمول أو محال ، و إنما يمثل عودة الحياة السهلة الهنيئة ليغرى بها قلوب الجميع .

ونستطيع الآن أن نلخص موضوع المسرحية فى كلمتين : يمتطى المزارع تريجيه دابة و يرتفع بها فى الهواء إلى أن يصل إلى الأولمب وقد هجره الآلهة تاركين مكانهم لعملاق يجسم الحرب ولرفيق له يهيئ نفسه لسحق المدن المتحاربة فى مهراس فخم ، وآلهة السلم كامنة فى قاع محفر على شكل كهف . و يجدّ اليونانيون على اختلاف ألوانهم لإخراج السلم من عزلتها ، وبعد مشقة وعناد يظهر تمثال السلم ، ويقدم الجميع الذبائح والقرابين ، وتنتهى المسرحية بالولائم والطرب .

وأخيراً يمكن اعتبار مسرحية « ليزيزترات » آخر محاولة من أريسطوفان لوقف القتال بين شعبى أثينا وسبرتا . قد منيت أثينا بالهزيمة فى صقلية وكان أجيس ملك سبرتا يحتل مدينة ديقلى على مسافة أربعة وعشرين كيلومتراً من أثينا فارتاع ، الشعب وفطن إلى ضرورة المقاومة . وفى أثناء ذلك تعاهدت سبرتا مع بلاد الفرس وضمنت ما كانت فى حاجة إليه من المال والأساطيل . فكتب أريسطوفان مسرحيته راجياً باسم البشرية أن ينصرف الجميع عن القتال ليدفعوا عن بلادهم شر الخضوع للأجنبى عدو المدنية ، ولا يهتم الشاعر بتحديد المسئولية وهو لا يريد شيئاً إلا أن يذكر أولئك وهؤلاء أنهم من أصل واحد و يربطهم

دين واحد ، وأن لهم حقوقاً كما أن عليهم واجبات ، وأن الأفضل أن يقدر كل واحد خطورة الموقف ويعمل على تصفية الجو والضمائر . فوجه أريسطوفان كلامه إلى نساء البلدين من زوجات وأمهات . وليوفق بين غرض كله جد وبين أصول المسرحية الهزلية اخترع الشاعر الموضوع الآتى :

« دعت ليز يزترات من النساء من يمثلن المدن المعادية ، وطلبت إليهن أن يتمردن على أزواجهن حتى يتم الصلح . فاحتجت واحدة منهن فى أول الأمر وكادت الفكرة تخفق لولا مهارة زعيمتهن . اقتنعت النساء شيئاً فشيئاً حتى قبلن وأقسمن ألا تلين الزوجة أمام زوجها أو على الأقل ألا تخضع له إذا لجأ إلى القوة إلا مضطرة ، ثم تحتل النساء وعلى رأسهن ليزيزترات حصن الأكروبول . وهنا تقدم جوقة الشيوخ لتصد النساء عن مقاومة لا طائل فيها وعن تشبث مضحك ومحزن فى آن واحد . ولكنهن يظهرن ثباتاً و إلحاحاً لا حد لها و يهددن الشيوخ . وأخيراً يأتى الرجال من كل صوب من حلفاء وأعداء ساخطين تارة ومستعطفين تارة أخرى ومتظلمين على كل حال من قسوة تلك المعاملة ومن ذلك الامتناع الذى لا طاقة لهم به ولا صبر لهم عليه وازدراء زوجاتهم لهم . وهم مستعدون أن ينفذوا كل ما تشير به أزواجهم وأن يأتوا بالمعجزات فى سبيل ما يبتغون من عطف وما يطلبون من وصل . فتبدأ فعلا المفاوضات وتنتهى إلى الصلح والوئام والطرب . »

إن الهجاء السياسى فى المسرحيات التى ذكرناها واضح كل الوضوح . وهدفه الأول والأخير هو كليون الرجل المتشبع بمذهب الديمقراطيين من سكان المدن ، وهو المشاغب الذى ندد أريسطوفان بخلقه السيئ و بميله الآثم إلى القسوة والعنت وبعده عن الروح اليونانى الخفيف . انشق على بريكليس أيام حرب البلوبونيز . وفى سنة ٤٣٠ عندما ثار الشعب على حاكمه كان كليون فى صف المتهمين ليفوز بثقة الشعب وعطفه . يلومه أريسطوفان على عنف الأساليب التى كان يتبعها لإقناع الشعب ، وعلى سوء سياسته الداخلية إذ أنه حاول بجميع الطرق هدم آراء الطبقات الراقية والغض من قدرها ومحو أثرها ، وهو فى سبيل هذا الغرض لا يترك غريزة خسيسة إلا استغلها . وهناك غرائز تذهب بالأفراد ، فكيف بالجماعات ، إلى حيث لا تريد . فهو تارة يرفع أجر القضاة ليبلغ رضاهم ، وتارة

يتهم الناس ويقودهم أمام المحاكم ليظهر للشعب أنه الزعيم الوفى الأمين الساهر على مصالحه .

وبسط أريسطوفان هجاءه على سياسة كليون الخارجية ؛ لأنه كان دائماً يحض أثينا على الطموح الباطل ، فلم يقنع بالسيادة على البحار بل كان يغرى الشعب بأحلام استعمارية خلابة . وكان يعالج الشؤون الخارجية التى تطلب مهارة وحكمة ودقة بمثل ما كان يبديه من استبداد وتطرف وانفراد فى الرأى والعمل . وكانت أنفته البغيضة تحول بينه وبين التروى والتفكير الطويل . وكان أريسطوفان يمقته لمعارضته التى لا هوادة فيها لأى مشروع صلح . وكان الشاعر يعلم ما للحرب من ويلات ولا يفهم كيف يشجع امرؤ على متابعتها .

وكان النضال يثير غضب الشعب ، وبنوع خاص من اشتد عليه الدهر من الريفيين الذين هجروا منازلهم خشية اكتساح العدو لأراضيهم وتساقطوا على أثينا من كل صوب ليأمنوا فيها ، لكنها ضاقت بهم وازدحمت مساكن الأهل والأصدقاء ، فلجأوا إلى المعابد والقلاع ،وهم عرضة لحرب ضروس ولأمراض فتاكة ، وقد نشأت عن هذا الضيق بالحياة ثورة على أعدائهم ورغبة ملحة فى مطاردتهم بكل ما أتيح لهم من القسوة والشجاعة . وأصبح إذ ذاك حديث السلم من الشجاعة التى ليس بعدها شجاعة . والجرأة من صفات الكاتب الحر الذى يقدر قداسة فنه ويرفع من شأنه غير مكترث بما تخلق له تلك الحرية من مشقة وهم . وكان أريسطوفان يعلم لكثرة ما جربه فى حياته أن الضحك دواء نافع ناجع يجد فيه الانسان شيئاً من التسلية والعزاء والنسيان ، ومخدراً لأعصاب متوترة ، وحلا هيناً لصعاب يعجز الجد عن حلها . وربما فكر فرد غير أريسطوفان أن يأتى بالبراهين الدقيقة والأدلة القاطعة والاعتبارات النظرية ليقنع سامعيه بوجاهة رأيه . ولكن أريسطوفان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . لذلك نراه اتخذ فى رواياته السياسية طريقة الهجاء والتهكم ومحاربة المسئولين عن الحرب وعلى رأسهم كليون . فصور أهل عصره وقد أعياهم القتال ونهك قواهم وأفسد عليهم الجو ودس الاضطراب فى نفوسهم وأثار الانشقاق بينهم . فمنهم من يرغب صادقاً أن تعود أيام الهناء ، ومنهم من يعارض الفريق الأول ، ومنهم من لا يقدم على عمل ولا يفكر فى حل بل يكتفى بمشاهدة غيره وتشجيعه بالكلام حيث لا تنفع إلا الأعمال .

هجا أريسطوفان كليون لشدة ما بين نظرياتهما السياسية الجوهرية من تناقض

وما أبعد ما كان الأمد بين مؤيد للديمقراطية المعتدلة المحافظة على التراث الأدبى والخلقى القديم ، وبين رجل مثل كليون وأين ! كان السبيل إلى الوفاق بين كاتب يكره التعسف والغرور والطموح المسرف ، وحاكم لايحرص على طمأنينة الشعب وغضارة عيشه واحترام حريته !

كان كل منهما فى عالم مختلف لا تجمع بينهما إلا تلك الساعات المضحكة كلما أتيحت للشاعر مناسبات النقد والهجاء .

ريموند فرنسيس

LIFE IN A NEUTRAL COUNTRY
IN SWEDEN TODAY

HENRY BAERLEIN

الحياة فى بلد محايد

فى السويد اليوم

[زار الكاتب مستر بيرلين المعروف برحلاته الوصفية بلاد السويد منذ شهور مندوباً لنادى القلم البريطانى ، للمؤتمر الذى عقد فى تلك البلاد . وكتب المقال التالى خاصة للكاتب المصرى .]

عندما كانت الحرب قائمة ، كنا نسمع كثيراً عن البلاد المحايدة السعيدة ، وتنظر إليها البلاد المحاربة فى شئ من الحسد؛ ولكن تلك البلاد كانت لها متاعبها التى ربما لا نشعر بها شعوراً كافياً . والآن ما هى حالها ؟ لننظر إلى السويد التى تعتبر من أهم البلاد المحايدة .

كانت بلاد السويد فى أثناء الحرب تشعر بالقلق الذى ينتاب عادة شعباً صغيراً يحيط به محاربون أقوياء . وقد ظل أهلها حتى سنة ١٩٤٣ لا يكادون يستطيعون الدفاع عن حدودهم الأرضية الطويلة إذا ماغزاهم الألمان من جهة بلاد النرويج . وفى سنة ١٩٤٣ كانت قواهم مسلحة جيداً بأسلحة أكثرها ألمانى ، إذ أجبر النازى على أن يبيعوها هذه الأسلحة، كى يظلوا على علاقة حسنة مع الدولة التى يستمدون منها أكثر الحديد الخام .

والآن قد لا يكون من المبالغة أن نقول إن الجيش السويدى هو خير جيش شتائى فى العالم . ولقد وقفت السويد جهودها زمناً طويلا على معالجة المشاكل الخاصة بحرب الشتاء ، فعسكرت قوى كبيرة من جيشها عدة شهور فى الغابات وفى العراء أثناء شهور شتاء كان قاسياً برده ، إذ كان البرد يبلغ درجة ٢٠ تحت الصفر بمقياس سنتيجراد . ومما يدل على مقدرة هؤلاء الجنود فى التغلب على صعوبات الشتاء ، أنه لم يحدث أن أصيب جندى واحد إصابة ناشئة عن الجليد

والآن تستطيع السويد فيما يتعلق بمواد الحرب أن تعتمد إلى حد كبير على تصميماتها وعلى مصانعها . ويكفى أن نذكر فيما يتعلق بصناعة البنادق مصانع بوفورس التى ظلت تتمتع من زمن مديد بشهرة عالمية ، وصنعت سيارات مصفحة ودبابات من خير الأنواع . وأخرجت مصانع السفن السويدية للبحر سفناً جديدة خفيفة تسير فى سرعة فائقة ، وتسلمت البلاد الكثير منها وبخاصة الغواصات . وكانت البلاد تعتمد فى الطيارات على الاستيراد من الخارج أو البناء حسب نماذج أجنبية أكثرها بريطانى أو أمريكى ، أما الآن فقد قامت صناعة حديثة للطيران داخل البلاد . وأخبرنى ضابط أمريكى للطيران منذ أيام أنه يعتبر الطيارين السويديين لا نظير لهم ، فهم مهرة فى فنهم . ومما يستحق الذكر فى هذا المجال أن الخطوط الجوية السويدية تستخدم عدداً من قواد الطيارات البريطانيين والأمريكيين والنرويجيين . والسبب فى ذلك أنه لم يسرح من قوة الطيران الحربية السويدية عدد كاف للعمل فى خطوط الطيران ، ولا يسمح لقائد الطيارة المدنى أن يقوم بالعمل إلا إذا بلغت مدة طيرانه ١٥٠٠ ساعة .

لم تكن السويد لتستطيع المحافظة على حيدتها فى أثناء الحرب مع العدد المحدود لسكانها ، أمام أى مهاجم محتمل ، بالاعتماد على التفوق العددى . فبذلت كل جهد للوصول إلى أسمى ماتستطيع الوصول إليه من حيث النوع . ويعتبر المجندون السويديون من خيرة المجندين فى العالم . ولذلك لا يرفض فى السنوات العادية من بين الشبان اللائقين للجيش بسبب حالتهم الصحية أكثر من خمسة فى المائة . وتجرى للمتقدم للخدمة العسكرية اختبارات نفسانية معدة إعداداً جيداً ، كى يتبين ماتتجه إليه ميوله ويصلح له من فروع الخدمة العسكرية . ويشعر أفراد الشعب بأن اللياقة الجسدية هى الهدف الذى يجب أن يصلوا إليه .

ومع ذلك ليس كل شئ فى الحديقة السويدية جميلا . فقد تظهر الصورة لامعة أمام عينى السائح ، فالحوانيت مليئة بالسلع الجذابة والطعام كثير ، منه فواكه كالأناناس والموز ، وتجد أطناناً من الشكولاتة ، والبيض كمياته وافرة ، والأضواء فى كل مكان ، والعلامات الملونة تضئ فى الليل بما يذكرنا بليالى ما قبل الحرب تماماً ، وتجد قطارات كهربائية مريحة — والسويد استفادت من أنهرها الجبلية التى لا عداد لها ، وهى أكثر بلاد العالم استعمالا للكهرباء — والمواصلات

بالسيارات ميسرة (فالسائح القادم من الخارج يسمح له بحمل سيارته إلى السويد من غير أجرة) والعمل ميسور كل اليسر . ولكن هذه الصورة ، خداعة بعض الشئ ؛ فوراء مظهر الرخاء أهراء الفحم الخاوية . وتدل الأرقام الرسمية على أن واردات الفحم كانت فى السنة الماضية كلها ٤٠٠ ألف طن ، وهذا أقل من عشر الواردات مدة الحرب ، وهذه كانت نصف واردات السلم . ومن المستطاع الاستمرار مادام هنالك شئ من الفحم المختزن الذى احتفظ به فى السنوات السابقة العجاف . و يمكن أن تبقى الصادرات وقتاً ما فى مستوى عال بفضل هذا الفحم المختزن لهذه الفترة الانتقالية . ومن غير الفحم يستحيل الإنتاج إلى أقصى حد فى صناعات مثل الأخشاب وعجينة الورق والورق ، فلا ينتظر تسليم كميات من هذه الصادرات بالمقدار الذى بلغته فى سنة ١٩٤٥ . وقد يكون من العجيب أن يتوقف إنتاج الخشب على الفحم ، ولكن العلاقة فى الحقيقة بسيطة . ففى الظروف الحاضرة يستخدم العمال فى قطع الخشب للوقود . ولا تجد طواحين نشر الأخشاب حاجتها من القطع الخشبية . وكذلك مصانع عجينة الورق يتوقف جزء من العمل فيها على الفحم الذى يسير آلاتها . وقد وضعت الدولة يدها على بعض أخشابها من أجل الوقود . ومن الراجح أن السويديين بعد أن فتحت أمامهم واردات الزيت يستطيعون أن يسدوا حاجتهم لسنة أخرى فى تدبير أمورهم المنزلية بكميات الفحم القليلة التى تصل إلى بلادهم من الولايات المتحدة وبولونيا . ولكن هذا العمل غير اقتصادى للغاية ، وهم فضلا عن ذلك لا يقنعون به ؛ إذ هو لا يمكنهم من القيام بدورهم فى سد حاجة أوربا الملحة إلى صادرات الأخشاب لإعادة تعمير البلاد .

ولكن الأنباء عن شركة كيرونا للحديد الخام أحسن من ذلك . وهذه الشركة هى صاحبة المناجم التى تخرج أجود نوع من المعدن الخام فى العالم . وهى تملك ميناء نارفيك وأبنيته ، وهو الميناء التى سمعنا عنه كثيراً منذ سنوات .

على أن الكثيرين قد يتطلعون إلى زيارة بلاد مثل السويد ، غير أن الوصول إليها عن طريق أوربا ليس سهلا ، ومع أن هنالك خط سيارات منظم يقطع الطريق من باريس إلى استوكهلم فى ثلاثة أيام أو أربعة . إلا أن السويديين يحملونك بحراً وجواً فى خير ما يمكن من الراحة إذا كنت تجئ عن طريق بريطانيا . وتوجد طبعاً خطوط جوية تصل السويد بجهات عديدة فى القارة الأوربية . وكان من

المنتظر أن تبنى أفخم باخرة من بواخر الخطوط البحرية السويدية فى بريطانيا ، ولكن عدل عن ذلك بسبب الحرب ، وبنيت هذه الباخرة التى سميت « ساجا » فى جوتنبرج ، وكان كاتب هذا المقال أحد ركابها عندما قامت برحلتها الأولى فى طريق العودة من انجلترا إلى بلادها . وكانت الرحلة من تلبرى وهو الميناء الذى يصل إليه المرء فى ساعة من لندن بالسكة الحديدية . واستغرقت الرحلة اثنتين وأربعين ساعة ، وينتظر أن تستغرق فيما بعد خمساً وثلاثين ساعة فقط عندما يطهر بحر الشمال من الألغام . وتشغل آلة ديزل فى هذه السفينة الجميلة الصنع نحو خمس المكان الذى تشغله هذه الآلة فى غيرها من السفن . ولذلك تجد فيها أماكن فسيحة لثلاثمائة وتسعين راكباً وتسعة وتسعين من رجال السفينة . وفيها أماكن إضافية ذات أسعار معتدلة جدا لهيئات الشباب .

لم نسمع كثيراً عن طيارات السويد أثناء الحرب ، ولكن الألمان كانوا على علم بما تبذله السويد فى نقل أشياء ثمينة مثل القذائف الحربية إلى بريطانيا ، ومغامرات الطيارين السويديين الذين يحملونها إلى اسكوتلنده . فلما انتهى القتال حتى كانت خطوط الطيران المدنى السويدية أول الخطوط الأوربية التى اجتازت الأطلنطى ، وهى الآن تطير إلى جهات كثيرة فى العالم . وتستغرق الرحلة الجوية من لندن إلى ستوكهلم نحو ست ساعات ، ولا تنزل الطيارات فى غير جوتنبرج . وفى كل نصف ساعة أو ما يقرب منه يرسل قائد الطيارة الذى يعلن اسمه للمسافرين بطاقة يذكر فيها الارتفاع والسرعة والوقت المحتمل للوصول وما شابه ذلك . وقد اهتم السويديون أيضاً بالنقل الجوى الداخلى . والسويد بلاد طويلة وضيقة ، والمسافة بين طرفى شمالها وجنوبها شاسعة ؛ ولذلك كانت المواصلات الداخلية كبيرة الفائدة . ثم هنالك الاتصال بجزيرة جوتلند الجميلة فى بحر البلطيق ، وعاصمتها فيزبى . وهى مدينة محتفظة بطابع القرون الوسطى ، يحيط بها سور لا يزال متيناً ، يبلغ طوله ميلين ونصف ميل ، وبين مبانيها القديمة بيت لأحد الأشراف من القرن الثالث عشر هو الآن أجمل مكتب للطيران فى العالم . ولقد مضى وقت كان محتوماً فيه على السفن الانجليزية والروسية وغيرها من السفن التى تتاجر فى بحر البلطيق أن تخضع لقوانين فزبى البحرية . وقد بنى تجار تلك الأيام الكثير من كنائس جوتلند التى تبلغ تسعين كنيسة ، أحدثها أنشئ

سنة ١٣٦٠ . ويقال إن الكثير منها بنى بنقود لإرضاء الضمير ، أى للتكفير عما جناه التجار من ربح غير مشروع . وأكثر هذه الكنائس الآن بلا أسقف وصارت جزيرة جوتلند تعرف الآن بأنها جزيرة الخرائب والورود . فإذا ذهبت إليها بين شهرى يونيه وديسمبر فان الورود تحييك فى كل مكان . وفيما عدا ذلك من أشهر السنة تجد الحواجز مغطاة بزهور الليلق من النوع العادى ومن النوع الأبيض الجميل .

و بماذا نصف أهل تلك البلاد الجميلة ؟ مثل واحد يكفى لبيان رقتهم . فقد حدث ذات مساء فى ستوكهلم أن كنت ألاحظ رجلا يقترب من مواطن له ضرير ، جلس مستنداً ظهره إلى حائط ، وفى حجره وعاء من صفيح لوضع مايقدمه الناس من نقود ؛ وقد تقدم الرجل ووضع شيئاً من النقود فى الوعاء وعند استئنافه السير رفع قبعته تحية للضرير . والغريب بعد هذا أنى عندما ذكرت هذا الحادث لبعض السويديين لم تأخذه الدهشة .

هنرى بيرلين

نقلها عن الانجليزية ز . ى . ع .

مقطوعات من الشعر

كلما زاد للأنام اقترابى ... زاد عنهم تباعدى واغترابى
إذ بدا كنههم لعينى وكنهى ... فبدا الفرق داعياً لاجتنابى
خدعتنا قشورنا فاجتمعنا ... وافترقنا لدى ظهور اللباب
وإذا جئت تطلب الرى تبصر ... فارق الماء عن خداع السراب
فتوخيت غير صحىَ صحباً ... أخدع النفس فى جديد الصحاب
أنعش القلب فى خداع جديد ... وأعزيه بالأمانى الكذاب
أجعل الجهل لى وسيط ودادى ... لأناس حتى انقشاع السحاب

لقد تغربت حتى ... نسيت كل قريب
فان رجعت لأهلى ... رجعت مثل الغريب
سلكت كل الدروب ... ألفت كل الكروب
فغربة الدار دارى ... والأهل صحب الدروب

نروم لحاق الغرب لو ظل واقفاً ... بألف من الأعوام نقطعها وثبا
فهل صار أهل الغرب ناساً بعلمهم ... وعلمهم أفنى الذى دب أو هبا
أنعدو وراء الغرب دهراً لنغتدى ... وحوشاً كأهليه ! دعوا علمهم جنبا
إذا العلم لم يصلح سريرة أهله ... فما هو إلا الجهل قد لبس الكتبا

يعظمنى الفذ العظيم بعقله ... فذا قد سما منه إلى فضلى الفضل
ويفهمنى الشعب البسيط بروحه ... فيكبرنى مهما يسد عقله الجهل
وينكر فضلى ناقص العلم إذ غدا ... مضاعاً فلا روح لديه ولا عقل
كذا يتلاقى ساكن الأرض والسما ... وبين السما والأرض أجوف مختل

تعجّب صاحباى من انكماشى وخالا فىَّ غطرسة فضلا
فقلت ومن أعاشر خبّرانى أريد عواطفاً وحِجًى وفضلا
وما ألفى بأهل العقل عطفاً ولا ألفى بأهل العطف عقلا

سرت دهراً ولم أزل فى مكانى أترانى أسير فى دوران
درت حيران واهتدى بى أناسٌ وأنا قد ضللت فى عرفانى
وكذا النجم يُهتَدَى بسناه وهو باق يدور كالحيران

باتت لهدم كيانى معاول الدهر تترى
ما يهدم الدهر منى للأرض يسقط شعرا
كأن نفسىَ شعر مبلور صيغ قصرا
يهوى على هادميه ناساً وعصراً ودهرا

احمد الصافى النجفى

المرأة فى الأندلس

للمرأة فى الأدب العربى أثر واضح لا يقل عن أثرها فى الآداب الأخرى .

ففيه من روحها سمو ، ومن وحيها إلهام ، ومن مشبوب العاطفة ضرام .

تمثلت فى خيال الشعراء واستولت على مشاعر الأدباء ، فأنطقتهم بروائع الشعر وطرائف الأدب هياماً بها وحنيناً إليها وافتناناً فى وصفها وتصويراً لمحاسنها .

ولم تقنع هى بأن يكون حظها منه التغنى بها ، فلا يكون له صدى من نفسها وتجاوب من حسها . . . بل شاركت الرجال فى أدبهم مؤثرة فيه ومتأثرة به . فنقلت عنهم ورووا عنها ، ونظمت الشعر ، وأجادت الغناء ، وطلبت كل ما يصقل العقل ويهذب النفس ويرق الشعور ، خصوصاً فى عصر ازدهار الحضارة العربية ، وما أتاحته من حرية عقلية واسعة .

فبعث ذلك فى الأدب العربى من فجر نهضته حياة زاخرة بالقوة ، على تعاقب العصور واختلاف البيئات ؛ فكان لكل إقليم طابعه الخاص ولونه الواضح من أقصى المشرق إلى أقاصى المغرب .

ذلك شأن المرأة فى العالم العربى ، تستوى فيه الحرائر والجوارى . . . وإن كان أدب الجوارى فى المشرق أكثر وضوحاً وتأثيرهن فيه أشد ظهوراً .

فقد كان تأديب الجوارى حرفة ، وتثقيفهن صناعة ، وتهيئتهن لإمتاع العقل والروح وسيلة مقصودة وغاية مطلوبة .

فاتجهت الرغبة إليهن والسعى فى طلبهن ، ليسر اللقاء فى غير خشية أو حرج . وهل كن إلا متاعاً من أنفس المتاع أو طرفة من أمتع الطرف يقتنيها من أتيح له فضل من مال ، ويتهادى بها ويغالى كل ذى جاه أو سلطان !

لقد أفدن من الأدب إقبالا عليهن وإعزازاً لهن . وأفاد منهن الأدب شعراً رقيقاً ووصفاً دقيقاً وذخيرة ممتعة تفيض بالحياة وتنبض بأدق خفايا الشعور وخلجات النفس .

ولم يكن حظ الحرائر بأضعف من حظ الجوارى فى الحرص على التزود من المعرفة ، ولم يحل الرجال بينهن وبين أن يبلغن من العلم والأدب ما يردن .

ولئن حرم الرجال من مجالستهن ، ولم يؤثر عنهم سعى ظاهر إليهن أو اندفاع نحوهن ، فما كان ذلك رغبة عنهن أو عزوفاً عن حديثهن ، ولكن الظروف قل أن واتتهم ، فلم يكن اللقاء ميسراً فى كل آن ، فهن أسيرات بيئة محافظة غالباً وتقاليد مرعية وحفاظ من الرجل يصونهن عن التبذل والابتذال .

فهن قريبات إلى قلوب الرجال بعيدات عنهم . ولعل الكثيرات إن تحدثن فمن وراء حجاب ، و إن خالطن ففى رفق وعلى استحياء .

هذا فى المشرق . أما فى أقصى المغرب نقد كان حظ المرأة فى الأندلس من التحرر أكثر من أختها بالمشرق ، وتحللها من القيود أبعد غاية ، ونشاطها المثمر أعم وأقوى ، بعد أن فك عقالها وأصبحت طليقة من أسر موهوم ، وتفتح قلبها للحياة الحلوة ، واستمتعت بما فيها من جمال فغردت على كل فنن ، وشدت ماطاب لها أن تشدو ، لم يحل دون ذلك حائل ولم يمنع منه حجاب .

أُعجب الرجل بكل هذا واطمأن له ولم يجد فيه شذوذاً ، فسعى إليها وأقبلت عليه ، و إذا بغذائه الروحى غذاؤها ، ونشاطه الأدبى من وحيها وفى ظلها ، والانتاج العقلى شركة بينهما .

وليس هذا فى واقع الأمر بعجيب ؛ فللبيئة أثرها ، ولامتزاج الأجناس نتائجه ، وللمؤثرات الاجتماعية ضروراتها .

لقد كانت الأندلس درة فى تاج الإمبراطورية العربية تتلألأ فى جبين الدهر .

وكانت طبيعتها الضاحكة تجلو صدأ النفس وتذهب بأكدار الحياة ، وتلهب الشعور وتذكى الخيال وتسحر الألباب . وفى جوها تنفست الحضارة العربية وازدهرت ، وفى أحضان هذه البيئة الغنية شيدت القصور ، ومن حلاها ازينت فأبدعت زينتها .

وقد انعكس سحر الطبيعة على أهلها أخلاقا عاطرة من عبيرها ، ورقة ذوق من جمالها ، وخفة روح من نسيمها . فاتسموا بالظرف وعذوبة المنطق ورشاقة التعبير والتأنق فى الملبس والتفنن فى أسباب المتعة وانتهاب المسرات .

ثم إنها أفادت من المشارقة الفاتحين طيب عنصر وكرم عرق .

فاجتمع لأهلها عزة المشرق وسحر المغرب ، وابتسمت لهم الدنيا فرتعوا

فى خيراتهـا وارتووا من النعمة ، واستمتعوا بألوان من الترف دونها غاية المتمنى .

كذلك يسرت لهم الحضارة أسباب الرقى العقلى والنشاط العلمى .

فأتيح للدولة الفتية فى المغرب أن تسامى دولة المشرق فى سلطانها وتنافسها فى جاهها ، و إن كانت تستمد من معينها وتغترف من بحرها ، ثم تنفخ فيه من روحها فتحيله أدباً جديداً وفنا طريفاً ، بفضل هذا الامتزاج بين خير ما فى الشرق من روح وعقل ونشاط ، وما فى الغرب من فتنة و إبداع وأسباب ثراء .

فكنت تراها موئل العلماء وملاذ الشعراء ، ومهد الفن ومرتع الظباء .

احتلت المرأة من كل هذا مكاناً ممتازاً وظفرت برعاية كريمة .

فحفلت مدن الأندلس بالكثير من الأديبات المشهورات ، وازدانت مجالس الأدب بكرائمهن ، فكانت الحرائر أو العربيات كما كن يسمين زهرة النوادى .

ولسنا بسبيل الإحصاء إن ضربنا بعضهن مثلا ولا علينا إن تجاوزنا بالحديث عن الجوارى إلى هؤلاء العربيات فهن قصدنا .

ولندع قرطبة حاضرة الحواضر وغرناطة عروس المدائن إلى حين ، لنلقى :

فى المرية منهن أم الهناء بنت القاضى أبى محمد عبد الحق ، فقد كانت «حاضرة النادرة سريعة التمثل بالشعر ، من أهل العلم والفهم والعقل » ، ولم يحل بينها وبين هذا النشاط والشهرة أن أباها كان قاضى المدينة !

وهل يتعارض وقار القاضى ومرح الأديب ؟ لقد اجتمعا فى الأندلس .

وفى وادى آش شاعرة مشهورة كانوا يطلقون عليها خنساء المغرب ، هى حمدة (أو حمدونه) بنت زياد ، إن كان فينا من يجهل اسمها فلعل الكثير منا يحفظ هذه الأبيات ويتمثل بالأخير لنوع من البديع :

ولما أبى الواشون إلا فراقنـا ... وما لهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنـا كل غارة ... وقل حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقلتىَّ وأدمعى ... ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

ولئن قيل إن هذه الأبيات لمهجة بنت عبد الرازق الغرناطية دون حمدونة فلا ضير فهى أندلسية على كل حال ، وكلتاهما شاعرة مشهورة مذكورة .

أما قرطبة وغرناطة فما أكثر من احتفلت لهن المجالس ، وعمرت بهن النوادى !

وهل يجهل أحد ولاّدة إذا ذكرت قرطبة ؟ أو يجوز إهمال نزهون أو حفصة إن تحدثنا عن غرناطة ؟

أما قصة ولاّدة بنت المستكفى وابن زيدون فهى أشهر من أن نفيض فى ذكرها . . .

ألم تكن بنت خليفة ساء حظه وخبا نجمه بانقضاء دولته وقيام حكم بنى جهور ، فما حال ذلك دون أن يلمع فى سماء قرطبة نجمها وأن يفتن الناس بها .

كانت ذات جمال بارع ، وحسن فاتن ، ودل وتيه عرفته من نفسها وأحست إعجاب الناس بها فأعلنت ذلك التيه والدلال ، فكتبت بالذهب على طراز ثوبها الأيمن :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الأيسر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلتى من يشتهيها

وكانت خفيفة الروح حلوة النكتة واسعة الاطلاع فى الأدب مشغوفة بنظم القريض ، تتذوق الغناء وتحسن صنعته .

وكان ناديها كعبة الأدباء والأشراف والأعيان ومجلس السمار ، يغشاه ويحرص عليه أبو عبد الله البطليوسى من سادة العصر ، وابن عبدوس من كبار قرطبة وأعيانها ، وذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون كاتب ذلك العصر وشاعره . وكانت ولادة واسطة العقد ، وتزينه درة أخرى هى مهجة القرطبية صفية ولادة وتلميذتها فى الأدب ومنافستها فى الجمال والاستئثار بالقلوب .

كانت ولادة مصدر إلهام لفريق ومثار حسد وغيرة لآخرين ، وكلهم يحنّ إليها ويتهافت عليها .

ولها معهم نوادر وحوادث ولها بهم صلات . . . أنطقت ابن زيدون بأروع الشعر ، وأثارت فى نفسه أرق العواطف ، وأوقعت بينه وبين ابن عبدوس أبغض فرقة .

وكان ذلك مصدر عبث ودعابة تارة ، وتهكم لاذع وهجاء مر تارة أخرى . وما كانت رسالة ابن زيدون الهزلية التى عبث فيها بابن عبدوس وتهكم عليه إلا من وحيها وهى التى دفعته إلى تحبيرها .

ألم تكن هى أيضاً تنتهز الفرصة للتهكم به ومداعبته دعابة قاسية ؟

لقد مرت بابن عبدوس وهو جالس أمام داره يملؤه الكبر والعجب وحوله جلاسه وأمامهم بركة تجمعت فيها مياه الأمطار وتلوثت بالأقذار .

رأت ولادة هذا المنظر القبيح يجمع بين قذر المجلس وخيلاء الجالس ، فالتفتت إليه وقالت يا ابن عبدوس ! فابتهج للنداء وأقبل عليها بسمعه وبصره ، فما زادت على أن أشارت إلى البركة وتمثلت ببيت أبى نواس :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

فبهت لسماعه وخجل من جلاّسه وارتد كسير النفس زائغ البصر .

أما هى فقد انصرفت مزهوة بما أتيح لها من إذلاله .

أرأيت كيف أحسنت الاقتباس وبرعت فى قلب المعنى من المدح إلى الذم !

وهل نعجب لهذا وهى الأديبة الشاعرة التى تتصرف فى كل فن وتضرب فيه بسهم ! فقد كان نظم القريض لها طبيعة ، وتراسلها به عادة ، وعدم الحرج من ذكر ما تشعر به أو يجول بخاطرها من العواطف والأهواء سجية .

وأى حرج فى أن تفصح عن هواها ومكنون عاطفتها ، فتكتب إلى ابن زيدون وقد ظل يرقب رؤيتها بعد طول تمنع :

ترقب إذا جن الظلام زيارتى فانى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وهل ترى غريباً أن تذكر الفراق ولوعته وساعة الوداع وحرقتها ! فتروى عنها هذه الأبيات المشهورة :

ودّع الصبر محب ودّعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً وسناً حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك

فاذا صحت نسبتها إليها فلا عجب ، فقد كان ذلك مألوناً شائعاً فى الأندلس . وما أكثر ما أفصح النساء عن هواهن بأصرح من هذا .

لقد جمعت ولادة إلى بارع الجمال بارع الأدب ، والتصرف فى فنون القول : تشكو إذا أحبت ، وتعتب إذا هجرت ، وتهجو إذا أبغضت ، وتفحش فى الهجاء أحياناً حتى لتكاد تبذ ابن الرومى فى إفحاشه ، وهى مع كل ذلك حبيبة إلى كل قلب قريبة من كل نفس .

وبعد فهذا لون من حرية القول وصورة من أدب النساء عرضنا عليك طرفاً منه فى شخص ولادة .

ولا يذهبن بك الظن إلى أنا نتجنى عليهن أو نسرف فى تعميم الحكم حين نسوق الرأى ؛ فالمقّرى نفسه يقول فى حديثه عن ولادة : « وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمُر فيه من النادر و إنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك ! »

فهذا حديث ولادة فى قرطبة ، وقد عاشت فى القرن الخامس حتى نيفت على الثمانين . أما غرناطة وشاعرتها نزهون القلاعية فما أقوى الشبه بين الأديبتين وأقرب التوافق بين الشاعرتين فى المزاج وخفة الروح ورقة الشاعرية وما أتيح لكل منهما من الحظوة ودواعى الشهرة !

وليس بينهما من فرق إلا أن ولادة كانت بنت خليفة من خلفاء الأندلس . أما نزهون فلم تسعد بذلك أو لم تنكب به نكبة ولادة فى أبيها ، بزوال سلطانه وضياع ملكه .

ولعلها كانت بنت عالم أو أديب ، وقد تكون ابنة أحد الأشراف أو الأعيان . فما نعلم عنها إلا أن اسمها نزهون بنت القلاعى . ولايعنينا هنا تقصى حسبها ونسبها . و إنما يكفى أن نعرف أنها كانت من الفتيات اللاتى نهض بهن أدبهن وظرفهن وجمالهن ، فاحتضنتها غرناطة وهيأت لها كل أسباب الظهور .

فقد اجتمع لها — إلى جمالها وظرفها — حس مرهف ونفس شاعرة وبديهة حاضرة واطلاع واسع أعانها على الامتياز فى المسامرة والجلد على المساجلة ، فوق مقدرتها على نظم القريض ، فأعجب بها الشعراء وناظرها الأدباء وهام بها الأشراف فسعوا إليها ، فاستمعت لهم وتحدثت إليهم وجادلتهم فخلبتهم وغلبتهم .

وكانت هى الأخرى فى غرناطة كولادة فى قرطبة درة المحافل وزهرة المجالس .

ولئن كان ابن زيدون هام بولادة وشقى بحبها كما سعد بقربها ، فلعل

تزهون لم تكن أقل منها شأنا ولا أضعف حظاً . فقد فتن بها الوزير أبو بكر ابن سعيد فتنة جعلته لا يطيق لها فراقاً ، وهو أديب شاعر ، فهو بجمالها مسلوب الفؤاد وبأدبها وظرفها مفتون . إن غابت عنه راسلها ، وإن سعى إليها أو زارته طارحها الشعر وبثها مكنون النفس .

وكم كانت لها مجالس معجبة مع ابن سعيد ضمت أمثال أبى بكر الكتندى الشاعر وابن قزمان الأديب وأبى بكر المخزومى الأعمى وغيرهم ، وجرت فيها النوادر المستملحة والطرف المستعذبة ، ومطارحة الأشعار ، والاستمتاع بأعذب الغناء .

وكانت نزهون تشارك فى كل هذا ، فتسامر وتداعب ، وتنقد وتقسو فى النقد .

ولعل فى رواية مجلس لها مع المخزومى ما يكشف عن دقة ملاحظتها وميلها إلى الدعابة ولو خرجت عن حدود الوقار المرسوم .

وذلك أنه وفد يوماً على غرناطة ، فدعاه الوزير أبو بكر بن سعيد إلى مجلس من مجالسه وقد عطّر بالند والعود — وكانت نزهون حاضرة — فلما استقر به المجلس وأفعمته روائح الند والعود والأزهار وهزّت عطفه الأوتار — كما يقول نفح الطيب — طرب وأنشد :

دار السعيدى ذى أم دار رضوان ... ما تشتهى النفس فيها حاضر دان
سقت أباريقها للند سحب ندى ... تحدى برعد لأوتار وعيدان
والبرق من كل دن ساكب مطراً ... يحيى به مَيْتَ أفكار وأشجان
هذا النعيم الذى كنا نحدثه ... ولا سبيل له إلا بآذان

فلاحظ أبو بكر على الشطر الأخير ملاحظة عابرة .

وأما نزهون فكان لها موقف آخر مع المخزومى أدق وأشق ، ولم ترهب سلاطة لسانه فقد كان شديد الشر معروفاً بالهجاء مسلطاً على الأعراض . قالت : وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمجرد ند وغناء وشراب فتعجب من تأتيه وتشبهه بنعيم الجنة وتقول ما كان يعلم إلا بالسماع ولا يبلغ إليه بالعيان . . .

ثم إنها لم تسكت عند هذا ولعلها حرصت على إثارته وإن كانت ستتقاضى جزاءها على التعرض هجاء مرًّا وطعناً بذيئاً . . . فهى تستدرك على ملاحظتها وتعتذر عن نقدها بما هو أقسى وآلم فتقول :

ولكن من يجئ من حصن المدور وينشأ بين تيوس وبقر من أين له معرفة

بمجالس النعيم . . . كانت مفاجأة للمخزومى لم يتوقعها ، فتنحنح وتهيأ للجواب وكأنها أرادت أن تهيجه ليخرج عن حده فقالت : ذبحة .

ولكنه تمالك أول الأمر وقال : من هذه الفاضلة ؟

فتعمدت إثارته وقالت : عجوز مقام أمك ! فما بقى فى قوس الصبر منزع ، وأجاب : كذبت ، ما هذا صوت عجوز ، إنما هى نغمة . . . تشم روائح ها هنا على فراسخ . . . وأراد الاسترسال . . . فعمل الوزير أبو بكر بن سعيد على تدارك الأمر وقال : يا أستاذ هذه نزهون بنت القلاعى الشاعرة الأديبة .

فأجاب : سمعت بها لا أسمعها الله خيراً ولا أراها إلا . . .

وتطاول ، وتبادلا هجاء مقذعاً وطعناً مراً . . . لعل أهونه قوله :

على وجه نزهون من الحسن مسحة وتحت الثياب العار لو كان باديا
توارك نزهون قواصد غيرها ومن قصد البحر استقل السواقيا

ونضرب صفحاً عما أجابت به أو قاله مما جعل ابن سعيد يحلف ألا يزيد أحدهما على الآخر كلمة هجاء . . . ثم أصلح بينهما .

فهل سمعت فى حديث النساء مثل هذه الصراحة والجرأة فى المساجلة ولو انحرفت عن السبيل على نحو ما رأيت ؟

إن كان هذا قليلا أو نادراً فى المشرق فما أكثر ما نراه فى المغرب . . . وإن دل على شئ فانما هو مظهر لهذه الحرية الواسعة فى الحديث ، ونتيجة لهذا التسامح الذى أباح للأندلسية ما لم يكن يُرضى عنه أو يُطمأن إليه لمثلها من الحرائر فى المشرق .

وشاءت المصادفة أو قضت البيئة بأن تكون نزهون كولادة فى سرعة الخاطر وحلاوة النكتة وتصيد الفرصة للفكاهة والمداعبة .

فاذا سمعت ابن قزمان يتحدث فى مجلس ابن سعيد — وقد أضافه — ويطول الحديث والنقاش والمباراة ، فيعجبها منه ذلك ، ويغريها به جبة صفراء كانت يتزيا بها على هيئة الفقهاء فى ذلك العصر ، فتقول : أحسنت يا بقرة بنى إسرائيل إلا أنك لا تسر الناظرين . . . فيرد عليها بجواب لاذع فيه فحش أيضاً .

وكذلك هى فى حضور بديهتها فقد كانت تقرأ على المخزومى (أطرافاً من الأدب وفنوناً من الشعر) وقد عاد الصفاء بينهما ، فدخل عليهما الكنتدى .

وقال يخاطب المخزومى :

لو كنت تبصر من تجالسه

– وانتظر أن يجيزه فأفحم . . . وما وجد شيئاً فأسعفته نزهون وأجازت : –

لغدوت أخرس من خلاخله

البدر يطلع من أزرّته والغصن يمرح فى غلالته

كانت شاعريتها وظرفها سبباً فى أن يفتن ابن سعيد بها، ويشقى ببعدها فيعاتبها على تجنيها أو توهمه هجرها ويرسل إليها :

يا من له ألف خل من عاشق وصديق
أراك خليت للنا س منزلا فى الطريق

فتكتب إليه لتنفى عنه الوهم وتبين منزلته عندها :

حللت أبا بكر محلا منعته سواك وهل غير الحبيب له صدرى
وإن كان لى كم من حبيب فانما يقدم أهل الحق حب أبى بكر

وليس يهمنا ضعف الأسلوب ولا أن نشير إلى ما فى الشطر الأخير من استغلال لطيفة ، لاشتراك ابن سعيد والخليفة الأول أبى بكر الصديق فى الكنية فتستعير رأى جماعة المسلمين فى تقديم الصديق على غير ما يراه الشيعة من تقديم الامام على ، لتسجل به حب أبى بكر بن سعيد وأنه أولى بالتقديم فى رأى أهل الحق . . .

لقد أردنا من ذكرهما بيان ما فى شعرها من صراحة فى القول وإفصاح عن مكنون العاطفة تدفعها إلى تذكر حنينها إلى اللقاء وتغنيها بأوقاته . . . ولعله كان فى الليل أكثر منه فى النهار ، وربما كانت ليلة الأحد هى الحبيبة . ألا تراها تقول :

لله در الليالى ما أحيسنها وما أحيسن منها ليلة الأحد
لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد
أبصرت شمس الضحى فى ساعدى قمر بل ريم خازمة فى ساعدى أسد

هذه نزهون وتلك ولادة ، قد ذكرنا طرفاً يسيراً من أخبارهما . ولولا الاسراف فى الطول لأتبعناهما بثالثة لا تقل عنهما حظا فى الجمال إن لم تزد عنهما إمتاعاً فى الحديث وتحللا من القيود وإفصاحاً عما تريد ، حتى لقد كتبت إلى بعض أصحابها :

أزورك أم تزور فان قلبى	إلى ما تشتهى أبداً يميـل
فثغرى مورد عـذب زلال	وفرع ذؤابـتى ظل ظليـل
وقد أملت أن تظما وتضحى	إذا وافى اليـك بى المقيـل
فعجـل بالجواب فما جميـل	إباؤك عن بثينـة يا جميـل

وهذه هى حفصة بنت الحاج الركونية .

وقد لا نعدو الحق أو نتجاوز الواقع إن رأينا فى هؤلاء صورة صادقة للعربيات فى الأندلس . فما كان الأمر مقصوراً على واحدة أو اثنتين فيوسم بالشذوذ وينبو عنه القياس .

ولم تكن قرطبة أو غرناطة وحدهما منبت هذه الزهرات ومسرح أنس هؤلاء الأقوام ؛ فكل مدينة — كما قدمنا — تستمد من نفس المنبع وتفيض بماء الحياة الدافق فتروى هذه النفوس الظامئة .

وبعد أفلا ترى معى أن المرأة العربية فى الأندلس قد نالت من الحرية الأدبية فوق ما نالته المشرقية ؟ ألم تستمتع بمجالس وتتحلل من قيود ما كانت لتظفر بالفكاك منها لو كانت فى المشرق ؟

لعل هذه البيئة المرحة الطروب ، وهذا الامتزاج وتزاوج الأجناس ، وهذه الحياة الاجتماعيـة الجديدة ، هى التى سوغت كل هذا وأعانت عليـه ، فأصبح ضرورة من ضرورات ذلك العصر .

عبد العزيز أحمد

ليلة العيـد

ذهبت لزيارة خالتى أم علىّ عجوز القرية عندما لبيت دعوة صديقتى المعتادة، لقضاء إجازة عيد الأضحى . فقد كنت أجد عندها أحدث الأخبار والأقاويل ، وأكثرها تشويقاً . وكانت تحدثنى دائماً أحاديث طويلة مضحكة لا أظنها إلا من نسج خيالها . وكانت أم على خصبة الخيال ، غزيرة المادة ، تعبر عما يجول بخاطرها فى طلاقة وقوة تدعو إلى الدهشة ، كما كانت تنحو نحواً خاصا عند قصها الحكايات والأخبار . وكانت حكاياتها تدور حول شبابها وحول جمالها الفتاك ، الذى أصبح أثراً بعد عين ، والقلوب التى غزتها والمعارك التى كانت تقوم بين شباب القرية حولها . وكنت أحب الاستماع إليها لخفة روحها التى كانت تنسينى قبح شكلها ، بالرغم من أنى كدت أحفظ عن ظهر قلب كل ما كان عندها من حكايات .

دخلت عليها هذه المرة وحييتها فى حرارة ، غير أنى لاحظت أن أمراً أصابها . فهى لم تستقبلنى بالمرح والحرارة اللذين ألفتهما منها ، فهممت بالانصراف . وكأنها لاحظت منى ذلك ، فأسفت على ما فعلت ، وسرعان ما تغيرت وعادت إلى طبيعتها المرحة ، وهبت واقفة ترحب بى بالعبارات المعتادة التى كنت أشتاق إلى سماعها منها . ولكن ذلك لم يكن ليخفى الألم الذى كنت قد لاحظته عليها أول الأمر .

وقالت معتذرة :

— لا تؤاخذينى يا بنتى ! لقد سمعت قصة آلمتنى . وكم أود لو أستطيع لهذا الاشكال حلاً .

فقلت لها :

— هات ما عندك يا خالة ، لعلّى مهتدية إلى حل إشكالك .

وهنا اتجهت بنظرها إلى ناحية من الغرفة ، وكنت إلى ذلك الوقت لم ألحظ أن فى الغرفة غيرها ؛ إذ شغلنى ألمها البادى أول الأمر عن ملاحظة أى شئ

آخر . فرأيت فى أحد أركان الغرفة الرحبة امرأة ترضع طفلا عمره نحو سنتين . وتأملت فى وجه الفلاحة فاذا بى أمام جمال يعجز القلم عن وصفه مهما أوتى من قدرة ؛ وجه كله فتنة فطرية ، فيه سذاجة وبراءة طبيعية ، لا نجدها إلا فى الريف ؛ وجه صبوح يبعث الراحة والهدوء ، وثغر باسم وإن كنت قد لاحظت شيئاً لم أدرك كنهه وراء هذه الابتسامة الخلابة . واستوقفنى جمال عينيها والروح التى تنبعث منهما ، ففى نظراتها حزن عميق ، وألم دفين ، وأسرار غامضة ، خيل إلىّ أنها تعود إلى سنين مضت . وشعرت صاحبتنا بعينىّ لا أرفعهما عن وجهها ؛ فحاولت إخفاء شئ عنى ، كأنها تريد ألا تشعرنى بما يجول فى خاطرها فيؤلمها ويقلقها ، فابتسمت تلك الابتسامة الجميلة ، ثم جنت رأسها على طفلها كأنها تهمس فى أذنيه بشئ ما .

وذكرتنى وهى فى هذا الوضع بصورة مريم العذراء والسيد المسيح . وكم وددت لو كان ميكل أنجلو إلى جانبى ليرسمها على لوحة تبقى مدى الدهر ويتمتع بها محبو الفن . غير أن خالتى أم على لم تتركها طويلا تسبح فى عالمها ، فحدثتها عنى بما جعلها تطمئن إلى وتأنس بى ، فرفعت رأسها وتفرست فى وجهى بضع ثوان ثم ابتسمت ثانية ابتسامة عبرت عن رضا تام وثقة كبيرة . وهنا كررت على أم علىّ سؤالى ، فقالت :

— المسألة مسألة الشيخة فاطمة ، وقد سمعتها منها فأثرت فىّ . كم أكون مسرورة يا بنيتى لو استطعت مساعدتها . لقد أطلق عليها أهل قريتها لقب شيخة بعد ما وقع لها . . .

فقلت ضاحكة :

— لعلها تتنبأ بخير يأتينا قريباً أو بعيداً .

فقالت أم على :

— بالله عليك لا تضحكى . وأمامك أم فقدت أعز ما تملك ، وهى على حافة الهاوية مرة أخرى . إن مشكلتها كبيرة تحير الألباب ، لم أر مثلها فى حياتى . حقا أنى لست بعجوز ، ولقد مر بى كثير من الأحداث .

وكانت هذه عادة أم على أن تذكرنا بأنها لم تهرم بعد ، وإن كان سن الشباب قد ولى . ورجوت الشيخة فاطمة أن تقص علينا قصتها ، فقالت : إنها تزوجت من ابن عمها ، وكانت موفقة كل التوفيق فى زواجها . وفى نهاية السنة الأولى من زواجها ، وضعت طفلة لم تقابل بالترحاب ؛ لأن الزوج كان يأمل

أن يولد له غلام . غير أنه سرعان ما نسي شوقه إلى غلام ؛ لأن زينب ملأت عليها البيت بضحكها وصراخها ، وخلقت فى البيت جوا من البهجة والمرح . كما كانت مشغوفة بأبيها لاتتركه طويلا . وسرعان ما مر الزمن ، وإذا بها تبلغ العامين من عمرها ، ووالدها فى راحة وهناء قلما يتمتع بهما الناس ، ولكن . . . دوام الحال من المحال — ثم أغمضت فاطمة عينيها ، وتنهدت بألم ، وعضت على شفتها كأنها تود أن تبعد من مخيلتها صوراً وذكريات ، ورأيت دمعة تسقط من عينيها المغمضتين ، حاولت هى إخفاءها بمسحها بيدها . فأردت أن أروح عنها بألا أتركها تكمل حديثها ، ولكنها صممت على متابعة كلامها وقالت :

— انتظرى قليلا ، فما حدث بعد ذلك هو سوطن دائى . فى ليلة عيدالأضحى جلست أخيط ثوب ابنتى الذى كانت ستلبسه أول يوم العيد . وما انتهيت من الثوب حتى آثرت أن آوى إلى فراشى لكى أدفأ ، إذ كان الشتاء فى تلك السنة شديد البرد ينفذ إلى العظام . وسمعت طرقاً خفيفاً على الباب فى منتصف الليل ، ففتحت عينى وأنصتّ ، ولكنى لم أسمع سوى المطر المنهمر ، وكأن أبواب السماء تفتحت عيون كبيرة ، يتدفق منها الماء تدفقاً هائلا . وكنت أسمع صوت الرعد قويا وأرى البرق الخاطف ينير غرفتنا الصغيرة من آن لآخر . ورأيت زوجى نائماً نوماً عميقاً بعدعمله الشاق فى الغيط . ولما لم أجد ما يزعج تركته ينام حتى يستقبل العمل فى اليوم التالى موفور النشاط . ثم حاولت النوم ، غير أنه لم تكد تمضى بضع دقائق كنت قد استغرقت فى النوم أثناءها حتى سمعت الطرق على نحو أعنف ، ففتحت عينى ثانيـة ، وجعلت أنصت إلى صوت آخر إلى جانب صوت المطر الذى كان قد اشتد . وشعرت أنى منقبضة النفس ، كأنى أنتظر حدوث مكروه . إن ثورة الطبيعة العنيفة خيلت إلى أن هذه هى نهاية العالم وفناء من عليه . فحاولت أن أسرّى عن نفسى بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن اعتدت قراءتها كلما شعرت بخوف أو اضطربت . وهممت بأن أوقظ زوجى ، ولكن قلبى لم يطاوعنى ، إذ تذكرت العمل المضنى الذى يقوم به من طلوع الشمس حتى غروبها . كل هذا وصغيرتى تنام بجانبى نوماً هادئاً . وحاولت أن أنام ، فلما لم أستطع قمت من فراشى وتوضأت وصليت ركعتين لله تعالى . لعله يسرّى عنى ويزيح هذا الكابوس الذى أشعر به . وكأن الصلاة بعثت فى نفسى الراحة المنشودة فنمت ، ولكن نومى لم يطل إذ استيقظت على الطرق لثالث مرة ، وقد اشتد حتى خيل إلىّ أن

باب الغرفة كاد يقلع . فصرخت قائلة : من ؟ من هنا ؟ ولما لم يجبنى أحد ، أيقظت زوجى وقصصت عليه ما سمعت . فقال وهو نصف نائم : هذا صوت المطر يا فاطمة ، نامى ولا تنزعجى . غير أنى لم أستطع أن أنام ؛ فقد كنت لا أزال أسمع الطرق . وأخيراً وأنا بين اليقظة والنوم رأيت الباب يفتح بكل لطف وسكون ، ثم رأيت شبحاً طويلا يلبس ملابس بيضاء ، يدخل الغرفة ويقترب منى شيئاً فشيئاً حتى وقف إلى جانبى . وانعقد لسانى من شدة الخوف ، فلم أقو على الكلام أو الصراخ . وكأنه فطن إلى ما أردت فعله ، فقال بهدوء : لا تخافى منى لا أريد إلا زينب الصغيرة . وأخذها من جانبى ، ومسك يدها ، وخرج بها من الغرفة. فصرخت صرخة خرجت من أعماق قلبى ، استيقظ على أثرها زوجى وابنتى ،وأخذت أتلمس ابنتى فاذا بها ما زالت إلى جانبى ، فأخذتها وضممتها إلى صدرى فى قوة وعنف ، وصرت أقبلها بشغف ولهفة ويدى تتحسس جسمها الصغير وتتلاعب بشعرها لأجد فى لمسى إياها الراحة التى كانت تملأ جوارحى كلما فعلت ذلك . ولكنى لم أستطع ، فبكيت بكاء مرا واضطربت أعصابى ، حتى خيل إلى زوجى أنى قد جننت ؛ وما زال بى يلاطفنى ويهدىء من روعى ، حتى استطعت الكلام . فقصصت عليه ما وقع ، ولكنه سخر منى وقال ضاحكا : لا تخافى شيئاً إننا مؤمنون ، ولن يسيئنا الله فى أعز ما نملك . هذا كابوس لأنك أكلت كثيراً ليلة أمس ، ثم نمت بعد العشاء مباشرة وساعد على الكابوس الطبيعة الثائرة . أرقدى إلى جانبى ، لقد بدأت الديكة تصيح ، وعما قريب تبدد الشمس ظلمات الليل ، ويذهب معها كل خوف .

لم أترك ابنتى تبتعد عنى طوال اليوم التالى ؛ إذ استمر يساورنى شعور مبهم من الخوف على وحيدتى . ولم يكد ينتصف النهار حتى قربت منى ووضعت رأسها على صدرى ، ثم ضمتنى إليها بحنان وقبلتنى كعادتها وقالت : « أمى هنا واوا » مشيرة إلى عنقها . خفق قلبى وتذكرت الليلة الماضية ، فمادت الأرض تحت قدمى، ولو أن الأرض انشقت وابتلعتنى فى تلك اللحظة ، لكان أهون على من رؤية ابنتى وهى تشكو . أرسلت أحد الغلمان لنداء زوجى فحضر مسرعاً ؛ إذ لم تكن من عادتى أن أناديه أثناء عمله . فأخبرته بما وقع ، فأشار على بوضع كمادات دافئة على عنقها ، وأخذ حمارته وذهب لاستدعاء طبيب المركز . وخيل إلى وأنا فى انتظاره أن الزمن لا يتحرك وأن غيابه طال . ولم تلفظ زينب كلمة واحدة رغم كل الجهود التى كنت أبذلها معها . وأخيراً حضر الطبيب مع زوجى . وما كاد يفتح فمها

حتى هز رأسه كمن لا حيلة له أمام إرادة الخالق ، وقال : الطب لا يجدى ولا ينفع . تشجعوا فالموت علينا حق وأنتم ما زلتم صغار . . فقطعت عليه كلامه بصرخة حادة ، إذ كنت أرى طفلتى العزيزة وهى فى أشد الألم تعانى سكرات الموت . وأخيراً أسلمت الروح ، وصعد ملكٌ صغير إلى السماء . فقطعت عليها كلامها ، وسألتها : ألم يخبرك الطبيب بأى شئ ماتت . قالت : نعم ، سألته فقال إنه مرض من أخبث الأمراض التى تصيب الأطفال ، إنه الخناق .

ومرت فترة كدت أنسى فيها هذه الحادثة ، لأن الله أنعم علىّ بطفلة أخرى . وعملت بنصيحة أهل القرية هذه المرة ، فتناسيتها أول الأمر ، ثم بعتها بمليم إلى أم عندها تسعة أولاد . واستحوذ على عقلى أحد المشايخ ، فأنفقت كثيراً من مال زوجى ، وبعت بعض الحلى فى صنع التعاويذ و إطلاق البخور ؛ فلقد كنت أخاف عليها أشد الخوف . ولكن كان هناك هاتف يهتف فى أذنى دائماً : انتظرى لم يحن الوقت بعد . لا تخافى الآن . وأخيراً حان ميعاد الزيارة المنتظرة ، وفى ليلة العيد زارنى الشبح زيارة تشبه الأولى ، ومرت أيام العيد دون أن يحدث شئ ، فكدت أطير فرحاً ، وبدأت أشعر بأن قلقى على طفلتى هو الذى أوحى إلىّ هذا الحلم المزعج . ولكن فى نهاية الأسبوع خرجت طفلتى تلعب مع سائر أولاد الجيران ، وعاد الجميع إلى أمهاتهم ، ولكنها لم تعد . وبحثنا عنها فى كل مكان فلم نجد لها أثراً ، وأخيراً وبعد أيام انتشلت جثتها من الترعة . وذاع الخبر عند أهل القرية ، فأطلقوا علىّ اسم الشيخة فاطمة . وحاولوا محاولات عدة لعلى أتنبأ لهم بشئ ، كما تنبأت بموت طفلتى ، ولكنى لم أستطع .

لم أطق صبراً بعد ما حدث لى ، فاعتزمت الرحيل وخاصة عندما أيقنت أنى أحمل بين أحشائى طفلا . وكنت لا أستقر فى مكان حتى أرحل عنه . ووضعت فى هذه الأثناء مولوداً ذكراً هو هذا . وأخيراً وصل بى المطاف إلى هذه القرية . وسمع الجميع بقصتى ، وكنت قد عزمت على الرحيل من هنا بعد يومين من وصولى ، ولكن ما لقيته من عناية ورعاية جعلنى أطيل إقامتى ، وخاصة عند خالتى أم على . فقد أشفقت علىّ وحاولت أن تسرّى عنى بحكاياتها المسلية .

فقلت لها :

— لا تيأسى من رحمة الله . إن المؤمن مصاب والله يمتحنك .

فأجابتنى والدمع يترقرق فى عينيها :

– لقد امتحنى بما فيه الكفاية . لقد وهب لى طفلتين جميلتين ، ولم أكد أتمتع بهما حتى أخذهما منى ، ولا أدرى لذلك سببا . . . ثم قالت فجأة :

– إن عيد الأضحى بعد يومين ، سأمضى اليوم هنا عند خالتى أم على لتروح عنى ، وتبعد عن مخيلتى الخواطر المزعجة ، سأمكث عندها حتى مطلع الفجر . ثم أرحل إلى قرية بعيدة لا أعرفها ، ولا أعرف من أهلها أحداً . . . . قرية بعيدة لا يستطيع الطيف أن يصل إلى فيها . إن الخوف يقلقنى ولا يريحنى لا ليلا ولا نهاراً ، ومصير ولدى محمد المعلق يذهب بعقلى . أرى خيوط الأمل فأتعلق بها ، ثم يعاودنى اليأس القاتل فلا أستطيع الهدوء . لقد فقدت بنتين ولكن . . . محمد . . . إنى لا أستطيع فراقه ، ولا أطيق البعد عنه لحظة من لحظات حياتى .

وأخذت تبكى فى حرارة بكاءً مرًّا أليماً ، وكانت الزفرات تخرج من بين جوانحها تهز مشاعرى . ولكنى تركتها تبكى أول الأمر حتى تزيل شيئاً مما بها ، وتريح أعصابها المحطمة ، فالبكاء فى هذه الحال علاج نافع . وأخيراً بدأت أحدثها حديثاً طويلا عن رحمة الله الواسعة ، وأذكرها بعطفه على عباده ، وأنه لا شك سيوليها من رحمته وعطفه الشئ الكثير ، وسترزق أولاداً ينسونها ما مرت به من شقاء وبؤس . وهكذا مر الوقت وأنا ألاطفها حتى رأيت الدمع يجف من مقلتيها ، وأعدت الابتسام إلى ثغرها . وقد كان لحديثى بعض الأثر ، فرأيت نوراً من الأمل إلى جانب ما كنت قد رأيت من ألم .

وتركتها بعد ذلك وعوامل اليأس والأمل تتنازعها . إن الموت نهاية كل كائن حى . ولكن من منا يستطيع أن يزيل عن أم آلامها ويجعلها تنظر إلى الموت نظرة فلسفية ! ولم يسعنى بعد تركها أن أتم زياراتى المعتادة فقد كنت مرهقة الأعصاب حزينة النفس ، فآثرت أن أنضم إلى صديقاتى .

مضى أسبوع العيد وحان ميعاد رجوعنا ، فذهبت لزيارة خالتى أم على لأستطلع أخبار فاطمة البائسة ، وإذا بها تستقبلنى ضاحكة كعادتها . ولما سألتها عما كنت أودّ أن أعرف قالت :

– سافرت قبل العيد كما قالت ، ولا ندرى عنها شيئاً الآن . لقد حاولت أن أخفف عنها ، ولكن . . . ثم هزت كتفيها ، وقالت ضاحكة : ماذا من موت طفل أو اثنين أو حتى ثلاثة ، إننا هنا فى الريف نلد فى سرعة ، وأولادنا أكثر من النمل من عاش عاش ومن مات مات . هه ! إنها عصبية دعينا منها ، إنى لا أحب أن

أفكر كثيراً فيما يحزنني ، ولهذا حافظت على جمالي ! ثم بدأت تسرد قصصها الشيقة المعتادة .

لقد حاولت كثيراً أن أعرف أخبار فاطمة بعد ذلك ، ولكن تلك العجوز المرحة ، كانت مفتاحي الوحيد إليها ، وقد فقدت في أخبار فاطمة كل لذة وشوق ،إنها معنية بأحاديثها هي . ترى أين ذهبت يا فاطمة ؟ وماذا أصابك ؟ ألا فليلطف بك الله فلكم تألمت !

راجية فهمي

في رثاء الأستاذ طه الراوي

أيا موت يكفيني فقد طفحت كأسي
وإن كنت لا تعيا فقد سئمت نفسي

لقد دب حزني في دمي ، في تأملي
وفي شعري الباكي ومن ثمّ في لبسي

أنوح على الأمس الكئيب بلوعة
وما عشت لن أنسى النياح على أمس

فبالأمس ولّى من أحب وها أنا
أجرّعُ ألواناً من الهم والبؤس

تيتمتُ مالي مَنْ ألوذ بعطفه
توحدت في دنيا الخديعة والدس

مضى الوالد الحاني وَخُلِّفْتُ بعده
لألقى سهام النائباتِ بلا ترس

وأبعدَ قسراً عن أكفّ حبيبة
فبات رهين الترب في ظلمة الرمس

وجئت إلى بغداد أنشد سلوة
وقلتُ يموت الهمّ في روضة الدرسِ

ولكنها الأقدار ! تأبى سوى الأسى
ويحلو لها أني مطأطئة رأسي

فجعتُ بأستاذي غداة قصدته
لأُروي صدى فكري فصدّقني حدسي

وذلك أن النحس لا شك صاحبي
فان رمتُ سيراً سار في موكبي نحسي

أتيتُ أُلقّى الدرس من ثغر ربه
فوا حسرتا قد مُتّ ياصاحب الدرس

رجوتُ بك النصر العزيز على الأسى
فخاب رجائي ، فاستكنتُ إلى يأسي

عرفتُك لم يكْحَلْ بمرآك ناظري
ولا غرو – نشر الروض ينبي عن الغرس

فأحببتُ فيك الفكر بالعلم زاخرا
وأكبرت فيك النبل ياطيب النفس

وما أنا وحدي قد رُزئتُ وإنما
مصيبة رب العقل فاجعة الجنس

عجبت لقلبي صار للحزن موئلا — وكان مدى الأيام في بهجة العرس
عجبت لأيام السرور تصرّمت — ولم تبقَ غير الذكريات من الأُنس
وأعجبُ من هذا أناسٌ تباهوا — يقولون يا هذي اتركي ما مضى وانسى

أتيت أغنّي الفجر أشجُى ملاحنى — وعدتُ كبوم القفر في مغرب الشمس
فيا طفلة تلهو لقد صرتِ شيخة — بدا جذعها من شدة الحزن كالقوس
فلا تبخلي بالدمع ما ساعف البكى — فليس لدمع حين ينهلُّ من حبس
وبكّي لنا نحن — الضعاف — فدأبنا — غرور وكيد واعتراك على الفلس
ونحن عبيد للفناء يسوقنا — فنصبح في دار وفي غيرها نمسى

طيبة عباس عماره

شهرية الفن

المعرض الدولى للفنون الجميلة المعاصرة

القاهرة — مارس ١٩٤٧

إذا لم يكن هذا المعرض العظيم دوليا بأدق معانى الكلمة (لأن بعض الدول ولا سيما الممتازة فى الفن كايطاليا وأسبانيا لم تمثل فيه) فهو رمز قوى جدا للتعاون الفنى بين الدول ووعد حسن للمستقبل بحيث يكون المعرض المقبل دوليا حقا .

أما الذى نلاحظه فى المعرض الذى أقيم فى السراى الكبرى بالجمعية الزراعية الملكية بالجزيرة ، فهو وفرة بعض الأقسام ، لا أعنى وفرة المعروضات فقط ، بل وفرة المزايا الفنية أيضاً . ومن الأقسام التى تمتاز ، القسم البلجيكى . ففى هذا القسم معروضات كثيرة العدد ، كثيرة الاختلاف ، شديدة التنوع . ينقسم كتالوج هذه المعروضات على حسب الأجيال أولا . فالباب الأول هو الباب المخصص للماضى ، فيه آثار للتصوير ، والرسم ، والنحت . والباب الثانى مخصص للفنانين الأحياء فيه آثار التصوير والرسم والنقش والنحت ، وفيه نقود ، وقسم صغير مخصص « للتصوير البلجيكى الحديث » .

أما الباب الثالث والأخير فيجمع تحت عنوان « الصنائع الفنية » صمغ اللك ، والخزف ، والبللور ، والطراز ، والكتب . وفى أسماء الفنانين الأحياء اسم يوجد أكثر من مرة ، فى التصوير والنقش ، وهو اسم الرسام المعروف جيمز إنسور James Ensor ونحن نعترف بكل تواضع أننا نفضل نقوش هذا الفنان على اللوحتين المعروضتين علينا . فى نقوشه شئ من السخرية ومن المرارة . فى اللوحات لاحظنا لبول فرونييه ، «الميناء القديم فى مارسيليا»(١) فيه دعوة البحر الجذابة ، وإن لم ير البحر ، فالدعوة فى سوارى المراكب ، وفى الجو الصافى الناضر ، وفى هذه الألوان الرقيقة المتنوعة . هناك لوحة أخرى استوقفت عنايتنا هى لوحة فرانز

(١) Paul Frognier, *Le vieux port à Marseille* (gouache) [121]

ماسيريل ، عنوانها « المرأة الغاسلة »(١) تختلف هذه الصورة عن الصورة التى كنا نتكلم عنها — فاذا كانت الأولى واضحة منيرة فى الرسم والألوان ، فالثانية تعجب لقوتها فى التعبير وثبات تكوينها . أما الألوان ، فهى عميقة الإشعاع ، حازمة التعارض . ولنقل كذلك شيئاً عن لوحتين لفنانين مختلفين ولكن موضوعهما واحد ، وهو « حديقة بروكسيل » — الأولى لجستون برتران [٤٧٠] Gaston Bertrand وقد تكون «كلاسيكية » (بالقياس إلى المذاهب المحدثة ، بالطبع) يكاد الناظر إليها يميزها بكلمة الاستقرار ، استقرار الجو ، قبل كل شئ . فالسماء هنا ثقيلة ، واطئة ، تغمر كل شئ بضوء غائم ، تسطره الأشجار بسوقها السود قد نشرت بينها بسط العشب الأخضر. أما اللوحة الأخرى فتكاد تميز بكلمة الحركة ، لا تظهر فيها السماء وإنما يعرف الناظر أنها غائمة أيضاً ، ولكن هذا لم يمنع الفنان من استعمال الألوان فوجود اللون ملحوظ قبل كل شئ ، فقد عارض الرسام إسيل ماهى [٤٧٧] Emile Mahy فى لوحته هذه بين اللون الأحمر الوردى (وهو أرض الحديقة) واللون الأصفر الفاقع فى أعماق اللوحة واللون الأخضر (العشب) . وعارض كذلك بين سطور سوق الأشجار وسطور السياج الحديدى .

ولا سبيل إلى وصف كل المعروضات فى هذا القسم ، ولا حتى وصف كل المعروضات الممتازة فى الأقسام المختلفة . وحسبى لأختم الملاحظات عن القسم البلجيكى ، أن ألفت إلى الخزف والزجاج المزخرف ، وبوجه خاص إلى المرايا ذات اللمعان الأخاذ بفضل حواشيها القائمة .

والزائر الذى يتبع سياق الأقسام يبلغ القسم الفرنسى بعد أن زار القسم البلجيكى ، فيجد فيه كل ما وجده فى سابقه من تفنن وتنوع . وبلجيكا تعطى عن فنها فكرة شاملة رائعة ، ولكن ليس فى معروضاتها ما يميزها تمييزاً قاطعاً من جملة الفن الأوربى . وفى الحق أن فى فرنسا دائماً « ميلا ظاهراً ثائراً إلى التجديد واحتفاظاً قويا مطمئنا بالتقاليد» كما يقول المسيو ر. ل. دوپوى R.L. Dupuy ، القوميسير العام للقسم الفرنسى فى الكتالوج الذى طبع بالعنوان الآتى : «فنون فرنسا الجميلة» . إن زيارة القسم الفرنسى تثير فكرتين : الأولى أن فرنسا ما زالت وطن الفن الخالد . والثانية أن فنها متنوع ،

(١) Frans Masereel, *Femme à la lessive* [150]

مختلف أشد الاختلاف ، ولكنه فى نفس الوقت واحد مؤتلف أشد الائتلاف .
فى هذا القسم يستطيع الزائر أن يرى آثاراً لأعظم الفنانين فى العالم ، ويستطيع أيضاً أن يرى آثار الفنانين المحدثين الذين يتبعون الطرق التى فتحت لهم بعد جهاد العظماء الماهرين . ويجب أن نهنئ القوميسارية الفرنسية باتقان الكتالوج ؛ فقد وضعت إلى جانب كل اسم من أسماء الفنانين نبذة قصيرة واضحة عن حياته ومذهبه ومنهجه .
فلنبدأ بالتصوير . لجروبير لوحة « فى انتظار العاصفة »(١) ضرجتها مأساة الحياة ، إن صح هذا التعبير ، بحمرة فاجعة ، فيها امرأة متهالكة على سرير أحمر ، من هذه الحمرة الأرجوانية المشرقة تحت أشعة الشمس ، ولكنها تظهر هنا قاسية صارمة فى هذا الضوء الباهظ الذى يغمر كل شئ .
ولنلفت الزائر أيضاً إلى لوحة لأندريه لوت « ميناء بوردو »(٢) وفى هذا الميناء ولد منشئ نظرية « الكوبيسم » . وهناك لوحة أخرى تستحق الالتفات فى هذا الكنز الثمين صاحبها لوتيرون « السين فى باريس »(٣) ولكنا نعرف أن مناظر باريس التى رسمها لوتيرون كانت من أسباب شهرته الواسعة .
والذين يعرفون باريس من الزائرين ، وخاصة باريس فى وقت البرد والضباب ، سيعجبون بألوان هذه الصورة الرقيقة التى فيها انعكاسات الرمادى والأزرق الصافى والأبيض . ويجرى النهر هادئاً بطيئاً ، بين شاطئيه الفاتنين .
ولنختم هذا الفصل القصير السريع ناصحين للقراء أن يقفوا لحظة غير قصيرة أمام رسم بيكاسو الوحيد الذى يعرض علينا وهو يمثل رءوس ثلاثة رجال(٤) . وقد قيل عن هذا الرسام العظيم ، الذى يعتبر بدون شك أشهر رسام فى العالم الآن ، كل الذى يمكن أن يقال . ولكنى أريد أن أعبر عن دهشى أمام هذه الرءوس الثلاثة . فهل من الممكن أن أثراً فنياً يجمع هذا المقدار من السذاجة والدقة وبعد المعنى فى وقت واحد ؟ فرسم بيكاسو هذا عبارة عن خطوط

---

(١) Francis Gruber, *L'attente de l'orage* [15]

(٢) André Lhote, *Port de Bordeaux* [21]

(٣) Lotiron, *La Seine à Paris* [24 bis]

(٤) Picasso, *Trois têtes d'homme* [153] نأسف لأن الزجاج وضع على هذا النقش بطريقة ساءت إليه ، فقد التقى طرفا الزجاج فى وسط الرسم فشطراه شطرين .

دقيقة رسمتها يد صناع ماهرة ، فهى ثابتة مستقرة قد تحقق فيها التوازن بين براعة التـأليف وقوة التصرف . ويلى قسم التصوير قسم آخر يمتـاز بروعته وثروته العظيمة من الاختراع والإبداع مع الوفاء لما لهذا الفن من جمال موروث ، هو قسم الطراز ، وهو من أهم الفنون التى تفوقت فيها فرنسا منذ عهد بعيـد . ويجب أن نقول شيئاً عن تاريخ هذه الوسيلة للتعبير الفنى . وقد استعرنا هذه المعلومات البسيطة التالية من نشرة صغـيرة أذيعت عن معرض « الطراز الفرنسى» فى باريس (يونيو—يوليو ١٩٤٦)[١] فأصل الطراز الفرنسى يرجع إلى القرن الثالث عشر ، على الأقل ، ولـكن ليس من الممكن تحقيق مصدر هذه الحرفة القديمـة . وقد مرت بالطراز الفرنسى أوقات مجد وأوقات خمول . وقد جمد هذا الفن فى القرن الثامن عشر، فلم يكن إلا تقليداً دقيقاً للتصوير. وقد أغلقت دور الطراز أثناء الثورة . « وتحرك القرن التاسع عشر (كما يقول المسيو بيير فيرلى Pierre Verlet فى النشرة التى أشرنا إليها) غـير موفق وإن حاول المهارة محاولة دائمة، لأنه لم يفهم الأسلوب الصحيح للطراز ولم يكن بد من انتظار وقتنا الحاضر لنشهد نهضة قيمة لهذا الفن . » وقد ردت رسوم لورسا Lurçat وكوتو Coutaud ومارشـان وغيرهم من الفنانين الفرنسيين إلى الطراز جلاله القديم . وفى معرض القاهرة أمثـلة عجيبة للكمال الذى وصل إليه الفنانون المحدثون . لمارشان طراز عنوانه «بنات البحر » [٢] عارض فيه بين ازدهاء الألوان و بروز الأجسام . وقد امتدت إحدى بنات البحر فى أعلى الطراز وجلست الأخرى فى شماله ، ومن حولها فى الحاشية الشهباء خصائص البحر فى ألوانها المختلفة . وطراز آخر لسافين Savin « الصيـد » يذكر بالطراز القديم فى تركيبه وألوانه المطفئة ، ولا نريد أن نصل إلى القسم البريطانى دون أن نسجل إعجابنا بالشطرنج ذى اللونين الأخضر والوردى .

يمتاز القسم البريطانى بالتصوير والـكتب . أما التصوير فلحظنا فيه لأجستس جون Augustus John صورة ديلان توماس [١٣] Dylan Thomas

---

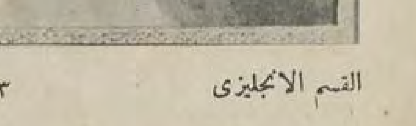
(١) *La tapisserie française du moyen âge à nos jours* (Editions des Musées Nationaux, Paris)

(٢) A. Marchand, *Les Néréides*

القسم الفرنسي
٦٥ — «أورفيوس وآلهة الشعر»
للوسيان كوتو

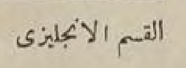


القسم الفرنسي
أنموذج جميل من الخزف الفرنسي



٣ — « صورة ستيفن سپندر » لروبرت بهلر

القسم الانجليزى



٤ — « متخيرى الثمار » لمارك جرتلر

القسم الانجليزى



القسم الأمريكي

٦ — « بائع يانكي متجول » لكاتون وودڤيل



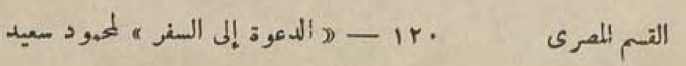
القسم الأمريكي

٤٧ — « أبي وأمي » لجون ستيوارت كاري



القسم المصرى

١٢٠ — « الدعوة إلى السفر » لمحمود سعيد





القسم المصرى

١٥٧ — « على باشا ابراهيم » لمختار

ويؤثر فى نفسنا من هذه الصورة قوة النظرة ودقة الألوان . ولمارك جرتلر لوحة سماها « متخيرى الثمار »(١) وهى لوحة غريبة فيها مزاج عجيب من مذهب المحدثين وذكريات من سذاجة القدماء . وفى الحق أن هذا المزاج فاتن . أمّا الذى يروع الزائر حقا فى القسم البريطانى فهى الكتب والنقوش والرسم . ولا شك أن قسم « المجلس البريطانى » للكتب المصورة قد بلغ غاية الجمال وانتهى إلى قيمة عالية جدا فنية . . . وغير فنية أيضاً! وهذه المعروضات تستحق من هذا المقال جزءاً أطول من الأسطر التى بقيت لنا . ونحن نعتذر إلى القراء المعجبين بالمطبوعات الثمينة من إيجاز هذه الملاحظات .

تكلمنا عن الأقسام التى عرضت علينا آثاراً قيمة جدا فى تاريخ الفن الحديث . أما الأقسام الأخرى فقد عرضت علينا مثلا للفن كما هو الآن فى بلادها . وقد لاحظنا فى القسم الصينى رسوماً دقيقة غريبة ، تملؤها قوة الإدراك للطبيعة الهادئة استوقفت عنايتنا فى القسم الأمريكى لوحة روبرت جواثمى Robert Gwathmey « آخر النهار » [٥٤] وهى تمتاز بتوازن أجزائها وتنوع الألوان الداكنة تضيئها ألوان أخرى زاهية .

أما القسم السوفيتى فهو يمتاز فى النقوش والرسوم وبوجه خاص رسوم قصة « همليت » و « دون جوان » Don Juan للورد بايرون وقد رسم الأولى ب. فافورسكى B. Favorsky والثانية إتشيئيستوف Etchéistov ولاحظنا فى الزخارف صندوقاً صغيراً من العظم د. م. سولوفتزوف M. Solovtzov وسكيناً ذا نصاب منقوش لنيجوديائيف Negodiaev .

ويظهر أن اليونان ما زالوا أوفياء للفن الذى برع فيه آباؤهم وهو النحت . ولهذا سنتكلم عن النحت اليونانى ونترك التصوير لأنه لم يجئ بشئ جديد بالنسبة إلى ما رأيناه فى الأقسام الأخرى . أما النحت اليونانى ففيه قوة ودقة ومهارة ، تجد القوة فى أكثر الآثار المعروضة ، وهذا طبيعى فى فن النحت . وتظهر الدقة بوجه خاص فى أثر أنطون سوخوس Antoine Sochos « أثينية » [٥٤] التى تذكر بآثار القدماء من اليونان فى زينة شعرها ومكر ابتسامتها . ويذكرنا بالنحت القديم العظيم أثر آخر هو « فتاة » لبلا رفتوبولو[٤٩] Bella Raftopoulo

(١) Mark Gertler, *Fruit Sorters* [4]

ويستحق هذا النحت إطالة النظر إليه. ويلاحظ الزائر أن هذه الفتاة تميل رأسها قليلا نحو الشمال، فتثير التفكير فى بعض الآثار القديمة التى تمثل الإسكندر.

ولنختم هذه الشهرية بملاحظات سريعة عن المعروضات المصرية،نبدؤها بالأسف الشديد لنشر الكتالوج المصرى باللغة العربية وحدها، وقد نشرت دول أخرى كثيرة كتالوجاتها وفيها قسم باللغة العربية وهذا حسن. فاذا أردنا من الأجانب الزائرين (وكلنا يعرف أن فى مصر الآن عدداً غير قليل منهم وأنهم أكثر زيارة للمعرض من المصريين مع الأسف أيضاً) أن يفهموا ويقوّموا جهدنا الفنى، فمن الواجب أن نجعل لهم سبيلا إلى هذا، فنبين لهم عن هذه المعروضات بلغة يفهمونها كما فعلوا بالنسبة إلينا.[1]

تنقسم المعروضات المصرية إلى ثلاثة أقسام: التصوير والنحت والصنائع الفنية. ونقول عن القسم الأخير إنه يبشر ببلوغ الإجادة فى الصناعة الفنية فى مدة نرجو أن تكون قصيرة. أما النحت المصرى، فهو ممثل بآثار فناننا الكبير المرحوم محمود مختار. والقارئ يعلم أن قيمة مختار قدرت فى باريس قبل أن تقدر فى القاهرة. أظن أن كل المصريين ومحبى مصر، شعروا بعاطفة لم تكن فنية فقط حين رأوا صورة المغفور له على باشا إبراهيم لمختار. إن هذا الأثر يمتاز من غيره بانسانيته، إنسانية الفنان و إنسانية العالم. وفى قسم التصوير المصرى آثار كثيرة، ولكن الجيدة قليلة. (ولسنا ندرى لماذا لم نر بين هذه المعروضات آثارا للأستاذ عبد الله حامد، ومن عسى أن يكون المسئول عن ذلك؟) وحسبى أن ألفت إلى لوحات محمود سعيد، أستاذنا الأكبر فى هذا الفن. يسر الزائر أن ينظر ثانية أو ثالثة أو أكثر إلى لوحات محمود سعيد وخاصة «الدعوة إلى السفر» [١٢٠] وفيها هذا الابتسام المصرى القديم كأنه الهلال المتلئ. وانظر أيضاً إلى لوحة أحمد صبرى، أشهر مصورينا للأشخاص: «توفيق الحكيم» [١] وفى يده كتاب . . . لعله «حمار الحكيم». وانظر أخيراً إلى لوحات هذا الملون العظيم، محمد ناجى، مصور الحبشة.

وما ينبغى لنا أن نختم هذه،

---

(١) علمنا فى آخر لحظة أن الصيغة الفرنسية للكتالوج المصرى ظهرت بعد افتتاح المعرض بأسبوع.



١٥٣ – رءوس ثلاثة رجال لبيكاسو

الشهرية الناقصة دون أن نهدى أجمل الشكر إلى جمعية محبي الفنون الجميلة ، وبنوع خاص إلى رئيسها صاحب السعادة محمد محمود بك خليل الذى وقف جهده العظيم ونشاطه الخصب على تشجيع الفن وتحبيبه إلى القلوب . فنحن مدينون للجمعية ورئيسها بهذا المعرض الرائع الذى ستتلوه من غير شك معارض أكثر روعة وجمالا .

أمينة طه حسين

شهرية السياسة الدولية

تميزت السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى بحادثين ، بل بحادث وحدث : حادث مؤتمر موسكو ، وحدث بيان ترومان ، وتميزت معها « السياسة المشرقية » بتضمن جدول أعمال مجلس جامعة الدول العربية الخطير من المسائل .

مؤتمر موسكو

ففى يوم الإثنين العاشر من شهر مارس اجتمع مؤتمر موسكو ، وهو مؤتمر وزراء الخارجية لدول الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية و بريتانيا العظمى وفرنسا ، للنظر فى مختلف الشؤون المتصلة بعقد معاهدتى الصلح مع النمسا وألمانيا ، بعد أن تم التوقيع بباريس فى العاشر من شهر فبراير على معاهدات الصلح مع توابع ألمانيا فى الحرب : إيتاليا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندا .

وكان المفروض أن مسألة الرور ومسألة السار ستكونان من مضاعفات العرض لتسوية الشؤون الألمانية ؛ لأن فرنسا تنادى بتدويل الرور حتى تحول دون استثمار ألمانيا مناجمها الغنية بالفحم والحديد فى سبيل صناعة الأسلحة وصناعة الحرب ، ولأنها تطالب بوضع منطقة السار تحت إدارتها كما كانت موضوعة إثر الحرب العالمية الأولى ، وهى مقتنعة أن عدول انجلترا عن استمرار الموقف من تلك المنطقة هو الذى أعان نفوذ هتلر على التمكين لنفسه فى الجماعة الجرمانية .

لكن أعمال مؤتمر موسكو لم تعرض لشئ من ذلك كله ، بل بدأت بعد إجراءات الترحيب وتبادل التحية والدعاء بالتوفيق بتذكير من جانب الاتحاد السوفيتى بمؤتمر موسكو السابق وباجتماع بوتسدام بعده ، وبأنهما يشيران إلى معالجة الوضع الديمقراطى للحكومة الصينية حتى تستقر فى الصين الأمور وتستتب الأحوال . ولم تستطع الدول الثلاث الأخرى أن تعارض الاقتراح السوفيتى ، و إن اكتنفه شئ

من المفاجأة ، لكن وزير خارجية الولايات المتحدة قد استمهل أربعاً وعشرين ساعة قبل أن يدلى برأيه النهائى فيه، وإن كان قد لوح باشتراطه حضور الصين أثناء عرض حالها . ثم رد من ناحيته بمفاجأة أخرى هى مطالبته الدول المحتلة لألمانيا والنمسا، وهى الدول الأربع العظمى جميعاً ، بتقديم بيان عن قوات احتلالها لا فى هاتين الدولتين فحسب بل فى سائر الدول التى حاربت الحلفاء فى أوربا . فرد له الرفيق مولوتوف صاعه بالاستمهال أربعاً وعشرين ساعة كذلك قبل أن يدلى برأيه النهائى فى الطلب الأمريكى .

وكان وزير الخارجية السوفيتية قد عارض فى حضور الصين أثناء مناقشة أمرها ، لكن الحكومة الصينية قد أعلنت احتجاجها على هذه المناقشة إذا هى لم تحضرها ، وأبلغت الاحتجاج إلى وزيرى خارجيتى الدولتين الأنجلوسكسونيتين بوساطة سفارتها فى موسكو . وقامت بذلك أولى المضاعفات التى واجهت المؤتمر . لكن لم يعدم المجتمعون وسيلة للتغلب عليها ؛ فقد قرروا المناقشة تنفيذاً لقرارى موسكو وبوتسدام السابقين ، كما قرروا أن تجرى المناقشة عن طريق تبادل المذكرات . وإذن فلن يجرى العرض للشؤون الصينية فى جلسات ، وإذن فلا ضرورة لحضور الصين بالذات .

على أن مضاعفة ثانية قد قامت قبل أن يجئ دور مناقشة الاقتراح الأمريكى الخاص بعدد القوات المحتلة للبلاد العدوة ؛ فقد هاجم الاتحاد السوفيتى الولايات المتحدة وبريتانيا العظمى إذ اتهمهما بممالأة النازيين فى منطقتى احتلالها ، وإذ اتهمهما أيضاً بابقاء آلاف النازيين فى التشكنات الحربية على قدم الاستعداد كأنهما تريدان أن تأتيا بهم حدثاً . فاستغل وزير الخارجية البريتانية هذا الاتهام وأشار إلى عدد الأسرى الألمانيين فى مختلف أراضى الدول العظمى ، وطالب بالادلاء بأرقام هذا العدد عند كل من روسيا وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة . فلاح أن العدد الأكبر فى ذاته لايزال فى روسيا ، دون اعتبار إلى نسبة القوات الألمانية التى كانت مشتركة فى مختلف الميادين .

وبينما يسود جو مؤتمر موسكو ذلك الاكفهرار الناشئ من تلك المضاعفات إذا بأمر يتم عليه الاتفاق فى اجتماع ودون مناقشة ، وهو شطب بروسيا من الوجود الجغرافى . فقد قرر المؤتمرون توزيع المقاطعات البروسية الباقية داخل

الحدود الألمانية على ما يجاورها من الوحدات بحيث لا تبعث إلى عالم الوجود تلك الدولة التى سببت الحروب الثلاثة الأخيرة فى سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩١٤ وسنة ١٩٣٩ . بل تلك الدولة التى عملت على تكتيل ألمانيا العظمى وفرض تعاليمها القاسية عليها وعلى العالم جميعاً .

بيان ترومان

ولم يكد ينقضى على انعقاد مؤتمر موسكو ثمان وأربعون ساعة حتى فاجأه الرئيس ترومان وفاجأ العالم كله معه بخطاب ألقاه فى اجتماع عقده مجلسا الكونجرس الأمريكى وحضره جميع شيوخ الولايات المتحدة ونوابها ، وقد طلب فيه « الموافقة على عقد قرض بمبلغ أربع مئة مليون من الدولارات لمساعدة اليونان وتركيا » ، كما طلب تخويله سلطة إرسال رجال من المدنيين والعسكريين الأمريكيين إلى هاتين الدولتين يعاونون فيهما « على أعمال التجديد والانشاء » ، ويشرفون على طريقة استخدام المساعدة المالية التى يحصلان عليها .

وقد برر الرئيس ترومان مطالبه بانذاره أن « العالم يواجه اليوم حالة دقيقة تشمل السياسة الخارجية والطمأنينة الوطنية » . وذكر أن اليونان وتركيا ينبغى أن تظفرا بالمساعدة لكى تستطيعا المحافظة على استقلالها وسلامة أراضيهما . ولم يخف الهدف الذى يسدد له سهامه إذ أشار بعد ذلك إلى « أنه يدرك تماماً مدى ما سيعقب هذه المساعدة الأميريكية لليونان وتركيا من نتائج مضادة لروسيا » . وأضاف أن « حالة الفوضى والارتباك ستسود جميع أقطار الشرق الأوسط إذا وقعت اليونان تحت سيطرة الأقلية المسلحة » .

وقد أثار خطاب الرئيس ترومان اهتمام العالم كله وقلقه ؛ فقد أجمعت الاتجاهات المتباينة على أنه تهديد صارخ لروسيا ، وأنه إقدام جرئ على تهيئة أسباب حرب عالمية ثالثة . وهو على الأقل فرض للحصار على الكتلة السلافية ولا سيما إذا هو قدر توسيع دائرة المساعدات بحيث تشمل إيتاليا والمجر غرباً ، والصين وكوريا شرقاً ، وسوريا ولبنان والعراق وإيران جنوباً .

على أن التعقيب على هذا الحدث العالمى قد اختلف باختلاف البيئات

السياسية والاقتصادية والاجتماعيـــة . أما جماعة الرأسماليين الأميريكيـة وجماعة المحافظين الانجليز فقد رحبوا به الترحيب كله . وقد رأى الأولون أنه يفتح الأبواب لرءوس أموالهم تستثمر فى تلك المناطق التى كانت روسيا قد أخذت تنافسهم فيها بعرضها سلعها ، ولا سيما بنزولها ، بأسعار تنقص عن الأسعار الأميريكية نقصاً عظيما . وقد رأى الآخرون أن فيـه إنقـاذاً لإمبراطوريتهم من التفكك ، وهم يؤثرون بطبيعة الحال أن يستولى عليها « أشقاؤهم أو أبناء عمومتهم » الأنجلوسكسونيون ما داموا هم قد فقدوا وسائل الاحتفاظ بها والتسلط عليهـا وقد نال منهم الضعف والافلاس .

أما أحرار العالم فقد وجدوا فى خطاب الرئيس الأميريكى أقوى ضربة موجهة إلى أمانى البشرية فى سـبيل الهناءة والسلامة ، كما وجدوا فيه معولا ينقض به الأنجلوسكسونيون على بناء الأمم المتحدة الذى لم يتكامل بعد .

وأما الاشتراكيون والشيوعيون فقد رأوا فيه رمياً من الأميريكيين إلى استعمار العالم . وقد وصفته اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى البريتانى على حد ما أذاعته برقية لرويتر بأنه « تحـد للقوى الديموقراطية فى العالم قد يؤدى — ما لم يحارب ويقضى عليه — إلى التدخل فى كافة الدول من أجل الأهداف الأميريكية التى ترمى إلى استعمار العالم » .

وأما روسيا المقصودة بذلك الخطاب بالذات فقد تلقته فى صمت دام يومين ثم انهالت صحيفتها « أزفستيا » عليه بأقسى عبارات النقد والوعيد . والمنتظر أن يعرب المارشال ستالين عن رأى الاتحاد السوفيتى عند ما يقابله وزير الخارجية الأميريكية لمناسبة وجوده فى مؤتمر موسكو .

وأما أهل الذكر فى مصر فينصحون بالوقوف موقف الحيدة من الكتلتين المتبارزتين حتى لا تصيبنا بالمجـان ويلات الانضمام إلى ناحية إذ تعتبره الناحية الأخرى عداء لها ومخاصمة .

مجلس الجامعة العربية

وتشخص الأنظار فى بلاد المشرق كله إلى مجلس جامعة الدول العربيـة المنعقد فى القاهرة منذ اليوم السابع عشر من شهر مارس ، وقد حشد جدول أعماله بمشاكل تلك البلاد جميعاً . وقد يتوقف على مواقف المجلس ومندوبى

الدول الممثلة فيه مصير جامعة الدول العربية ذاتها .

فستعرض على المجتمعين مسألة إحالة القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة ، وقد كان هذا الاتجاه هو الذى بدا فى دورة بلودان على أن تتقدم الدول العربية شاكية انجلترا صاحبة الانتداب ، فلاحقتها انجلترا حتى سبقتها غير مشكوة بل شاكية من التبعات الملقاة عليها .

وسيعالج المجلس مسألة الخلاف الطارئ بين المملكة الأردنية والجمهورية السورية ، وهو الخلاف الذى تجسم فى إغلاق الحكومة الأردنية قنصليتها فى دمشق . وهو يرجع فى ظاهره إلى ما تعتبره حكومة عمان إهمالا من جانب الحكومة السورية فى منع الحملات التى يقوم بها نفر من الأردنيين القاطنين دمشق موجهة ضد السلطات والأنظمة فى عمان ، ويرجع فى باطنه إلى مشروع سوريا الكبرى الذى يدعو إليه الملك عبدالله ويقاومه السوريون أشد المقاومة .

وسيعرض المجلس بخاصة للنزاع المصرى البريتانى ، و إلى الوساطة التى بذلتها سوريا وبذلتها لبنان،والتى يقال إن العربية السعودية قد بذلتها هى الأخرى ، إلى جانب تصريحات أدلى بها رئيس الوزارة العراقية ، ولم يلق شئ من ذلك كله ترحيباً من مصر بل لقى النقد واللوم والمؤاخذة . بل إن فى الجو المصرى لقلقاً يرجع إلى خشية المصريين ألا تكون تلك الوساطة صادرة من تلقاء تلك الدول العربية ذاتها، بل أن تكون حكوماتهامدفوعة من قبل « الغير » إليها دفعاً . وقد يكون من أثر ذلك القلق البادى إذا ثبتت أسبابه وتحققت دوافعه أن ترى مصر الانسحاب من الجامعة العربية ، وفى انسحاب مصر منها قضاء عليها فهى التى تضفى عليها شيئاً من المهابة .

محمود عزمى

شهرية المسرح

لن تقع حرب طروادة تأليف چان چيرودو [1]

تدور هذه المسرحية على مقدمات حرب طروادة التى خلدها أعظم شعراء الملاحم هوميروس فى الياذته منذ نحو ثلاثين قرناً .

وقصة حرب طروادة هى قصة كل حرب على الرغم مما نسجته الأساطير وأبدعه الخيال فى حكاية أسبابها وملابساتها . فما يعدو منشؤها قيام دولة قوية الشوكة عزيزة الجانب واسعة السلطان بأزاء يونان على الشاطئ الآسيوى المقابل من بحر إيجه ، وقوع عاصمتها طروادة على مدخل الدردنيل بحيث تسيطر على طرق التجارة بين بلاد بحر إيجه وبلاد البحر الأسود .

ولقد كتب المؤلف العصرى جان جيرودو مسرحيته عام ١٩٣٥ فى إبان تلك الوعكة النفسية المتخلفة من عقابيل الحرب العالمية الأولى وحالة التوتر العصبى المؤذنة بنشوب الحرب العالمية الثانية . فجاءت قصته عن طروادة بمناظرها وملابسها وأسماء أبطالها من قصص العصر القديم ، ولكنها بموضوعها وفحواها وأفكارها قصة العصور كلها . وهو يصور لنا فيها ما تضطرب به هذه الفترات من الصراع بين أنصار السلم الذين يغضون على القذى من أجله و يروضون أنفسهم على احتمال كل مكروه فى سبيله ، وبين دعاة الحرب الذين يحرضون على إضرام نارها وخوض غمارها ، ولو توسلوا إلى ذلك بالتهويل و إشاعة الأباطيل .

ولقد شاءت عبقرية جيرودو أن يكون داعية السلم فى تلك الفترة قائداً قديما من مساعير الحرب ، هكتور ، بطل طروادة الأكبر وقد عاد إلى المدينة منتصراً بعد حرب ضروس دامية . لقد كره هكتور الحرب كما يكره المرء صديقاً له ظهر مينه وافتضح زغله وغشه .

على أن هكتور لا يكاد يعود إلى أسوار طروادة بجنده الظافرين المتعبين حتى يجد المدينة فى هرج ولغط . لقد اختطف أخوه الأصغر باريس زوجة

(١) Jean Giraudoux, *La Guerre de Troie n'aura pas lieu*

منلاس ملك أسبرطة ، هيلين الحسناء الإغريقية ، آية الجمال وصورة الكمال، وأنزلها فى قصر أبيه الملك الشيخ بريام. فاذا أهل طروادة بها معجبون ، شبابهم وشيوخهم أجمعون ، قد راعهم ما رأوا من كمال جمالها ، فعلقت قلوبهم بها وانطوت نفوسهم على حبها ، وبلغ إعجابهم حد العبادة وهيامهم حد الجنون . وترامت إلى طروادة الأنباء بأن الإغريق ثائرون لكرامتهم التى امتهنت ، وحرماتهم التى انتهكت ، وأنهم يتذاكرون فى أخذ الثأر ويفكرون فى حملة تأديبية لمقابلة الشر بالشر . فلا حديث فى طروادة إلا عن الحرب المنتظرة ولم تكد جيوش طروادة تستقر فى أسوارها وتستجم من مشاق الحرب السابقة وويلاتها ، ولما تجف الدموع فى عيون الطرواديات على من ثكلن فيها من إخوه وولد . ويتفق حديث الحرب هذا فى أبهى أيام الربيع والمدينة مخضرة الجناب ، مزدهرة الوهاد والنجاد ، تسبح فى غمرة من الضياء والبهاء توحى بحياة الدعة والقناعة واجتلاء الجمال والتملى بالسعادة ، كما عبرت عن ذلك أندروماك زوجة هكتور أبلغ التعبير فى قولها لأختها كاساندر المتكهنة :

أندروماك : « عجباً يا كاساندر ! لا أدرى وايم الحق كيف تستطيعين الكلام عن الحرب فى يوم كهذا . إن السعادة تتنزل فيه على الدنيا ! ».

كاساندر : « مثل نزول الثلج تماماً » .

أندروماك : « السعادة والجمال أيضاً . أنظرى إلى هذه الشمس . إن فى أكناف طروادة منها أطباقاً من اللؤلؤ لا يجتمع مثلها فى قاع البحار . ولو قدر للناس أن يهتدوا يوماً من الأيام إلى طريق الحياة فى سلام ، فهذا هو اليوم » .

وفى هذا اليوم ، وتحت تأثير الظروف الملابسة ولا سيما إذا أدخلنا فى الحساب تقدم هكتور فى العمر وعلو سنه ، ووضعنا فى الميزان الجنين الذى تؤذن بوضعه امرأته — تقول فى هذا اليوم وتحت تأثير هذه الملابسات أظهر هكتور العزيمة الصادقة التى لا متزحزح عنها ولا متحول على إغلاق أبواب الحرب .

وليس لدينا فى صفة هذا التنكر للحرب أبلغ من قوله فى مناجاة له مع امرأته : « لقد كنت فيما مضى أتمثل فى الذين أصمد إلى قتلهم أضداداً على النقيض منى ، أما فى المرة الأخيرة فكنت كأنى عاكف على مرآة . كان الموت الذى أنا قادم على إنزاله

بالشخص الماثل بين يدى يبدو لى كأنه ضرب من الانتحار أنا قادم عليه » .

وهكذا بلغت كراهة هكتور للحرب ونفوره منها وتفتح ذهنه إلى أنها مسبة للإنسانية وكفران بنعمة الحياة .

وكان على هكتور لكى يقر السلام أن يزيل علة الخصام بين قومه الطرواديين وبين الإغريق الناقمين لاختطاف الشاب الأمير الطروادى لزوجة الأمير الأسبارطى .

فصرف هكتور إلى الأمر همته ، واستفرغ وسعه واستنفد طاقته ، حتى غلبت إرادته على إرادة باريس أخيه، وعلى إرادة أبيه ، وعلى الكثرة الساحقة من شيوخ طروادة المعجبين بروعة جمال هيلين ، ونزلت هيلين نفسها على إرادته ، وارتضت العودة إلى يونان مع رسول اليونانيين .

وهنا نتنفس الصعداء مستبشرين . لقد بطلت أسباب العداوة ، فلا جرم إذا قلنا مع القائل : « لن تقع حرب طروادة » .

ولكن حرب طروادة — على الرغم من ذلك جميعه — قد وقعت . أجل ! وقعت ودامت — كما روى لنا المؤرخ الأسبق — عشر سنوات ، واشترك فيها مع اليونان أحلاف اليونان ، يناصبهم مع الطرواديين أقوام من سائر الألوان .

فأية إرادة دفعتهم إلى الحرب إذن ؟

أية إرادة تدفع الأمم أجمعين إلى مجازر الحرب طوال هذه السنين منذ القدم إلى هذا الزمن الذى نحن فيه ؟

لقد جعل جيرودو هذه الإرادة فوق المؤامرات الحزبية ، وفوق الحكمة السياسية ، وفوق النظريات المثالية ، وفوق مشيئة البشر كافة . إنها المرض المستكن ، إنها الغريزة العمياء ، مرض الحرب وغريزة الحرب . وإن شئت العبارة عنها بكلمة جامعة من لغة المأساة الفاجعة فهى « القدر » . هى إرادة القدر .

ولقد كان هكتور بطل الحرب الداعى إلى حقن الدماء يحس فى إبان دعوته إلى السلم وتصميمه عليه بتلك الإرادة الخفية العليا القاضية بالحرب :

« لو أن الأمهات جميعهن بترن الأصبع السبابة اليمنى من أكف أبنائهن لرأيت جيوش العالمين تقاتل من غير الأصبع السبابة . . . ولو أنهن بترن أرجلهم اليمنى ، لسعت الجيوش بعضها إلى بعض كلٌّ على رجل واحدة ... ولو أنهن فقأن عيونهم فصاروا عمياناً ، لما عدمت الدنيا جيوشاً ، ولرأيتهم يخبطون

خبط العشواء فى حومة الوغى يتحسس بعضهم مقاتل بعض » .

ومع إحساس هكتور بقوة القدر التى يصطدم بها فانه لم يضعف . واستقبل رسل اليونان وعلى رأسهم عوليس أمير إيتاك الداهية . وسكت القائد العظيم على الوعيد ، وصبر على الإهانة حتى الصفع ، وهانت عليه فى سبيل السلام سابقة أمجاده وسمعته بين قومه وكرامة شخصه وعزة نفسه .

وفى اللحظة التى تهيأ فيها عوليس للعودة إلى مركبه ومعه هيلين ؛ فى هذه اللحظة التى ستنتهى بها القصة نهاية سعيدة موفقة ، شاء القدر أن تقع الواقعة ، فاندفع إياس فى سكره وضم بيديه الغليظتين إلى صدره فى عربدة ماجنة أندروماك زوجة هكتور . وهنا رفع هكتور حربته . وإنه لا شك قاتل بها إياس ، ولتقع من بعدها حرب طروادة .

هذا هو المنتظر ، وفيه ولا ريب تصوير رائع لقدرة القدر . ولكن المؤلف لا يقنع بذلك ، إنه يريد أكثر من ذلك .

فقد ترك إياس يهرب . فانطلق لسان الشاعر المتحمس الشيخ ديموكوس يذيع ما وقع من عار ، ويستنفر إلى درك الثار . فيهوى هكتور إليه بحربته المرفوعة ، فيهوى الشاعر إلى الأراض صارخاً . فاذا بادر أهل طروادة إليه يستطلعونه ، ألقى إليهم الكذبة التى جرت وراءها النكبة : ألقى إليهم وهو يجود بنفسه أن القاتل إياس اليونانى ، فيلحق منهم بإياس من يقتلونه ، وتقع حرب طروادة .

وبذلك يبلغ جيرودو ما أراده من تصوير القدر فى أفظع صوره ، وهى صورة القادر الساخر .

فالرواية كما رأينا تعد بحق « أنشودة اليأس » على نحو ما وصفها بيير بريسون ، ولكنه مع ذلك يأس الشجاع لا تأنف منه الرجولة ولا تعافه النفس . ثم هى كسائر مؤلفات جيرودو قوية البيان ، أنيقة الوشى ، بارعة العبارات ، طريفة الأخيلة ، غنية بالأفكار وبدائع المعانى وبالتحليل النفسى وبخاصة للنساء ، مطبوعة بذلك الطابع الرائع من السحر الرهيب الجاد .

ولقد اضطلعت الفرقة الفرنسية التى تحيى الموسم التمثيلى الأجنبى بدار الأوبرا الملكية بتمثيل هذه المعانى الدقيقة والأفكار الرفيعة ، وتصوير هذا الفن الطريف البديع المبتكر للجمهور . وهى ولا وشك مهمة شاقة . ولكن الفرقة وفقت مع ذلك للاستيلاء على

مشاعر الكثرة من المتفرجين ، أما القلة التى لا تهتز للمعانى المجردة والمناظرات العالية فليس لهذه الفرقة ولا لغيرها من سبيل إلى إرضائها .

وقد اقتسم الأدوار النسوية فيما بينهم الأوانس والسيدات : ميشيل ألفا فى دور أندروماك الزوجة الفاضلة وقور الهيئة رصينة اللهجة ، وأليس سابرتش فى دور كاساندر المتكهنة بملامحها الحادة وجيدها المترفع ووقفتها المتصلبة القاسية ، وجيزيل كاسادسى فى دور هيلين فى جمالها وسذاجة إحساسها واكتفائها بنفسها وقلة احتفالها بما حولها ، ومارى لويز جودار فى دور هيكوبا زوجة الشيخ بريام ملك طروادة فى حنكتها وخبرتها بطبائع النساء والرجال وصراحتها فى تسمية الأشياء بأسمائها وعرضها على حقيقتها . وأما شخصيات الرجال فقد كان أجذبهم للأنظار الفتى (جاك فرانسو) العارى البدن حتى حقويه فى جمال محاسره واعتدال قوامه وحركة الدلال فى مشيته وامتزاج التهور والانطباع فى لهجته ، وبريام (جان فرنبيه) فى وقار شيخوخته وامتزاج البساطة والأبهة فى هندامه ، وديموكوس الشاعر الشيخ (جان بول مولينو) والمهندس (جان جاك ستين) ، وترويليس (أنطوان فليرى) ، وعوليس (لوسيان باسكال) ، وفى وسط هؤلاء جميعاً وفى وسط الرواية كلها هكتور (جان مارشا) يدير الحركة من حوله فى يسر واقتدار .

ولقد صادف الاحتفال بتمثيل هذه الرواية الذكرى الثالثة لوفاة مؤلفها العظيم . ولعل الأكثرين كانوا يحسون وهم يصفقون للرواية أنهم يرسلون من الأرض المصرية تحية الصداقة والإعجاب خالصة زكية إلى ذلك الأديب المجاهد الراقد فى باريس رقدته الأبدية .

حمار بوريدان تأليف روبير دى فلير و ج . ا . كيافيه [1]

هذه طرفة مستملحة لطيفة من نوع المسرحية الباريسية الخفيفة . ولقد حرص المؤلفان فيها قبل كل شئ على ابتسامة المتفرجين ، على ضحكهم ، على ضجتهم بالضحك العالى ، على قهقهتهم الصاخبة ، فى فترات متعاقبة متقاربة .

فالرواية — مع اشتمالها على الكثير

(١) Robert de Flers et G.A. Caillavet, *L'âne de Buridan*

من صدق الملاحظة وعمق التحليل — قائمة على روح الفكاهة ، روح الفكاهة فيما يدور من حديث ، وفيما يلفق من مواقف ، وفيما يعرض من شخصيات .

فهذا بطل القصة جورج بولان له عشيقات ثلاث . ولا غرو ، فهو شاب وسيم الطلعة أنيق الهندام ميسور الحال ، ثم هو إلى ذلك جميعه وفوق ذلك جميعه ، قد رزق الموهبة التى لا تضارع فى اجتذاب النساء ، إذ كان محدود الأفق قليل الذكاء .

واتفق أن استأذن خادمه فى الغيبة بضعة أيام ، وأقام قريباً له فى موضعه ، فأخطأ لجهله وقرب عهده بخدمة السيد فى تبليغ مواعيده الغرامية ، فاذا العشيقات الثلاث يوافينه فى الدار فى يوم واحد ، وساعة واحدة .

فلم يجد له مخلصاً إلا الهرب وترك لهن التصرف وتسوية حسابهن بعضهن مع بعض .

وقدم جورج على صديقه لوسيان دى فرسان فى بلدة بعيدة عن باريس ، وكانت للصديق زوجة جميلة أوديت ، وخليلة ظريفة فرناند شانتال ، وفتاة يتيمة مشبوبة العاطفة يكفلها وهى ميشلين ابنة صاحب له كان من الرسامين .

فاذا هذا الهارب من العشيقات الثلاث يشتبك فى هوى أولئك الغوانى الثلاث .

ويتبين من تطورات القصة ومجرى وقائعها أن صاحبنا مخلص فى حبه للنساء ، ولكنه من ذوى الطبائع المترددة الحائرة لا يقطع برأى ولا يأخذ بعزم فى إيثار امرأة على أخرى ، ولا فى إيثار لفيفة تبغ من صنف على لفيفة من صنف آخر .

ومن ثمة تسمية الرواية بحمار بوريدان الذى أثر أنه انقطع عنه الماء والعلف مدة ، ثم جاءوه بالاثنين معاً ، فوقف حمار بوريدان موقف الحيران ، لا يدرى بأيهما يبدأ وهو الجوعان العطشان . وما زال المسكين فى حيرته حتى نفق وأدركته المنية فى وقفته .

على أن جورج كان أسعد فى الختام من حمار بوريدان . والفضل فى ذلك راجع إلى صاحبه لوسيان دى فرسان الذى أعان على زواجه بالفتاة ميشلين ، فأفاد من ذلك الزواج أن حفظ على نفسه زوجته وعشيقته ، كما أقام بذلك الزواج صرح السعادة لصديقه المتخبط فى حيرته وللفتاة المحبة المشمولة بعطفه وكفالته .

وكان جان مارشا فى دور جورج متفزاً بالحياة فى مرحه ، خفيف الظل

فى مجانته ، مضحكا فى ربكته ، مؤثراً فى حيرته . وكان باسكال فى دور الصديق مثال الرجل السياسى فى رصانتـه وكياسته فى أدق المواقف وأعقدها . كما أجادت جيزيل كاسادسى تمثيل الفتاة ميشلين المحبة الغضوب ، العنيدة العروب . ولا حاجة إلى ذكر إجادات ماريون دلبو فى تمثيل المرأة الماجنة ؛ فقد أقامت على ذلك الدليل أكثر من مرة .

عبد الرحمن صدقى

شهرية السينما

حد الموسى (شركة فوكس للقرن العشرين) [1]

هذا الفيلم يصور لنا قصة « حد الموسى » التى كتبها سمرست موم فى سنة ١٩٤٤ وعهد بها إلى دافيد زانوك لينتجها . وقد عجز كثير من واضعى السيناريو عن اقتباس تلك القصة للسينما ، وزعم معظمهم أنها لا تصلح لأن تكون موضوع فيلم لأنه من العسير تصوير حياة شاب متصوف يبحث عن معنى الحياة . وأخيراً تقدم الكاتب السينمائى لامار تروتى وهو أحد المعجبين بسمرست موم ، وأخذ على عاتقه وضع سيناريو لتلك القصة ووضعه فعلا فى حين أخذ ادموند جولدنج المخرج يحشد العناصر اللائقة لتمثيل شخصيات القصة ، وإعداد مناظرها .

لنفهم معنى عنوان القصة يجب أن نرجع إلى تلك الحكمة التى صدر بها سمرست موم كتابه وهى : « من العسير أن يسير الإنسان على حد الموسى . كذلك قال الحكيم إن الطريق إلى الخلاص شاقة . » فالكاتب إذن يبحث فى روايته عن حل بعض المشاكل الإنسانية ، وهى المشاكل التى تعرض لبطل القصة لارى داريل والتى نجدها فى حديث يدور بينه وبين خطيبته إيزابيل . كانت إيزابيل تحث لارى على العمل . ولكنه أبى أن يقوم بعمل ما لأن ذلك يحول بينه وبين تأملاته ؛ فهو يريد أن ينصرف إلى التفكير العميق ، وأن يجوب الأقطار ليتعرف كنه الحياة ، ومعناها ، إن كان لها معنى ، وليتعرف أهى سلسلة من أخطاء القدر الأعمى . أدركت إيزابيل أن ليس لها محل فى حياة لارى حتى يعود إليه صفاء النفس ، وهدوء البال ، فأذنت له أن يرحل . سافر إلى باريس وأقام فيها مدة، ثم لحقت به خطيبته فوجدته على تلك الحال التى تركته فيها . فرفضت الزواج منه ، لا لأنها كفت عن الولع به بل لأن دخله ضئيل ولا يريد أن يزيده بالكد والعمل .

ثم سافر لارى إلى الهند بعد أن مارس

---

(1) The Razor's Edge (*Twentieth Century Fox*)

بعض المهن المضنية ،وهناك عاش فى دير من الأديرة الصوفية وتفرغ لتأملاته بين أحضان الطبيعة . لم يدرك هناك كل ما كان يبحث عنه وإنما استطاع أن يجد راحة النفس فى عمل الخير وطيبة القلب والعطف على الغير .

وأخيراً عاد إلى باريس حيث قابل إيزابيل التى كانت قد تزوجت من ثرى خانه الحظ فافتقر بعد الزواج . كانت لا تزال تكلف بلارى وتهيم به هياماً شديداً . فاعتقدت أن فى استطاعتها أن تستأثر به الآن . غير أن حبها الأعمى يفقدها معشوقها إلى الأبد . كانت لايزابيل صديقة فقيرة ومن ثم كانت وديعة الأخلاق رقيقة الشعور . وقد تزوجت تلك الفتاة، وكانت تدعى صوفى، عن حب وأنجبت طفلا . غير أن القدر شاء أن يموت الزوج والطفل فى حادث أليم ، وأن تمتحن الزوجة بداء الخمر . واستسلمت لدائها هذا حتى نبذها أهلها فسقطت شر سقطة وأخذت تختلف إلى منازل الدعارة . صادفها لارى وايزابيل فى أماكن اللهو فى مونمارتر ، فجالستهما ففكر لارى أن ينقذها من تلك البيئة ، ونجح فعلا فى أن يمنعها من الخمر ، وأخيراً قرر أن يتزوج منها ، وأسر إلى إيزابيل بمشروعه ؛ ولكن الغيرة تدفع تلك المرأة إلى أن تعرقل هذا المشروع فتأتى بصوفى إلى منزلها وتتركها فى الغرفة مع زجاجة الخمر ، ومن البديهى أن صوفى لم تقاوم إغراء الكأس فتستسلم لدائها وتفر هاربة .

كان هذا الحادث هو سبب القطيعة بين لارى وإيزابيل التى كافحت لكى تحتفظ بلارى ما وسعها الكفاح . وينصرف الشاب عنها ويعود إلى أمريكا لينقطع لحياة أمل وجهاد .

والشاهد يخرج من عرض هذه القصة وقد أضناه التعب من طول الفيلم وكثرة مناظره وطولها الذى لا مسوغ له مطلقاً . وأرى أن مثل رواية «حد الموسى» وهى تعرض آراء فلسفية ، سواء أكانت قيمة أم غير قيمة ، لا تصلح للسينما مطلقاً . فهى تتطلب لا براز آراء مؤلفها حواراً طويلا بين الشخصيات فى حين أن السينما للآن لم تسجل إلا حوادث ومناظر . وقد يكون المسرح أكثر ملاءمة لمثل هذا الحوار إن فرضنا أننا نستطيع تحويل المسرحيات إلى جدل فلسفى . ولم تبد آراء لارى ولا المشكلات التى أشقته طوال الجزء الأول من الفيلم واضحة جلية ، فقد شابها بعض الغموض لعجز المخرج عن الابانة عنها فى تصويره للقصة . وقد يكون الكاتب مسئولا

عن هذا الغموض أيضاً . لقد خيّل لنا أنه باحث عن كنه الحياة ومعناها ثم يعرض عن هذا البحث وينهى القصة بحثنا على حب الغير وطيبة القلب . أيظن أنه أتى بجديد فى قصته وقدجاءت المسيحية بكل هذا منذ ألفى سنة ؟

وقد اختير الممثل تيرون باور ليقوم بدور لارى ، ذلك الشاب الذى أقلقته مشكلة الحياة فارتمى فى أحضان الصوفية وصار يبشر بحب الغير . وقد يكون تيرون باور ممثلا فى رأى الأمريكيين مادام جميل الطلعة وسيمها أنيق الملبس . غير أنى لاأدرى لم أسند إليه هذا الدور وهو بعيد كل البعد عن تلك الشخصية التى حاول أن يخرجها لنا . كفاه أن يمثل دور لاعب الرجبى والبيز بول أو العشاق البلهاء . أما جين تيرنى التى قامت بدور عشيقته إيزابيل فقد كانت وسطاً بين الإخفاق والنجاح . كان لها فى بعض المواقف تعبيرات بغيضة إلا أنها نجحت فى إظهار تلك الرغبة البهيمية التى كانت تدفعها نحو لارى . ولا أرى بين الممثلين الثانويين فى الفيلم من يستحق الذكر إلا آن باكستر وقد قامت بدور صوفى ، فبدت فى أول الفيلم فتاة هادئة ، وديعة خجولا ، واحتفظت بهذا الهدوء وتلك الوداعة حتى حين أصبحت امرأة ساقطة تعمل فى أماكن اللهو فى مونمارتر ، فأثبتت قدرتها على التمثيل المتقن والتعبير الصادق ؛ واضطلع كلفتون وب بدور خال إيزابيل ، فوفق فى إظهار تلك الشخصية بما لها من مميزات ومعالم . نجح فى تصوير الرجل الأنيق المتحذلق ذى العادات الراقية والذوق المترف والذى يحرص على أن تكون له صلات بأرفع الشخصيات ، غير أنه قد غالى فى منظر الوفاة بعض الشىء فى صياحه وبكائه .

لكل نصيبه (فيلم برامونت)[1]

تقع حوادث هذا الفيلم أثناء الحرب العالمية الأولى فى بلدة أمريكية هادئة حيث كانت تعيش جودى مع أبيها الأرمل . تقابلت ذات يوم مع طيار ، فأحبته وأحبها من أول وهلة ، نقضيا معاً ساعات قلائل ، ثم لم تجمع بينهما الأقدار لأن الطيار رحل عن البلدة فى اليوم نفسه ولم يعد إليها إذ لقى حتفه فى الأعمال الحربية . وقد كان كلف جودى بالشاب شديدا إلى حد

(١) To Each his Own (*Paramount Picture*)

أنها ما كادت تقابله حتى أسلمت نفسها له ، فأنجبت منه طفلا . وقد حاولت جودى أن تنقذ سمعتها وسمعة أبيها ، فذهبت إلى المدينة عند الوضع وكلفت إحدى ممرضات مستشفى الولادة أن تحضر الطفل إلى البلدة لتتركه على قارعة الطريق . وكانت تأمل أن تأخذه إلى دارها عندما يجده سكان البلدة . ولكن مشروعها لم ينجح لأنها اضطرت أن تتركه لصديقة لها كانت قد فقدت ابنها منذ عهد قريب . رضيت جودى بهذه الحال وخاصة أن وجود ابنها عند تلك الصديقة يسمح لها أن تراه وترعاه وتداعبه متى شاءت وكيف شاءت . استمرت الحال كذلك حتى فقدت جودى والدها ، ففكرت فى النزوح إلى المدينة ومعها طفلها، فذهبت تطالب بالطفل ، لكن صديقتها أبت أن تنفصل عنه وقد شغف بها معتقداً أنها أمه . رحلت جودى منكسرة النفس ولكن غير يائسة من استرداد طفلها . لا بد لها أن تكافح ما وسعها الكفاح ، ولابد أن تضحى مااستطاعت التضحية حتى يتحقق أملها وتنعم بالحياة مع ابنها. تواصل جودى حياة الكفاح والتضحية حتى تصبح من الأثرياء . وأخيراً تشاء الأقدار أن تنعم بولدها بعض الوقت إذ لم يطب للطفل أن يعيش معها وهو لم يألفها فينفر منها ويبتعد عنها ، وتشعر هى أنه فى شقاء متصل لابتعاده عن المرأة التى ألفها واعتقد أنها أمه . وأمام هذه الحقيقة المريرة تترك جودى الولايات المتحدة وتذهب إلى لندن حيث تعيش حتى الحرب العالمية الثانية . وفى ذات يوم تعلم أن ابنها قادم لتمضية إجازته فى العاصمة الانجليزية فتأمل أن يقبل دعوتها لتمضية أسبوع فى منزلها . غير أنها تجده مشغولا عنها بخطيبته فلم تسمح لها الظروف أن يضمها وإياه منزل واحد . ثم تعلم أنه يريد الزواج من خطيبته ، ولكن التقاليد العسكرية تحول دون هذا الزواج ، فتذلل له العقبات وتنظم له حفلة قرانه . وأخيراً لايسع الفتى ، وقد عرف حقيقة شخصيتها ، إلا أن يفوه لها بكلمة طالما انتظرتها منه وهى : أماه !

والقصة كما نرى تبتدئ فى ظروف عجيبة لعل المنطق الأمريكى يستسيغها، إلا أن منطقنا لا يقبلها مطلقاً . وقد نتهم بالرجعية ، ولكنى أوثر الرجعية على سلوك المؤلف فى تلك القصة . فكيف نستسيغ أن تستسلم فتاة مثل جودى ، وهى الريفية الهادئة الدمثة الأخلاق ، الفياضة الشعور ، لفتى من أول وهلة . ولنلاحظ أنها لم تقض مع

هذا الشاب إلا ساعات قليلة كانت هى الوحيدة فى حياتها . ثم إن خاتمة القصة كانت سريعة مليئة بالمفاجآت التى قد يستسيغها أيضاً المنطق الأمريكى فحسب . أما قصة الأم التى تكافح فى سبيل ابنها فهى قصة لا تخلو من جمال ودقة فى التحليل .

وقامت بدور جودى فى أداء متقن يدل دلالة قاطعة على دراية تامة بنفسية الأم الممثلة أوليفيا دى هافلاند ، فنالت بهذا الأداء المتقن جائزة التمثيل لسنة ١٩٤٦ .

رشدى كامل

تعتذر المجلة لاضطرارها إلى تأجيل نشر بعض المواد ومنها مقال هام للأستاذ محمد رفعت بك أحد كتابها الأصليين .

من هنا وهنالك

وثنيـــة إخوان الصفاء

نشر الأستاذ جبور عبد النور فى مجلة « الأديب » البيروتية [1] مقـالا ، بعنـوان « معالم الوثنية فى رسـائل إخوان الصفاء » ، حاول فيه أن يجعـل من إخوان الصفاء جماعة اتفقت كلمتهم على هدم الإسلام والرجوع إلى الوثنية القديمة و إلى الوثنية الحرانية بصفـة خاصة ، وحاول الكاتب أن يدلل على ذلك كله بما فهمه من بعض نصـوص وردت فى الرسائل وأشار إلى صفحاتها فى الطبعة المصرية .

رجعت إلى النصوص التى ذكرها الكاتب ، ولكنى عجبت أشد العجب من أن الأستاذ جبور لم يكن دقيقاً فى نقـل النص ؛ فقد عمد إلى تلخيـص أجزاء من النص هى التى تتفق مـع القضية التى افترضها ، ودفع باقى النص الذى يدحض فروضه ويخالفها . هـذا أول ما ألاحظه على بحث الأستـاذ جبور . ملاحظة أخرى هى أن الأستاذ الكاتب فهم النصوص على هواه هو ، لا كما أرادها إخوان الصفاء ، وحمل النصوص من المعانى مالا تتفق مع سياق ماورد فى الرسائل . ولعل للاستاذ الكاتب عذره فى ذلك ، فدراسـة رسائل إخـوان الصفـاء من أشـق الدراسـات العربيـة وأعسرها ، والباحث للرسائل فى حاجة إلى مقارنة كل النصوص مقارنة دقيقة ، وأن يربط بعضها ببعض ؛ فقد تجد مثلا فى الجزء الرابع شرح مافى الجزء الأول . فإذا لم يفطن الباحث إلى طريقـة الإخـوان فى الـكتـابة ، فقد لا يخرج بنتيجة من دراسته . أضف إلى ذلك كله أن بالرسائل بعض الرمـوز التى يصعب الوصول إلى معرفتها وفك أسرارها إلا إذا اطلع على التـأويل البـاطنى للإسماعيلية . فلا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الاسماعيليـة و إخـوان الصفـاء ، فمعرفة أسرار الاسماعيليـة يؤدينا إلى معرفة وفهم نصوص رسائل إخوان الصفاء .

ملاحظة ثالثة هى أن بحث الأستاذ جبور قد ملئ بالمغالطات الجريئـة فى

(١) عدد يناير ١٩٤٧ ص ٢٥

سبيل الدفاع عن الفروض التى افترضها . نرى ذلك كله واضحاً فى هذا البحث المنشور فى مجلة «الأديب» .

ففى الجزء من البحث الذى جعل عنوانه « فصل الملك عن النبوة » أراد الكاتب أن يوهمنا أن إخوان الصفاء هم أول من قال بفصل النبوة عن الملك ، وأنهم يخصون صاحب الشريعة بصفات معينة كما يجعلون للملك خصالا أخرى ، وفى ذلك تتضح وثنيتهم ! فلا أدرى ما هى الوثنية فى ذلك ! ولعل الكاتب لم يقرأ ما ورد فى القرآن الكريم عن سليمان وملكة سبأ ، وكيف فرق القرآن بين الأنبياء وملوك الدنيا ، وقد زخرت كتب التاريخ والتفسير بذلك كله ولم يقل باحث واحد بوثنية هؤلاء المؤرخين والمفسرين . ولكن الفكرة التى اختمرت فى عقل الأستاذ جبور جعلت إخوان الصفاء هم أول من فرق بين النبوة والملك ، وبذلك اتضحت فى عقائدهم الفكرة الوثنية لقولهم بهذا الرأى . أما قول إخوان الصفاء : «إن النبى محمد صلى الله عليه وسلم أقام بمكة فى أول مبعثه نحوا من اثنتى عشرة سنة يدعو الناس ويعلمهم معالم الدين حتى استوفى خصال النبوة وأحكمها ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة وأقام بها نحوا من عشر سنين فى ترتيب أمر الأمة وتحذير الأعداء وجباية الخراج والعشر ومصارعة الأعداء والمهادنة ... حتى أحكم أمر الملك » [1] فقد شاء الأستاذ جبور إلا أن يقتطع النص ويأخذ منه ما يتفق مع ما افترضه ؛ فقد اكتفى بأن أشار إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم فى الطور المكى كان نبيا بدون سلطان ثم أصبح فى الطور المدنى نبيا وملكاً . أما ما أدلى به « الاخوان » عن تعليل ذلك ومن أن الله جمع الملك والنبوة لسليمان وداود ويوسف ومحمد ، وحرص الإخوان على مصلحة الناس فى أن يستند الملك إلى الدين والدين إلى الملك ، إلى غير ذلك من الآراء العديدة التى وردت فى الرسائل فقد أبى الأستاذ جبور أن يتحدث عنها أو أن يشير إليها ، بل خرّج هذه النصوص تخريجاً يناقض ماجاء فى الرسائل وعلق عليها بقوله : « فهم إذن لا يرون أن الدين والدنيا قد اجتمعا فى شخص الخليفة ، كما يعتقد سائر المسلمين ، بل يسلمون بأن هذا الاجتماع هو أمر طارئ » . فالرسائل تتحدث عن الأنبياء والأستاذ جبور أبى إلا أن يجعله عن الخلفاء . وإذا فرضنا أن الحديث عن الخلفاء فهل

(١) الرسائل ج ٤ ص ٣٣

درس الأستاذ جبور التاريخ الاسلامى حتى يعلم أن سائر المسلمين لم يعتقدوا أن الخليفة يجمع الدين والدنيا ، فقد كثرت الفرق الإسلامية لخلافهم فى الخليفة .

وفى الفصل الذى سماه الأستاذ جبور « تفضيل المجوسية على اليهودية» نراه قد تعمد تشويه ما جاء فى الرسائل ؛ فقد استغل الكاتب المعنى الشائع للمجوسية دون تحقيق عقيدة المجوس ، تحقيقاً علميا . ولعله إذا قرأ كتاب «الفِصَل فى الملل» لابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ ه. مثلا لأدرك أن عدداً من الصحابة والتابعين منهم على ابن أبى طالب وسعيد بن المسيب وقتادة وجمهور أصحاب أهل الظاهر قالوا إن المجوس أهل كتاب ، وقد أثبت ابن حزم ذلك فى كتب أخرى ذكرها فى كتابه هذا [١] ، ومع ذلك لم يأبه الأستاذ جبور بقول إخوان الصفاء عن عقيدة المجوس « بأنه الذى يريد الخير لنفسه ولأبناء جنسه كلهم ، ولا يريد لأحد من الخلق سوءاً لا لمن كان على دينه ويوافقه ، ولا لمن يخالفه ويضاده فى مذهبه، حتى ولو ظلمه وتعدى عليه ؛ لأنه يعلم أن فى السماء إلها خيراً فاضلا عادلا حكيما عليا لا تخفى عليه خافية فى أمر خلقه ، وهو يجازى المحسنين باحسانهم ويكافىء المسيئين على إساءاتهم » .[٢] ومن ناحية أخرى لم أجد فى الرسائل مايشير ولو إشارة خفيفة إلى أن القصة رويت لتفضيل المجوسية على اليهودية كما تخيل الكاتب، إنما رويت القصة للتدليل على أن من اعتقد رأياً أو ذهب مذهباً وتصوره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده ؛ لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نصرة مذهبه فى جميع تصرفاته ، فيصير ذلك خلقاً له ، وسجية وعادة يصعب إقلاعه عنها وتركه لها [٣] « وإذا فرضنا وذهبنا إلى أن الاخوان أرادوا التفضيل فانما هو تفضيل بين شخصيتين لا بين عقيدتين . والغريب أن يذهب الأستاذ الكاتب إلى أن القصة ختمت بتمجيد المجوسية فكانت أفضل الأديان ! بينما ختمت القصة فى الرسائل بأن أعيد اليهودى إلى أهله مكسوراً» وأن المجوسى حدث الناس بها فجعلوا يعجبون من أمرهما » . فواضح جداً الفرق بين الخاتمتين . ولا أدرى ما الذى دفع الأستاذ جبور إلى هذا التحريف .

---

(١) ج ١ ص ٩٢ الطبعة الاولى المصرية سنة ١٣٤٧ ه .
(٢) الرسائل ج ١ ص ٢٣٧ — (٣) شرحه .

أما فى الجزء الذى كتبه بعنوان « هرمس وفيثاغورس » فلعل الكاتب قد تواضع لدرجة جعلتنا نشك فى سعة اطلاعه على ما خلفه علماء المسلمين . فالكتب العربية ذكرت أن هرمس هو نبى الله إدريس ، ولم يكن إخوان الصفاء وحدهم هم الذين ذهبوا هذا المذهب ، بل من المؤرخين من يجعل هرمس هو توت إله قدماء المصريين ، ومنهم من يسمى هرمس أخنوخ أو إدريس نبى العبرانيين ، وتكاد الكتب العربية التى سبقت إخوان الصفاء تجمع على أن إدريس (أو هرمس) هو منبع العلم وأول من تحدث فى الجواهر العلوية والحركات النجومية [1] فلا غرابة فى أن يتبع إخوان الصفاء رأيًا قال به علماء المسلمين قبلهم . وبمنطق الأستاذ جبور يجب أن يكون هؤلاء العلماء وثنيين . فانى لا أستطيع أن أقبل استنتاج الكاتب بأن إخوان الصفاء وثنيون لقولهم إن هرمس هو إدريس، أو قولهم إن فيثاغورس من حران بدلا من بلاد اليونان . قد اعترف إخوان الصفاء مراراً فى رسائلهم بأنهم يتبعون الفيثاغوريين فى آرائهم ، فكان الأحرى بالأستاذ جبور أن يبحث علاقة الفيثاغوريين بعقيدة إخوان الصفاء ، فان مثل هذا البحث جدير بأن يتشبث به كاتب بدلا من تعلقه بقولهم إن فيثاغورس من حران ، واستنتاجه أنهم وثنيون حرانيون لذلك .

ويزداد شك الأستاذ الكاتب وحيرته عندما يصل إلى الرسالة التاسعة من العلوم الناموسية والشرعية ؛ فقد فهم الكاتب أن الاخوان يقومون بجميع شعائر الدين الاسلامى الحنيف فروضه وسننه ، ويعرفون ماحلله الاسلام وما حرّمه فيقومون بهذه ويتركون تلك . ولكن عند الأستاذ الكاتب أن ذلك كله لكتم أمرهم عن العامة ! وفى الوقت نفسه يقول إن الاخوان يقومون بالشعائر الوثنية التى تبين طقوسها بجلاء فى عبادة الصائبة لاعتقادهم أنهم أحق الناس بالعبادة الفلسفية الالهية والأخذ لها والتجديد لما دثر منها . ولكن الكاتب لم يبين لنا كيف كان الاخوان يقومون بالشعائر الوثنية ، هل كانوا يقيمونها خفية أم على مرأى ومسمع من الجماهير ؟ الواقع أن الكاتب فهم ذلك لأنه لم يشأ أن يفهم النص بأكمله فاكتفى بجزء من النص وترك أكثره .

(١) الشهرستانى ج ٢ ص ١١٢ (على هامش الفصل لابن حزم) . والقفطى مادة إدريس وهرمس . وطبقات الأمم لصاعد .

فى هذا النص من الرسائل إشارة صريحة إلى أن الاخوان علويون ، فهم أقرب الناس إلى النبى الكريم ، وأنهم أولى الناس بحمل شعائر الدين الاسلامى وأخص الناس به . ولكن الكاتب تغاضى عن ذلك كله فى سبيل التدليل على ما ألزم نفسه به من فروض ، ولو أدى ذلك إلى إهمال النص . وكذلك لم يشأ الكاتب أن يبحث معنى قولهم «العبادة الفلسفية الالهية» واكتفى بأن فسرها من عنده بأنها العبادة الوثنية وترك أقوال إخوان الصفاء أنفسهم فى شرح هذه العبادة بقولهم « الاقرار بوحدانية الله »[1] وأن العمل بالعبادة الفلسفية الالٰهية إيمان ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون مسلما والاسلام سابق على الايمان [2] وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان إماماً للمسلمين والمؤمنين عارفاً بالعبادة الفلسفية الالٰهية.[3] ولو اطلع الأستاذ على رسالة الجامعة من رسائل إخوان الصفاء وقارن بين نصوص الرسائل كلها ، لاستطاع أن يدرك أن المقصود « بالعبادة الفلسفية الالٰهية » هو مايعرف عند الاسماعيلية والصوفية بعلم الباطن وأن العبادة الشرعية الناموسية هى علم الظاهر . ولعل الأستاذ جبور إذا أعاد قراءة الرسائل المطبوعة سيجد أنها مفعمة بالاشارة إلى الظاهر والباطن ، وإلى أن العبادة الفلسفية الالٰهية هى العبادة بالباطن الذى قال به الاسماعيلية ومنهم إخوان الصفاء .

وقد بدا للكاتب أن الأفق القاتم قد انجلى له لحديث الاخوان عن الأعياد الاسلامية العادية والأعياد التى سماها بالأعياد الفصلية التى كان يتخذها القدماء . ولكن الأمر أبسط مماتوهمه ؛ فقد ينجلى له الأفق القاتم لو لم يحمل النص أكثر مما يتحمله ، فقد قارن إخوان الصفاء الأعياد (الفصلية) بأعياد المسلمين بقولهم : «وإذا أنعمت النظر إلى أعياد الشريعة الاسلامية وجدتها موافقة لها (أى للأعياد الفصلية) وذلك أن نبينا عليه السلام سن لأمته فى شريعته ثلاثة أعياد ، فالأول منها عيد الفطر ، وهو أعظم فرح يكون بخروج الناس من شدة الصوم إلى الفطر كفرح أهل الأرض بقدوم الربيع والخصب بعد ذهاب الشتاء ، ثم عيد الأضحى وهو يوم تعب ونصب لأنه يوم الحج فيكون الوفد الشرعى فيه شعثاً غبراً ويحتاج فيه إلى إراقة دم ويكون فرحاً ممزوجاً

(١) الرسائل ج ٤ ص ٣٠١ — (٢) الموضع السابق — (٣) ج ٤ ص ٣٠٢

بغي ونصب ، فيكون الفرح دون الفرح الأول كفرح الفلاسفة بالعيد الثانى من سنتهم ، إذ كانوا يستقبلون الهجير والرمضاء والسمائم وشدة الصيف . واليوم الثالث فى السنة الشرعية يوم وصيته عند انصرافه من حجة الوداع بغدير خم ، وفرحه ممزوج لأنه خالط ذلك بنكث وغدر ، موافقاً للعيد الثالث الفلسفى المتقلب فيه الزمان من الصيف إلى الخريف ، فتناهى حال الثمار وأخذها فى النقصان والجفاف . واليوم الرابع هو يوم الحزن والكآبة فهو يوم قبض فيه النبى صلى الله عليه وسلم إلى رضوان الله ومحل كرامته صلى الله عليه وسلم وإن كان عيدا له لما وعده ربه تعالى بقوله « وللآخرة خير لك من الأولى » فهو بانتقاله إلى جوار الله وكريم فنائه عيد له غير أنه مشوب بمصاب أمته وانقطاع الوحى وفقدهم شخصه الكريم . » [1] ثم ذكر الاخوان أنهم اتخذوا لأنفسهم أعياداً خاصة توافق أيضاً هذه الأعياد الشرعية وهذه الأعياد الفصلية ، وهى خلاصة ما أرادوا ذكره عن الأعياد ، بخلاف ما فهمه الأستاذ جبور . ولا صحة لما ذهب إليه الكاتب من أن الاخوان « كانوا يصلون بصلاة قدماء اليونان ويدعون بالأدعية الأفلاطونية ويتوسلون بالتوسل الادريسى ويناجون مناجاة الأرسطاطالية » فقد وردت هذه الألوان من العبادة فى الرسائل منسوبة إلى قدماء اليونان وأنها عبادة الفلاسفة الالهيين . ولكن فات الأستاذ جبور أن يعرف ما الذى قصد إليه إخوان الصفاء بقولهم : «ولما تمت الفضيلة لواحد من أهله (أى من أهل النبى صلى الله عليه وسلم) وأصحابه قال مفتخراً : أنا أرسطاطاليس هذه الأمة . » [2] فمن هذا النص الذى أهمله الأستاذ الكاتب نستطيع أن نذكر أن ذكر أفلاطون وإدريس وأرسطاطاليس فى النص السابق رموز أريد بها الأئمة من أهل البيت. [3]

وقد ذهب الكاتب إلى أن إخوان الصفاء كانوا يحللون القرابين وذبح الحيوانات فى الهياكل قرباناً لمن يعبدونه . فهذا القول لا يتفق مع ماورد فى الرسائل ، وقد فسر الاخوان قربانهم بقولهم إنه « التقرب بما تقرب به ابراهيم من الكبش المنون به عليه فداء لولده الذى قد رعى فى أرض الجنة أربعين خريفاً» . ثم قولهم : «فان تمكنت

---

(١) ج ٤ ص ٣٠٦ — (٢) ج ٤ ص ٣٠٢
(٣) راجع الرسالة الجامعة لاخوان الصفاء .

أن تتقرب بكبش رعى فى أرض الجنة ولو شبراً فافعل ولا تقعد عنه واجتهد فى ذلك . . . »[1] وربما لم يستطع الكاتب أن يفك هذه الرموز أو أن يصل إلى حل هذه الأسرار ، ففسرها بما يتفق مع فروضه . ولو كان قد اطلع على كتب التأويل عند الاسماعيلية او على رسالة الجامعة لأدرك أن لهذه الاشارات تأويلا باطنيا ؛ فالقربان عندهم هو العهد والميثاق ، والكبش هو حجة الإمام أو كبير دعاته ، وأرض الجنة هى أرض الدعوة[2] ، وبذلك نستطيع أن نفهم أقوال إخوان الصفاء فى قربانهم على النحو الذى أرادوه هم ، لا على النحو الذى فهمه الأستاذ الباحث .

أما قوله : «وينتهون من ذلك إلى القول بأن الهياكل التى بناها الفلاسفة هى شبيهة بالهياكل الموجودة فى السماء» فهو تحريف لقول إخوان الصفاء « وبناؤهم الهياكل فى الأرض على مثال ماهى مبنية فى السماء » . فكلمة مثال هنا فى نص الرسائل لها مدلولها ، المصطلح عليه فى الرسائل وفى كتب الاسماعيلية . ذلك أن الاسماعيلية ، ومنهم إخوان الصفاء ، بنوا عقائدهم الباطنية (وهى العبادة الفلسفية الإلٰهية التى شاء الأستاذ جبور أن يقول إنها العبادة الوثنية) على نظرية خاصة ، أطلقت عليها « نظرية المثل والممثول » .[3] وتقوم هذه النظرية على أن كل ماخلقه الله من المحسوسات الظاهرة هى مثل ، ولها فى الباطن ممثولات ، وكل ما فى الأرض مثل وما فى السماء ممثول . وبناء على هذه النظرية ، وبتأويل الفلاسفة الإلٰهين بالأئمة كما سبق القول من قبل ، نقول إن الأئمة مثل والحدود الروحانية ممثول ؛ فما يأتيه الأئمة فى الأرض من عبادات هى مثل لما يأتيه الحدود الروحانية فى السماء . وفى ذلك يقول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الدعاة :

أقصد حمى ممثوله دون المثل
ذا إبر النحل وهذا كالعسل

ولا أوافق الأستاذ جبور فى قوله إنهم من عبدة الكواكب السيارة ، لا أوافقه لسبب بسيط وهو أنه لم يرد

(١) ج ٤ ص ٣٠٩

(٢) راجع تأويل قصة إبراهيم فى كتاب سرائر النطقاء لجعفر بن منصور اليمن ، وتأويل الحج فى كتاب تأويل دعائم الاسلام للقاضى النعمان بن محمد ، وفى المجالس المؤيدية لداعى الدعاة المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى . وكلها فتوغرافية عندى جامعة فؤاد الأول بالقاهرة .

(٣) راجع مقدمة ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة (تحت الطبع بشركة الكاتب المصرى) .

نص ولا إشارة إلى ذلك فى الرسائل . وإن كان الأستاذ قد استدل بقولهم إن الكواكب السيارة لها تأثير فى عالم الكون والفساد ، فلعل الكاتب يوافقنى على أنه ليس إخوان الصفاء وحدهم الذين قالوا بهذه المقالة ، ولعله قد قرأ ما ورد فى مروج الذهب للمسعودى فقد أفرد فصلا خاصا بذلك . ووضع الأستاذ الكبير المرحوم نالينو المستشرق الايطالى كتاباً فى الفلك عند العرب ، وقد ذكر من قال بتأثير الكواكب فى عالم الكون والفساد . وكذلك تقول إن الحرانيين — الذين يريد الكاتب أن ينسب إخوان الصفاء إليهم — ليسوا وحدهم الذين ذهبوا هذا المذهب . واستدلال الكاتب بأن الاخوان من المثمنة ليس بصحيح ؛ لأن الناظر فى الرسائل يعتقد لأول وهلة أنهم مخمسة لا مثمنة .. والحقيقة كما قلت من قبل أنهم كانوا فى هذه الناحية فيثاغوريين لايرتبطون بعدد من الأعداد بل جعلوا لكل عدد أصلا من أصول عقيدتهم [١] .

وإذن نستطيع — مطمئنين — أن نرفض هذه الفروض التى افترضها الأستاذ جبور عن وثنية إخوان الصفاء والحرانية ، وأن نعيد ما قاله الباحثون السابقون عن إخوان الصفاء من أنهم من الاسماعيلية . ولعل الأستاذ جبور قد لمح إلى ذلك دون أن يشعر بحديثه عن العلاقة التى بين نصوص الرسائل ونصوص رسائل جابر بن حيان . وأن جابر بن حيان كان على صلة بالإمام جعفر الصادق الإمام السادس للشيعة الاثنى عشرية والخامس للشيعة الاسماعيلية ، فوجود هذه الصلة بين أقوال إخوان الصفاء وأقوال جابر تدعونا إلى الوقوف طويلا للبحث عن علاقتهما بعضهما ببعض وعلاقة الاخوان بالاسماعيلية . وهذا ماأرجو أن أتناوله فى مقالات أخرى .

محمد كامل حسين

(١) راجع مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .

من وراء البحار

مصر والسـودان

تثير مطالب مصر من انجلترا ، تعليقات مغرضة فى الصحف والمجلات البريطانية ، قد يختلف كل منها فى نزعته ولهجته باختلاف مذهب الصحيفة أو المجلة ، ولكنها تجتمع كلها فى تأييد وجهة النظر البريطانية . وقد رأينا أن ننقل نموذجاً من مجلة « العالم اليوم » التى يصدرها المعهد الملكى للشؤون الدولية . وهى تعتبر من أكثر المجلات اتزاناً فى بحثها للشؤون الدولية . وقد تكلمت فى مقالها الافتتاحى فى عدد شهر فبراير عن بريطانيا ومصر ، ومستقبل السودان ، فقالت بعد عبارة قصيرة ليست هى المرة الأولى التى تبين فيها أن مسألة السودان لم تكن حجر عثرة فى طريق الاتفاق مع مصر فقط ، بل هى الصخرة التى تتحطم عليها المجهودات فى سبيل الاتفاق . ففى سنة ١٩٣٠ عدل عن محاولات الوصول إلى الاتفاق وهى على أهبة النجاح لسبب واحد ، هو استحالة التوفيق بين وجهتى نظر الحكومتين المصرية والبريطانية فى هذا المشكل. ولذلك كان مما يدعو للاغتباط فى سنة ١٩٣٦ ، أن وجد سبيل للاتفاق فى المعاهدة القائمة أمكن به نجاح المفاوضات فى شأن جميع المسائل الأخرى ، على أن تترك المسألة التى لا يمكن حلها لتكون موضوعاً مستقلا للبحث فيما بعد . فقد اتفق الطرفان فى تلك المعاهدة على أن تظل إدارة السودان على حالتها الناشئة عن الاتفاق على الحكم الثنائى الذى عقد فى سنة ١٨٩٩ مع « الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات أخرى فيما بعد » ، لذلك استمر السودان يديره حاكم عام ذو سلطة عليا « يعين بناء على توصية الحكومة البريطانية » . على أن مصر لم تنزل عن سيادتها عليه إذ أن المادة ١١ (فقرة ٣) تنص على أنه « يجب ألا يتعارض ما نص عليه فى هذه المادة مع مسألة السيادة على السودان » . وفضلا عن ذلك استطاعت مصر أن تزيل بعض الموانع التى فرضتها عليها الحكومة البريطانية بعد مقتل الحاكم العام فى سنة ١٩٢٤ ومنها إعادة فتح المناصب الادارية للموظفين المصريين .

على أن التسوية لم تؤد إلى أكثر من وضع الصعوبة على الرف . ومازالت

مصر مصرة على أن السيادة على السودان مرتبطة بالتاج المصرى . وهى تزعم أن وحدة وادى النيل ضرورية لأمنها وسعادتها ، على حين تتمسك الحكومة البريطانية بأن الاشتراك المصرى الانجليزى فى إدارة تلك البلاد هو بمثابة وديعة للشعب السودانى على قول مستر رمزى مكدونلد فى برقية أرسلها إلى القاهرة فى سنة ١٩٢٤ ، وصرح فيها أنه يجب ألا تثار مسألة السودان بل يجب أن تترك إلى أن يتم العمل فيه (أى إعداد السودانيين للحكم الذاتى) . وتؤيد الحكومة البريطانية الحالية هذا الرأى ، وتلاحظ أنه عندما يحين الوقت لكى يقيم السودانيون الحكومة التى يرغبون فيها يكونون بالطبيعة أحراراً فى اختيار بقاء علاقته مع مصر أو عدم بقائها .

ومما يؤسف له فيما يتعلق بأمل الوصول إلى تسوية أن استمر الساسة المصريون واستمرت الصحافة المصرية مدة خمس وعشرين سنة ينادون بوحدة وادى النيل . وفى سنة ١٩٣٠ كانت النظرية التى استعملها النحاس باشا (وكان يومئذ رئيساً للحكومة) فيما يتعلق باتفاقية الحكم الثنائى هى أن السيادة المصرية على السودان لاتتجزأ بالرغم من هذه الاتفاقية ، إذ أن غرض هذه الاتفاقية إدارى محض لا سياسى . أما الزعماء الحاليون اليوم فيظهر أنهم يكتفون بالزعم أن السودان ومصر شئ واحد ، ولا يرون من الضرورى أن ينيروا أذهان شعبهم فيما يتعلق بالظروف التى عقد فيها اتفاق الحكم الثنائى . أى إن هذا الاتفاق قد تم بعد إعادة فتح السودان (الذى نجح فى الانتقاض على سوء الحكم المصرى) بحملة مؤلفة من جنود بريطانية وجنود دربهم البريطانيون ، وقاد هذه الحملة لورد كتشنر . ونتيجة هذا أن السواد الأعظم من المصريين لا يعرفون إلا أن البلاد السودانية كانت فى وقت ما جزءاً من أراضى الخديو ، وأن رخاء مصر يتوقف على مياه النيل إن لم تتوقف عليها حياتهم .

ومن المؤكد أن لمصر كل حق فى أن تطلب ضمانات كاملة لسلامة حدودها الجنوبية ، وأن تكون واثقة كل الثقة بألا تتعرض مواردها من مياه النيل للخطر . على أن هذه الأمور معترف بها تماماً فى بريطانيا والسودان . وقد عقدت اتفاقية مياه النيل فى سنة ١٩٢٩ بوجه خاص لكى تزيل كل خوف ، بأن أية مشروعات مستقبلة لرى السودان وحجز المياه فيه ، لن تعرقل على أية حال ماتطلبه مصر من

مياه . وقد نصت هذه الاتفاقية على إنشاء خزان جديد فى السودان تعود كل الفائدة منه على مصر . وتقرر فى هذه الاتفاقية مبدأ عدم اتخاذ أية ، إجراءات فى السودان تضر بمصالح ، مصر ، وأن يكون هنالك تعاون بين مصالح الرى فى البلدين .

أما فيما يتعلق بالمأزق الحالى فان مايسمى ببروتوكول السودان ، لم ينشر . ولكن من الواضح أن الحكومة البريطانية تصر على مبدأ أن يكون مصير السودان فى المستقبل من شأن السودانيين أنفسهم بالاختيار الحر . وفى رأى هذه الحكومة أنها لاتستطيع «أن تتنزل عن حقوق شعب فى الاستقلال الذاتى بالاتفاق على ذلك مع طرف ثالث » . ومما يجعل هذا القول أكثر صواباً أنه قامت حركة وطنية استقلالية فى السودان نفسه . على أنه مما يؤسف له أن هذه الحركة يمثلها حزبان يختلفان اختلافاً كبيراً فى كثير من وسائلهما وأغراضهما . ولكن كلا الحزبين ينادى بأن يكون السودان مستقلا وبعيداً عن أى تدخل من بريطانيا أو من مصر .

حول الأديب الفرنسى كامو

أبدى مستر ماسون فى صدر مقاله عن كامو Camus فى مجلة « سكروتنى » الانجليزية ، عدد يناير سنة ١٩٤٧ ملاحظة تسترعى النظر ، هى قوله إن فى الأدب الفرنسى المعاصر ظاهرة عجيبة ، هى أن ثلاثة على الأقل من كتاب النثر قد نشر كل منهم بحثاً فلسفيا ، ومسرحية ، ورواية قصصية . فقد كتب مسيو ألبير كامو ، فضلا عن قصتيه « الغريب » و « رسائل لصديق ألمانى» ، مسرحيتين هما « سوء التفاهم » و« كاليجولا » ، ومقالا عن السخافة باسم « أسطورة ستيف » ، وجمعت له مجموعة مقالات لم يكن قد بلغ فيها مستواه الناضج ، صدرت تحت اسم « العرائس » . وبالرغم من أن مسيو كامو يقرن اسمه ببول سارتر وسيمون دى بوفوار على أنه من أتباع مذهب الوجودية ، فان هذا الوصف لا يدل على الحقيقة أكثر من القول بأن الكتاب الانجليز أودن وداى لويس وسبندر هم أنصار مذهب واحد . وكل مايشترك فيه هؤلاء الكتاب الفرنسيون الثلاثة أن لكل منهم فلسفة تظهر فى مسرحياته وقصصه . ولمسيو كامو الذى كان معلما للفلسفة آراء طريفة ، قد

لاتكون متناسقة كفلسفة صرفة ، ولكنها تمثل نظرة نحو الحياة والموت يشترك فيها كثيرون من الناس فى زماننا .

ولعله عمد إلى شرح هذه الفلسفة فى روايته « الغريب » ، ولكن فى هذه الرواية أيضاً فضيلة نادرة هى أنه فكر فيها وبناها من أول صفحة إلى آخر صفحة ، بل نجد أن الصفحة الأخيرة مرتبطة كل الارتباط بالصفحة الأولى . وفى هذه الرواية ميزة أخرى هى أن معناها الحقيقى لا يعرف إلا فى النهاية . ويجب قراءتها حتى هذه النهاية لكى يعرف مغزاها . فالمؤلف إذن قابض تماماً على مادته وهو يتناولها فى أسلوب بين متزن لا يعترضه حشو أدبى .

وقصة « الغريب » التى تروى على لسان بطلها ، هى قصة مرسو الذى يعيش فى الجزائر ويعمل عملا كتابيا بسيطاً . . . وقد وضع والدته قبل ثلاث سنوات فى دار للعجزة بمارنجو . وفى ابتداء الرواية تكون والدته توفيت ، فذهب يشيعها إلى مقرها الأخير . وعند عودته إلى الجزائر يذهب إلى حوض للسباحة ليقابل فيه مارى التى كانت تعمل على الآلة الكاتبة فى المكتب الذى يعمل هو فيه . فيذهبان فى المساء إلى رؤية شريط سنمائى هزلى ثم يبيتان معاً . وتبغى الفتاة الزواج منه فلا يمانع بالرغم من عدم تحمسه ، ولكن قبل حدوث الزواج يساعد مرسو رجلا يعرفه ممن يتاجرون فى النساء فى مشاحنة له مع إحدى ضحاياه ، وتتوطد بينهما الصداقة فيذهبان بصحبة مارى فى يوم السبت التالى إلى أحد المصايف . وهنالك يتبعهم بعض الأعراب الذين هم أصدقاء لأخى المرأة المعتدى عليها ، وينشب بينهما وبين الأعراب عراك يجرح فيه الصديق . على أن مرسو يتدخل بين المتعاركين ، ويستولى على مسدس صديقه حسما للنزاع . ويحدث بعد ذلك أن يخرج للنزهة، وكانت الشمس تسطع حارة ويتصبب من جسده العرق، فاذا به يعود إلى مقابلة أحد الأعراب الذى يرغب أن يستأنف العراك ، ويخرج هذا الأعرابى سكيناً فاذا مرسو يفرغ المسدس فيه ويرديه جثة هامدة .

كان من المستطاع أن تنتهى هذه القضية باعتبارها قتلا حدث مع ظروف مخففة . ولكن إجابات بطل القضية أمام قاضى التحقيق تصدم آراء القاضى المسيحية، فيأخذ فى التوسع فى تحقيقه ، ويرى حتى فى مسألة وفاة الوالدة معنى جديداً ، ويزيد المتهم عناداً وتمسكا بما يعتقد أنه الحق ، فيحكم عليه بالموت . وعندما يذهب إليه

القسيس قبل تنفيذ الحكم يأبى أن يقابله بل ينهال عليه ضرباً ، وتكون رغبته الأخيرة أن يشهد تنفيذ الحكم عليه جمهور ساخط .

قد تكون هذه القصة مقتبسة من إحدى الصحف كما فعل ستندال فى قصته «الأحمر والأسود» ، ولكن أبرز ما فيها ليس النضال بين بطلها وبين الهيئة الاجتماعية ومصطلحاتها ؛ فمرسو فى هذه القصة شهيد العقيدة لا شهيد الهيئة الاجتماعية ، ومأساته هى مأساة جميع الذين يشاطرون مسيو كامو رأيه .

فهناك ثلاثة آراء أساسية يتجه إليها المؤلف فى كتابه : أولها أن بعض الأشياء التى تعتبر ذات أهمية هى فى الحقيقة عديمة الأهمية . وثانيها أن هنالك قيما خاصة ، ولكن ليس من الضرورى أن نأخذ بهذه القيم أو نهملها . ومن وراء الثقة بالنفس توجد عقيدة فى بعض القيم لا تتأثر حتى بالموت المحتوم .

وقبل مناقشة هذه الآراء يحسن أن نذكر أن بعض الناقدين يرون فى بطل الرواية أنه نضبت فيه جميع موارد الاحساس ، و يرى الآخرون أنه يفيض بالحياة الداخلية ، و يرى كاتب المقال فيه أن هذا اللاشعور منه هو طريقة تبعث على الاهتمام فى بطل الرواية ، ويجب أن ننظر إليه على أنه يمثل اتجاهاً جديًّا فى الحياة . ولقد حرص مسيو كامو على أن يكثر البطل من الحديث عن نظرته إلى الشئ العديم الأهمية ، ومن هذه الأحاديث نشعر بأن للبطل قيما خاصة فى الحياة ، أولها الطموح إلى الرجولة ، فان اضطهاده جعل منه رجلا وبطلا .

وليس من السهل أن نرى فى هذه القصة مأساة . أجل ! إن فقد المرء لحياة عشرين سنة هى مسألة مؤلمة لدى أولئك الذين يقيسون الحياة بهذا المقياس ؛ ولذلك كان ما تقوم عليه هذه المسألة : هل هناك فيما وراء موت البطل فى مقتبل العمر ما يدل على القدر المحتوم ؟ إن الأمر المحتوم فى هذه القصة على ما يظهر هو احتمال حدوث المصاب دائماً ، حتى الحياة لتظهر كفخ نصب لحيوان . ولكن لا يمكن الدلالة على أن مسيو كامو أراد شيئاً غير فكرة الموت المحتوم الذى يجعل الأمور متساوية فى الأهمية وعدم الأهمية .

و إذا سألنا ما هو اتجاه البطل فى هذا العالم لرأيناه القبول السلبى لظروفه . وفى المأساة التى تحل به كل التأثير الذى نجده فى خير القصص الأمريكية ، إلا أن فى الفلسفة الساخرة للمؤلف الفرنسى ما لا يوجد عند غيره من الكتاب .

من كتب الشرق والغرب

LE HEROS DANS LA VALLEE HEUREUSE

ETIEMBLE

البطل فى الوادى السعيد[1]

يتكلم الناس اليوم عن الرور بقدر ما تكلموا عنه عام ١٩٤٤ ، ويبذل فى إعادة إنشائه من الجهد أكثر مما بذل فى تخريبه . ذلك لأن هذا الوادى سيبقى كأحد الأماكن التى يقرر فيها مصير حضارتنا . واد غنى وواد مهول ، واد بائس فى ذلك الوقت الذى كان يدعى — ويا لغرابة ذلك — وقت السلام . وأكثر بؤساً — لو كان هذا ممكناً — فى وقت الحرب المعلنة حين كانت القنابل المنهالة بآلاف الأطنان تحتفر فيه آلاف الهوات المبتغاة . وكان طيارو الحلفاء ، الذين كانت تبحث عنهم فى يقظة القذائف والمدافع الثقيلة والمطاردات المعادية ، يطلقون عليه اسم الوادى السعيد .

كان جـــول روا Jules Roy ضابطاً ، ثم انضم مبادراً إلى حركة فرنسا المحاربة ، فطار فوق ألمانيا كثيراً ، أكثر من زملائه . وحقا لقـد كان العمل فى القاذفات الليلية رهيباً حتى لقد كان سلاح الطيران الملكى يحل من كل ارتباط حربى أولئك الذين يبقون على قيد الحياة بعد الطيران الثلاثين : إذ ثبت لقيادة القاذفات بعمليـــة حسابية بسيطة أن قليلا جدا من الطيارين من يعود بعد طيرانه عشرين مرة ذهاباً وإياباً . ولكن كما يعرف المقامرون ما يدعونه « بالخوارق » ، وهى مجموعة أرقام تفسد عليهم حسابهم ، كذلك كان لمكتب قيادة القاذفات « خوارقه » وهم قواد الطـــائرات والطيارون الذين يبقون أحياء بعـد أن يطيروا عشرين مرة فوق المحور . ولما أتم جول روا مهماته الثـــلاثين بانتظام ، علم هذا « الخارق » من رؤسائه أن عليه أن يواصل عمله المهلك لنقص فى عدد الرجال . ورغم ذلك فقد رجع من الوادى السعيد ، رجع محطم الأعصاب . ولما عاودته قوته واتزانه

---

(١) كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

قص علينا حياة الطيارين . فبعد أن كتب « أناشيد وصلوات لبعض قائدى الطائرات » ، ألف كتابه « سماء وأرض » . و « سماء وأرض » هو أيضاً العنوان الذى اتخذته مجموعة الكتب التى يشرف عليها فى طبعة شارلوت Editions Charlot وقد أضاف إليها منذ قليل قصة عن تجربة « الوادى السعيد » . ونال هذا المؤلف جائزة تيوفراست رنودو Théophraste Renaudot الأدبية لعام ١٩٤٦ ، وهكذا أثبت محكمو جائزة رنودو مرة أخرى أنهم أسلم ذوقاً من محكمى جائزة جونكور Goncourt .

وشفرييه ، الطيار الأول والشخصية الأساسية فى « الوادى السعيد » ، شبيه كأخ شقيق بشخصية باتريس فى « سماء وأرض » . وباتريس وشفرييه ، كلاهما شبيه بجول روا . فهما كما جاء فى رؤية يوحنا : « لم يحبوا الحياة خشية من الموت » . أو كما قال جول روا : « كانت فكرة الموت الوشيك تفسد كل شئ » . ولو كان الطيارون أقل تأثراً ، لسحروا عدداً أقل من النساء ، ولكن فكرة الموت الوشيك تفسد عليهم كل شئ حتى هؤلاء النسوة المتأهبات . أكانت تفسد كل شئ ؟ كلا . فالاخوة فى الشجاعة والرجولة تسيطر على المشاعر جميعاً وتفلت من ذلك الفساد . وهذا التعاطف القاسى الذى تعبر عنه كلمات عسكرية خشنة ، والذى لا يعرفه إلا أولئك الذين يواجهون الموت معاً ، هذا التعاطف يفيض على هذه الأقاصيص إنسانية ؛ فهو وحده ، بين تلك الآلات الميكانيكية الشنيعة التى تكون الطيران فى أيامنا ، الذى يؤكد للطيارين أنهم ليسوا بآلات أوتوماتيكية . ففى وقت السلام ، كان يستطيع الطيار فى الطيران التجارى ، أن يحتفظ بذاتيته . « وكان المرء يلقى حتفه لأن إطاراً انفجر ساعة الرحيل أو لأن محركا احترق أثناء الطيران ، ولكن ذلك هو الذى كان يعطى للحياة قيمتها . » فقائد الطائرة وملاحها الجوى يعرفان أن شجاعتهما ومقدرتهما تواجه ضربات القدر وعناصر الطبيعة ، بقوى لا يمكن إهمالها . أما أثناء الحرب الهتلرية ، فلم يكن بين الطيار وبين الموت إلا قانون جاف من قوانين المتوسطات الحسابية ، أى نسبة مئوية معلومة من الخسارة ؛ فقد ولى ذلك الزمن ، زمن المبارزات الجوية بين المطاردات حيث كان يستطيع قائد الطائرة بشئ من المداورة ومن إحكام الهدف ، أن ينتصر ويخرج سليما . كان الانسان عندئذ سيد مصيره . أما اليوم

فتعلم ساعة الرحيل أن عدداً محدداً من الطيارين ، لا يزيد أو ينقص إلى اثنين أو ثلاثة ، لن يعودوا إلى قاعدتهم .

إذهب إذن وبيّن للمدنيين حياة الطيارين وظروفهم ! كتبت امرأة غبية إلى مورين ، صديق شفرييه : « أريد أن يكلل المجد هامتك » . فرد عليها مورين « أتتكلمين عن المجد ، إنه يعرفنا » . وذات يوم كانت إحدى الفتيات تهمس إلى شفرييه فى تبتل وذهول قائلة : « يا له من مرح ذلك الذى تستشعره وأنت تقذف برلين بالقنابل » . فلم يرد عليها « بل لم يرفع كتفيه » . ذلك لأنه مقتنع بأن أى شخص يستطيع أن يقع دون احتياط فى البطولة كما يقع فى بالوعة مفتوحة على حافة الافريز . قال لى مالرو Malraux ذات يوم أثناء حرب أسبانيا : « لقد رأيت فريقاً من أولئك الذين يدعون أبطالا ، رأيتهم فى الطيران . وهم جميعاً طفليون أو مصابون بداء الكذب » . أما أمام قيادة القاذفات فلم يكن هناك محل لأن يمثل الطيار دور البطل . فى كل صفحة نلقى الخوف « كان يدع ركبتيه ترتجفان . . . كان السهم يحتفر صدره وبطنه . جف عوده من الخوف وهو فى طائرته . . . أحس شفرييه فمه يمتلىء مرة أخرى بالمرارة . . . اختلج صوت المدفعى من الخوف والصراخ . . . كان شفرييه قد انغمر كالعادة فى لجة الفزع من التصادم . . . كل مساء يأتى يمزق أحشاءه . . . كنت خائفاً . . . الخ »

الفزع ساعة الرحيل ، الفزع من الطيران جماعات ، والفزع من الليل وكل الأنوار مطفأة والطائرة تحمل ستة أطنان من القنابل قد تنفجر فى أية لحظة ، كان شفرييه يلوم نفسه أحياناً على كل تلك المخاوف ، ولكنه فى الأغلب كان يتقبلها إذ أنه رغم ذلك لم يكن ليدع مكانه فى الطائرة بأى ثمن كان . « ولم يكن يدرى كيف يتخلص منها دون أن يفقد نفسه فى الوقت عينه . » استسلام لا أمل فيه . . . ويحدث فى أحيان قليلة قبل الهجوم مباشرة أن يعرف الطيار تلك الهنيهة من السلام العظيم ، سلام يعرفه أولئك الذين يحسون استعدادهم للموت ، وتلك هى البطولة الحقة ، بطولة من لا يحس بطولته بل يتهم نفسه بالضعف . رجال أبطال حقا ، أولئك الذين « كانوا يؤدون مهمتهم دون اندفاع ، ويكادون أن يؤدوها دون إيمان ، ذلك لأن المهمة نفسها قد محت فيهم كل اندفاع وكل إيمان . » رجال يجدر بنا أن نفضلهم ،

لهذا السبب ، على القطيع الانسانى . وذلك الذى يقبل دون بغض ودون وهم « أن يواجه الموت القاسى ، موت قاذفات القنابل ، ماذا عليه لو لم يسيطر على بطنه أو على مثانته : ذلك الرجل هو البطل » . وتلك حال شفرييه .

لا أثر للاحتقار ولا أثر للكره فى حنايا نفسه . و إنه ليذكر عدوه القاتل النازى ، فى أشد ساعات القتال ، ويذكر طقطقة اللحم البشرى وهو يحترق فى طائرة المسرشميت . وهو يرثى له إذ يفنى فى سبيل قضية غير عادلة ، و يرثى له إذ لا يتقن مهمته إلا ضد الانسانية . وأما عن شفرييه فانه سيموت دون شكوى بشرط أن يصل «إلى سماء خاصة ، وأن يستنشق هواء خاصاً ، وأن يذوق خبزاً خاصا » ، هواء الحرية وسماؤها وخبزها . وترى شفرييه الضابط المحترف والذى كان كل شئ فيه يؤهله لكراهة الألمانى لكونه ألمانيا ، وللوطنية الضيقة الأفق ، وللخوف من الشعب ومن الطبقات الدنيا ، متحداً مع أعضاء المقاومة السرية ، وتراه يحس قدرته على محو قريته التى ولد بها وعلى اعتبار وطنه مقصوراً على البلاد التى بقيت حرة . « ففى اليوم الذى وافق فيه على محاربة فكرة ما ، قد وسع نطاق فكرته عن الوطن فعبر بها الحدود وخلصها من كل ما قد يحددها . ور بما كان وطنى الحقيقى هو السماء لا الأرض ، كما قال لورين » ، صديقه الأسوأ منه حظا والذى مات فى إحدى ساعات الرحيل .

وهكذا نرى مزية هؤلاء الرجال ومزية هذه القصة . أهى قصة ؟ كلا ، ليست كذلك لو اعتبرنا « ثيسيوس » لأندريه جيد و«الباب الضيق» قصتين . ولا هى برواية رغم ما نراه فى بدئها من حبك روائى وما نلمحه فى ثناياها من عودة ظهور بعض الشخصيات ، وهى ليست مجموعة من الأقاصيص . ولاقصة حياة ذاتية (أوتوبيوجرافى) ، وليست مقالا ولا مؤلفاً أخلاقيا . ولنقل إنها كتاب فحسب . وإنى أفضل هذا الكتاب على كتاب « قواد الطائرات فى الحزب» الذى كتبه سانت إكسوبرى قبل موته . فلقد رأينا فى آخر كتاب سانت إكسوبرى صحائف مدهشة فى تفسير أسابيع الهزيمة فى يونيه ١٩٤٠ . إذ يراها كأنها عقاب سماوى ، فكانت بهذا تردد روح الهزيمة الفيشية . أما شفرييه فانه يرفض ذلك الدين الذى ساد أيام بتان ، ويبدو له أن فيه مساساً بالاله : « فان الله لا يفضل شيئاً على شئ . . . ولا يعرف حقل الرجل العادل بمقدار ما فيه من سنابل ،

ولا تروى مياه السماء أرض المؤمنين فحسب » . وإنى لأعترف بأنى أحب هذه الصراحة النيرة . فالقيم الأخلاقية لا تختار كأسعار البورصة بقصد المضاربة (وليس من المهم أن تصعد أو تنخفض) .

وربما لم يكن فى «الوادى السعيد» مزايا الأسلوب التى تكثر لدى مؤلف «الطيران ليلا» . فلغة سانت إكسوبرى أكثر طواعية لارادته وأكثر حساسية من لغة جول روا ، وهى لهذا تستولى علينا بطريقة أيسر . ومن ذا الذى ينسى بسمة التجارة فى « خطاب إلى أحد الرهائن » ؟ وإن سانت إكسوبرى لا يبدو غامضاً عندما يؤكد لنا أنه مستعد للقتال عن طيب خاطر « لينقذ صفة ما فى بسمة البحارة ، صفة فى بسمتك وبسمتى ، وبسمة الخادمة، لينقذ معجزة تلك الشمس التى جاهدت كل ذلك الجهاد منذ ملايين السنين لتنتهى أخيراً بوساطتنا إلى هذه الصفة لبسمة ناجحة » . وإن ترتيب الكلمات هنا ليساعد على إبراز المشاعر . ومن هنا يجئ خطر هذه الميزة للاحتفاظ ، إذ أنها تستطيع أن تجعل للأفكار السيئة سلطاناً علينا . ولا شئ من هذا عند جول روا ؛ فلغته ليست عاطفية ، ونادراً ما تكون ضعيفة بعض الضعف (« فى ذلك المساء لم يكن جو القداس غير عادى ») وهى دائماً مساوية لأولئك الذين تقص حياتهم وموتهم .

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

COMMENTAIRES AUTOUR D'UN GRAND LIVRE : LA PENSEE EUROPEENNE AU XVIII^e SIECLE

BERNARD GUYON

حول كتاب خطير

الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر[1]

فى صباح يوم من أوائل سنة ١٩٤٤ ، وفى باريس ذات الوجه العابس المكتئب ، باريس سنوات الحرب والاحتلال ، عندما أُنبئت أن بول هازار قد فاجأته المنية ، تولانى ذهول واغتمام ، وانتاب قلبى حزن عميق . شعرت أن فرنسا ربما لم تفقد بفقده « رجلا عظيما فذا » ، وعقلية ملهمة وهاجة ، من تلك العقليات التى تقلب أوضاع حياتنا وتحول مناهج تفكيرنا ، تحيط بها هالة من نور العبقرية ؛ ولكنها فقدت رجلا يندر أمثاله بين الرجال ، جديراً بالاعجاب « شريفاً » بكل ما يتضمن هذا اللفظ الجميل من معان فى اللغة الفرنسية : من أمانة هى أقصى ماتكون عليه الأمانة ، إلى تعلق بالحقيقة هو أشد مايكون عليه التعلق بالحقيقة ، تلك الحقيقة التى فى سبيل السعى إليها والبحث عنها أنفق جل حياته . كان يعمل بعزم وكد لا يعرفان الفتور ، وكان متواضع الخلق ، معتدل الطبع ، بعيداً عن كل هوى حزبى ، صافى الذهن ، نافذ البصيرة ، على ثقافة واسعة كان لا يفتأ يزيدها وينميها . وموجز القول إنه من النفر الذين يرفعون شأن أوطانهم ، أكثر من العباقرة — وأغلب مايصدر الشر عن العباقرة — ويعلون قدرها ، وينمون ثروتها العقلية ، ويهيئون الفرص الجديدة لاستمرار كيانها ، وذلك بآثارهم التى يتكابدون المشاق وينفقون السنين فى إعدادها وإنشائها ، لا يسمع لهم صوت ، ولايعلم أحد عنهم شيئاً .

وكان بول هازار — عندما مسه جناح الموت القاتم — قد بدأ يخرج من هذا الصمت وذلك الخمول ، ويذيع اسمه وينتشر فى الأوساط الفرنسية ويتجاوزها إلى بلاد العالم أجمع ، وقد فتحت له الأكاديمية أبوابها ، على

(١) كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

أثر كتاب أصدره هو غاية فى الإبداع عنوانه : «أزمة الضمير الأوربى فى القرن الثامن عشر » ، يتضمن آراء من شأنها أن تحدث انقلاباً فى بعض الاتجاهات والأهداف التاريخية المتوارثة ؛ ولكنه قبل ذلك بسنوات طوال ، كان قد احتل أرفع مكانة من قلوب الطلاب ، فرنسيين وغرباء ، يقبلون عليه فى ازدياد مستمر ، ويستشيرونه ويستمعون إليه كل الاستماع ، يكنون له غاية الحب ، مفتونين بعلمه الذى كان يعْرف طريقه إلى القلوب ، مأخوذين بواسع معارفه التى لم تكن يوماً من الأيام سبيلا إلى العدوان ، معجبين بحرصه على أناقة الأسلوب وسحر العبارة ، ذلك الحرص الذى يندر أن يوجد بين كبار أساتذة الجامعة .

كنت واحداً من السعداء الذين كانوا يتزاحمون ساعين إلى محاضراته فى السربون حوالى ١٩٢٢ ، والذين كانوا فيما بعد يحدقون به داخل قاعات الكوليج دى فرانس ، حيث كان يخلو إلى نفسه ، طارحاً عن ذهنه كل تفكير فى الامتحانات والتحضير لها ، ويواصل بحوثه العلمية فى ذلك الطريق الجديد الذى اشتقه وفرنان بلدنسبرجيه حديثاً ، أعنى طريق الأدب المقارن .

وكانت ندوته ، فى أيام الأحد ، ملتقى الشباب من فتيان وفتيات ، يأتون إليه من كل أنحاء العالم . ولست أعرف أحداً كانت أكثر بروزاً فى سلوكه منه تلك الصفة التى تعتبر على الرغم من بعض الظواهر ، لازمة من لوازم العقل الفرنسى ، أقصد القابلية للمؤثرات الخارجية .

كان أستاذاً قديراً ، وهذا أمر جدير بالذكر ؛ لأن القديرين من الأساتذة آخذون فى القلة يوماً بعد يوم . لم يكن « بليغاً » فى بلاغة كوزان أو حتى فى بلاغة برونتيير أو جول ليمتر ، بل كان يعنى أكثر ما يعنى بتكوين عقليات . كان حازماً جادا ، يجمع إلى الحزم والجد دعابة القول . لا يشعر سامعه مطلقاً بالسأم والضجر . وكنا نخرج من محاضرته ظافرين بالوفير الجديد من المعلومات ،مفعمين بالغبطةوالانشراح . وهو إن تميز بشئ فعلى الأخص بلباقته فى الإرشاد والتوجيه ، يسدى الضرورى من النصائح . ويجتنب العاثر من الخطوات ، ويتحاشى كل مسعى غير مجد ، وذلك فى رقة لفظ وعذوبة منطق ، من غير ما تهاون أو تسامح مرذول . يشحذ العزائم الواهنة ، ويحد من زهو المغرورين ، ويبعث الثقة فى قلوب الوجلين المترددين ، وكان

يعرف أيضاً كيف يقضى حاجة من هو فى حاجة إلى المادة فى تكتم وحذر . إن بول هازار لم يكن عقلا كبيراً فحسب ، بل كان أيضاً ذا قلب ذكى عظيم .

زرته قبل أن توافيه منيته ببضعة أيام ، ولم يكن هناك ماينذر بالفاجعة الوشيكة . لا شك أنه مثل غيره من رجال الفكر الفرنسيين قد أثرت فى أعماق نفسه مصائب قومه ، غير أنه كان يعلم أن لتلك المصائب نهاية قريبة . وكان صدره يجيش بالأمل ، شأنه فى ذلك شأن كل ذوى البصيرة من أبناء الوطن . وقد انتهز فرصة هذه السنوات التى اضطر فيها إلى السكون ، ليقبل على العمل بنشاط وحرارة كان لا يعهدها فى نفسه من قبل . وكان يتحدث إلى بحماسة الشباب عن مكتشفاته الحديثة فى تلك الميادين المظلمة من ميادين الفكر الصوفى فى القرن الثامن عشر ، التى شرع الآن يجول فيها . وقد أبدى لى على الأخص اغتباطه بانتهاء الجزء الثانى من تلك اللوحة الفنية الضخمة التى بدأ العمل فيها منذ عشر سنوات خلت ، والتى سيكون عنوانها : « حركة الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر » .

وها هو ذا الكتاب يظهر اليوم ، وقد وصل إلينا من فرنسا يثير فينا شعور الأسى والاعجاب معاً . وأريد الآن أن أقدمه فى كلمة وجيزة ، وأن أجلو المسائل العقلية الجليلة الخطيرة التى يريدنا أن نتأمل فيها .

قصد بول هازار فى هذه المجلدات الثلاثة (ومنها واحد للشروح ، والحواشى ، والأخيران للنصوص) . إلى دراسة تطور الحركة الفكرية فى أوربا ، مبتدئاً من حيث انتهى فى مؤلفه السابق ، أى من ١٧١٥ — تلك السنة التى انفجرت فيها « الأزمة » بعد أن ظلت طويلا مكبوتة كامنة — إلى الساعة التى أشرف فيها جيل جديد على الظهور ؛ليتجه ،عشية الثورة الفرنسية ، بالمسائل القائمة اتجاهاً غير اتجاهها ، ويحطم أصناماً غير التى حطمت ويعرض حقائق غير التى عرضت . فالمادة للمؤلف غزيرة مترامية الأطراف ، ومع ذلك فمؤرخنا يمتلك ناصيتها ، ويحيط بأشتاتها بسهولة تامة . وهو يظهر لنا بوضوح تاريخ الفكر فى هذه السنوات الستين ، عبارة عن قصة مجهود ضخم انتهى فى آخر أمره إلى إخفاق ذريع .

مجهود ضخم هو فى الوقت نفسه هدمى وبنائى . وعملية الهدم فيه منصبة على الدين المسيحى ، وكانت صيحة الهادمين : « لنسحق الرجس » . كلنا يعرف ذلك ، وتلك الظاهرة من تاريخ

هذا العصر ، معلومة لدينا أكثر من غيرها . ومزية بول هازار فى هـذا الجزء من كتابه ، أنه يجعلنا نحس ، بالناحية الفاجعة الحادة ، لهذا النزاع الفكرى البعيد المدى ، الذى لم يكن ، على حد تعبير الكاتب ، سوى « قضية الله » . ونجد ناحية طريفة أخرى فى كتابه ، هى أنه أخرج من الظلمة وخمول الذكر أولئك الذين طمستهم ظلماً وجوراً عبقرية فولتير وديدرو وأمثالهما ؛ لأنهم تولوا فى هذه القضية مهمة الدفاع ، نذكر منهم فريرون ، وباليسو ومن نهجوا نهجهما ؛ فقد بذلوا هم أيضاً جهداً محموداً ، لا ينقصهم الذكاء ولا تعوزهم الشجاعة ولا تخذلهم حدة الذهن وسرعة الخاطر .

وعلى أية حال ، لا يكفى أن تفصل الثوب وتقطع أجزاءه ، بل يجب أن تتم خياطته ؛ فماذا يستبدل بالمثل الأعلى المسيحى الذى رفض رفضاً نهائيا ؟ شرع الفلاسفة يبحثون عن مذهب إنسانى جديد ، مذهب إنسانى يكون الانسان فيه مركز هذا العالم ، ويقصى الله عنه إقصاء فعليا . لاشك أنه توجد أشكال متباينة للنظرية الإلٰهية ، غير أن هذه الأشكال كلها لا تجعل من الله إلا ذلك الكائن الأعلى القصى الذى لا يهتم أدنى اهتمام بالأحداث الحقيرة التى تمر بهذا العالم الأرضى وهو ما يتخذه الدين الطبيعى إلٰها له . إن هذا المذهب الانسانى الجديد يحصر جهوده ويوجهها نحو بناء مدينة للبشر ، وهو يستعين بالعلم لنشر السعادة فيها . فالعلم يفتح أمام الانسان آفاقاً لا حد لها من الاحتمالات ، فنرى بوفون يضع الانسان فى موضع المركز من عالم يكون هو ملكا عليه ، هذا فى حين يحاول مفكرون آخرون أن يبنوا الحق على أساس الطبيعة . ومؤلف « روح القوانين » الشهير له فى هذه المحاولة شأن عظيم . ويفكر غير هؤلاء فى مسائل الأخلاق ويخرجون من تفكيرهم بأن الأخلاق لابد أن تهدف كلها منذ اليوم إلى تحقيق السعادة ، وهم يردون إلى اللذة والشهوة اعتبارهما بعد أن أفهمتنا التعاليم المسيحية أن نحذرهما وأن نترفع عنهما . غير أن هؤلاء المفكرين يشيدون فى الوقت نفسه بالفضائل الجديدة من تسامح ومحبة للبشر ، ويجهدون أنفسهم فى سبيل تطبيق نظرية الأخلاق الطبيعية فى العلاقات بين سكان المدينة نفسها ، ويحلمون بالعقود الاجتماعية ، فى الوقت الذى يمجدون فيه مبادىء الحرية والمساواة ، ويحيطون مبدأ الملكية بنوع من الاحترام هو أقرب ما يكون إلى التقديس . والأمر الأخير

الذى لا يقل تأثرنا به عن تأثرنا بغيره من هذه المشروعات الطموح الواسعة . أننا بينما نرى الملوك لا يفتأون يشتبكون فى حروب تافهة دامية ، نجد رجال الفكر يرسمون الخطط لتشييد سلم دولى ، ويضع الأب دي سان بيير أسس أول عصبة للأمم .

يحشد بول هازار كل هذه الوقائع فى عدد من الفصول تمتاز بوضوحها وتركيزها ، وتبدو فيها فكرة البناء فى مجموعها عند هؤلاء المفكرين من رجال القرن الثامن عشر ، كوحدة متماسكة متناسقة ، من غير أن يتخذ الكتاب لعرض ذلك صبغة الرسالة العلمية الجافة . ثم يدرس المؤلف فى سلسلة من الفصول التكميلية ، ذيوع هذه الفكرة بفضل وسائل التعميم والنشر ، فينسب بطبيعة الحال شأناً عظيماً لموسوعة ديدرو ودالمبير الشهيرة التى دارت حولها معارك حامية الوطيس .

وفى المجلد الثانى الذى يحتوى وحده على الجزء الثالث كله تحت عنوان « الانحلال » ، يتناول بول هازار مسألة الإخفاق الذى انتهى إليه هذا المجهود الضخم . ويبدو لى هذا الجزء أكثر طرافة وأمتن من أى جزء آخر ، كما يبدو لى أن الكاتب شاء أن يضمنه آراءه الخاصة تحت ستار الجمود الواجب على المؤرخ الذى يريد أن يقف بل هو واقف فعلا موقف الموضوعية من كتابه. وإن القارئ ليشعر من خلال بعض الصفحات اضطراب نفس قلقة تبحث عن الحقيقة . ويطلعنا المؤرخ ، من غير أن يحرف فى النصوص أو أن يحملها أكثر مما تحتمل ، ومن غير أى هوى وأى تعسف ، يطلعنا أو بالأحرى يبرهن لنا — وقد استحال فى نفس الوقت فيلسوفاً — على الصعوبات ، المعقدة التى كان يصطدم بها حلم الفلاسفة . وهو يرجع كل هذه الصعوبات إلى خطأ فى أساس فهم معنى كلمة « الطبيعة » . فهناك تعارض بين الطبيعة والعقل نشأ عنه النزاع الهائل بين أصحاب المذهب التجريبى وأصحاب المذهب العقلى . وهناك تعارض بين الطبيعة والطيبة شجر عنه الخلاف حول طيبة الرجل الهمجى ومنافع أو مساوئ الحضارة . ونحن مدينون بقصة « كانديد » ، آية هذا العصر ، للعراك الذى احتدم بين أهل التفاؤل وأهل التشاؤم ، وهو واحد من أوجه النزاع الكبير بين فولتير وروسو . وهناك تعارض بين الطبيعة والحكومة الصالحة ، أدى إلى البدعة القائلة بالاستبداد المستنير . وهناك تعارض بين

الطبيعة والحرية . ونجد مونتسكيو ، وقد بدأ على أساس تعريف للقانون يقوم على الجبرية ، يسائل : كيف يصل إلى نظام تسوده الحرية .

ثم يتابع بول هازار تحليله ويصور لنا مطالب رجل العاطفة وموقفه إزاء هذا الجفاف البادى فى مثل أعلى فوق عقلى . ويتناول فى الفصول الثلاثة الأخيرة من مؤلفه الرائع المسألة الميتافيزيقية الأساسية ، فيظهر لنا ما كان من أمر ثلاثة من كبار الفلاسفة الإلهيين فى ذلك العصر : وهم : بوب ولسنج وفولتير ، وقد عجزوا عن أن يستبدلوا بالدين الذى يجدون فى هدمه ، ديناً آخر ، هو القدرية التى تدفعهم إلى مناهضة رجال الأكليروس مناهضة بلغت أقصى حدود السفالة ، وتذهب بهم إلى الإلحاد الصريح .

ونحن نرى من هذه النظرة التحليلية السريعة غزارة المادة فى هذا الكتاب . وأرجو أن أكون قد جعلت القارئ يلمس قوة التركيز والتأليف عند صاحبه ، والطريقة البارعة التى يمتلك بها ناصية مادته . أما الذى أرانى عاجزاً عن بيانه — مالم أستشهد بصفحات كاملة — فهى اللذة فى مطالعة الكتاب . وقد يبدو أحياناً أن هذه الصفحة أو تلك كلفت صاحبها عناء أكثر مما يجب لجاءت مهذبة فوق مايلزم . فالعيب الذى كان يخشى أن ينزلق إليه بول هازار هو المغالاة فى التأنق ، نتيجة الاهتمام المفرط برشاقة العبارة ، وقد وقع فى التجربة فكان يستجيب فى مؤلفه إلى هذا الإغراء . وكنا نود لو أنه أقلع قليلا عن أسلوب التكلف وأخذ أكثر بالأسلوب الطبيعى. غير أن من حقه علينا أن نبادر فنقول إن هذا العيب ليس فى الواقع إلا وجهاً واحداً لصفة نادرة تميز بها بول هازار ؛ فالعناية بتهذيب العبارة أصبحت من الندرة فى عصرنا إلى درجة أننا لا نستطيع أن نمر بدون حكم على هذه المآخذ الطفيفة .

والذى يجب أن نذكره قبل أن ننتهى من مديحنا هو ما امتاز به بول هازار من أمانة تامة فى الاستقصاء العلمى . وأخشى أن تفوت ملاحظة ذلك العدد الكبير من القراء الذين سيطالعون هذا الكتاب من غير أن يرجعوا إلى المجلد الثالث الخاص بالشروح والمراجع ، ويعتبر تكملة لا غنى عنها . ولا يسعنى إلا أن ألح فى توصية من سيثير فيهم مقالى رغبة الاطلاع على هذا الأثر ، أن يقتنوا كذلك المجلد الثالث . فهم لن يقتبسوا

منه درساً رائعاً فى منهاج النقد فحسب، بل سوف يقعون فيه على ذخيرة لاتفنى من الإرشادات النفيسة المتممة للبحث، كما سيجدون نقطة ابتداء تمهد لهم سبيل التعمق فى دراسة بعض المسائل التى عرض لها بول هازار، علهم يوفقون لحل جديد لها . وبمثل هذه البحوث المتصلة يتكوّن العلم ، فالعلم ليس بالأمر الجامد المستقر . إن العلم يصنع صنعاً .

ويبدو لى أن لكتاب بول هازار، على ما أحيط به من مظاهر الوقار والجد الملازمة لكل مؤلف تاريخى ، أقول يبدو لى أن لهذا الكتاب الذى يؤرخ لحركة الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر، قيمة عصرية حقة . ولهذا السبب فانى لا أعتبره أهم أثر أنتجه الأدب الفرنسى فى تلك الأشهر الأخيرة فحسب ، بل أقوى الآثار تنبيها للفكر وتحريكا للعاطفة .

ومن واجبنا ألا ننكر على أنفسنا أننا لم نكد نتقدم البتة منذ مائة وخمسين عاماً وها هو ذا الفكر الأوربى ماقتئ يواجه المعضلة نفسها : هل نستبدل بالمسيحية ديناً جديداً ؟ أم نبعث فيها حياة أخرى ؟ وإن عملنا على إزالتها فبماذا نعوضها ؟ وإذا كانت الخطوب المروعة التى أوشكت أن تهدم صرح الحضارة الغربية إلى الأبد قد انتهت ، فان المشكلة لا تزال قائمة كما هى ، وعلينا نحن رجال اليوم تقع تبعة حلها على ضوء تجارب الماضى .

والكتاب يركز انتباهنا كله فى هذه المسألة الأساسية ، غير أنه يثير أيضاً من المسائل الأخرى مالا نستطيع أن نقف إزاءه جامدين ، فهو يقرب إلى أذهاننا ومشاعرنا تلك الحقيقة التى تدعى « أوربا » . وليس الفكر الفرنسى هو موضوع الدراسة بل الفكر الأوربى . ولا بد أن يشعر الشاب الفرنسى عند قراءة هذا الكتاب بلذة هى لذة من يكتشف اكتشافاً حقا ، وذلك يرجع إلى ما فى هذا الأثر من تغير فى وجهة التاريخ . وسوف يكوّن هذا الشاب لنفسه عن تاريخ بلده الفكرى آراء جديدة ، لأنه سيجد هذا التاريخ ممزوجاً بتاريخ البلاد المجاورة يلقنه ويأخذ عنه فى الوقت نفسه ، عن طريق محسوس أو غير محسوس ، ولكنهما يكونان جزءا من حقيقة واحدة .

وسوف يشعر هذا الشاب بالغبطة و يملؤه الزهو عندما يدرك أن فرنسا وأوربا كانتا فى ذلك العصر تمتزجان فى ميدان الفكر امتزاجاً كليا ؛ وللمرة الثانية من تاريخ الحضارة الأوروبية ،

تشرف فرنسا على القارة كلها ، أما المرة الأولى فكانت فى تلك الفترة الباهرة التى تقع بين نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر ، والتى تعتبر بحق فترة إحياء ونهوض . ومما يثير فينا الاعجاب ، ويحبب هذه السيادة إلى قلوبنا على الأخص ، ويدعونا إلى الفخر بها جهرا ، أنها لم تشبها سيادة مادية ؛ فلا جيوشنا أغارت على أوربا ولا تجارنا غزوها ، بل رجال الفكر منا ورجال التربية ومتعهدو البساتين والطباخون فقط . وفى الوقت الذى كانت الهزائم المروعة تتلاحق على فرنسا ، الدولة الحربية البحرية المستعمرة ، وفى الوقت الذى كان فردريك الثانى ملك بروسيا ينكل بجيوشها فى روسباخ ، من الجميل حقا أن نرى أنوار المعرفة تنبعث منها كأسطع ماتكون ، وأن نرى فريدريك نفسه يجد غير لائق به أن ينظم شعراً لا يكون فرنسيا ، وأن نرى الأكاديمية التى أنشأها فى عاصمة ملكه قد اختارت لمباراة أدبية أقامتها موضوعاً عنوانه : « الأسباب التى تجعل من اللغة الفرنسية لغة جامعة عامة » .

ربما كنت قد أسهبت فى موضوع لايثير إلا اهتمام الفرنسيين ، فليغفر لى قارئى ذلك الإسهاب . أما بعد فليس موضوع مقالى إلا واحداً من موضوعات كثيرة يعرضها لنا هذا السفر النفيس مادة للتأمل . وإن هناك لموضوعات أخرى ليس إلى حصرها من سبيل ، ولكنى أرجو أن يكون ما ذكرت كافياً ليحفز القراء على مطالعته ، وهذا ماقصدت إليه من مقالى .

برنار جريده

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

ظهر حديثا

على باب زويلة قصة تاريخية للأستاذ محمد سعيد العريان (دار الكاتب المصرى)

كتاب رائع بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد، كتاب من هذه الكتب النادرة التى تظهر بين حين وحين ، فتحيى فى النفوس أملا ، وترد إلى القلوب ثقة واطمئناناً ؛ لأننا نشعر حين نقرؤه بأن الحياة الأدبية فى مصر مازالت خصبة قوية قادرة على الانتاج ، وعلى الانتاج القيم الممتع الذى لا تتردد مصر فى أن تفاخر به وفى أن تعرضه إذا عرضت الأمم الحية كتبها الممتعة وأدبها الرفيع .

كتاب لم يخرجه صاحبه إلا بعد جهد أى جهد، واستقصاء أى استقصاء، وعناء عنيف لا يحب أن يحتمل بعضه كثير من كتابنا الذين يحبون الطرق المطروقة والسبل المألوفة ، ويكرهون أن يشقوا على أنفسهم بالقراءة المضنية والبحث المتصل ، ثم بالتفكير فيما قرءوا والاستنباط مما بحثوا عنه ، ثم بالعرض المتقن لما استنبطوا وبالإبانة الرائعة عما أرادوا أن يقولوا لقرائهم .وكل هذا قد فعله الأستاذ محمد سعيد العريان دون أن يظهر أحد على ما كلف نفسه من مشقة ، وما حمل عليها من جهد ، وما أخذها به من شدة فى القراءة والبحث والاستقصاء ، ثم بالفقه الجاد الحازم الذى لا يعرف ضعفاً ولا تخاذلا ولا إيثاراً للعافية ولا كلفاً بالنجح اليسير .

وقد أراد الأستاذ العريان أن يعرض طرفاً من تاريخ مصر، من تاريخها العسير المؤلم الذى تكثر فيه الحوادث وتلتوى بالمؤرخين وبقراء التاريخ جميعاً . وهذا الطرف الذى يمثل انقضاء سلطان المماليك فى مصر ، وزوال الاستقلال المصرى بأيدى الفاتحين من الترك العثمانيين . ويكفى أن أذكر هذا الموضوع ليشعر القارئ بعسره ومشقته ،ومايفرض على من يريد تحصيله وتمثله من جهد وعناء . ثم لم يرد الأستاذ العريان أن يضع كتاباً فى تاريخ هذا العصر من عصور مصر يعرض فيه الحوادث عرضاً دقيقاً مستوفياً للشروط التى يحرص المؤرخون على استيفائها ، ولم يرد أن يتحدث إلى المؤرخين وحدهم ؛ وإنما أراد أن

يتحدث إلى المثقفين جميعاً ، فآثر مذهب القاص على مذهب المؤرخ ، وأعمل خياله فى الوقت الذى أعمل فيه عقله ، فأضاف بذلك جهداً إلى جهد وعناء إلى عناء ، ووفق فى الأمرين جميعاً توفيقاً أعترف بأنى لم أشهد مثله فى الأعوام الأخيرة التى خيل إلينا فيها أن الإنتاج الأدبى فى مصر قد أفسده حب السهولة ، وكاد يرده إلى العقم وكسل الكتاب والقراء جميعاً .

أما من الناحية التاريخية فقد بدأ المؤلف حديثه بتلك السنين المضطربة التى انتهى فيها ملك السلطان قايتباى بين طمع الطامعين من الامراء والولاة ورؤساء الجند من المماليك، ومضى فى طريقه حتى صور أبرع تصوير وأقواه ما كان من اختصام هؤلاء الأمراء والولاة والرؤساء حول العرش أولا ، وحول المنافع القريبة والبعيدة بعد ذلك ، وما كان من تولية وعزل ، ومن تتويج وخلع ، ومن أسر وقتل ، وما كان من كيد فى القصر وخارج القصر ، وما كان يجرى على ألسنة الشعب من حديث ، وما كان يضطرب فى قلوبه من أمل ، وما كان يخامر نفوسه من يأس ، حتى ارتقى السلطان الغورى إلى عرش مصر، فرد إلى الملك أمنه وإلى السلطان استقراره ، ولكنه روع النفوس وملأ القلوب هلعاً وفزعاً ولوعة وحسرة ، لإسرافه على الناس فى الظلم وإسرافه على نفسه فى البخل ، وتهالكه على جمع المال ، يأخذه بحقه ويأخذه بغير حقه ، ويطلق أيدى أعوانه فى أموال الرعية حتى يعم الفساد وينتشر الخوف ، وتظلم الحياة. ثم يستأنف الكيد حول هذا السلطان الشيخ فى القصر وخارج القصر ، وفى مصر وخارج مصر ، ثم ينتهى الأمر إلى الكارثة حين تشب الحرب بينه وبين العثمانيين ، وحين تنهزم الجيوش المصرية ، لاعن ضعف ولا عن جهل ، ولكن عن خيانة السادة والقادة والرؤساء . ثم تكون المقاومة الأخيرة الرائعة التى يبذلها شعب قد لقى من ظلم المماليك شرا عظيما ، ولكنه على ذلك مؤثر لاستقلاله حريص عليه ، يفضل أن يظلمه ملوكه وسلاطينه على أن يتحكم فيه الأجنبى، ولا تطيب نفسه عن هذه الإمبراطورية العظيمة ذات الأطراف المترامية فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغرب ، وذات الألوية المنتشرة على البحرين جميعاً . ولكن المقاومة لا تجدى على هذا الشعب البائس شيئاً ، لأن المماليك قد نحّوه عن الأمر ، فلم يعتمدوا عليه فى تدبير الملك ، ولم يقيموا سلطانهم على

إرادته ورضاه ، ولم يلتمسوا عنده الجنود المدربين ، وإنما استغلوه استغلالا ، ولم يحكموه لمصلحته هو ، وإنما حكموه لمصلحتهم .

هذا كله يصوره المؤلف تصويراً رائعاً، يروع بصدقه وقوته ودقته وقرب مأخذه وبعده عن العسر والالتواء . وأما الناحية الخيالية ، فليست أقل من هذه الناحية التاريخية روعة وجمالا ، ولعلها أن تكون أسحر منها للقلوب وأخلب منها للعقول . وأى غرابة فى ذلك وطبيعة الخيال البعيد القوى أن يسحر القلوب ويخلب العقول ويشغل القارئ عن نفسه أثناء القراءة وبعد انتهاء القراءة .

والكاتب يبدأ قصته فى ذلك الغور الذى كان مستودعاً يجد فيه المماليك مادتهم من الرقيق الذين يختطفون أو يختلسون أو يؤخذون عنوة ثم يجلبون إلى القاهرة ليتعلموا فيها فنون الحرب والحكم ، ثم ليصبحوا جنداً وقادة وأمراء وملوكاً وسلاطين ، وليدبروا أمر هذه الإمبراطورية الواسعة البعيدة الأرجاء .

نحن إذن فى هذا الغور نشهد أماً تعطف على ابنها الصبى بقلب يملؤه الحنان والحسرة . فهذا الصبى وحيدها وهو عزاؤها عن أبيه الذى ذهب يطلب ثأر والده ، فلم يعد إلى إمرأته منذ عشر سنين ، حتى يئست من عودته ، ووقفت حبها وأملها على هذا الصبى . فهى ترعاه يقظان ، وتحرسه نائماً ، وهى كذلك ذات ليلة إذ تحس نبأة ، فتخرج من خيمتها مستقصية ثم تعود فلا تجد ابنها ، لأنه قد خطف كما يخطف غيره من أبناء الغور . وقد أقسمت أمه لتسعين فى طلبه حتى تدركه أو يدركها الموت .

من هنا تبدأ القصة ، ومن هنا يسلك بنا الكاتب طريقين متوازيتين : إحداهما طريق الصبى طومان الذى يذهب به خاطفه إلى بلاد الروم ثم إلى الإمبراطورية المصرية حيث يباع لأمير القلعة فى حلب ، ثم يمضى مع سيده الذى يصبح عمه ذات يوم . وما أحب أن أفصل ذلك للقراء ؛ فقد ينبغى أن يلتمسوا تفصيله فى الكتاب . وما يزال الصبى طومان يمضى فى طريقه إلى المجد ، محتملا للخطوب ، مصابراً للأحداث ، مذللا للعقاب ، حتى يرقى عمه عرش مصر ، وحتى يصبح هو مستشاره وذراعه اليمنى فى تدبير الملك ، ثم خليفته على مصر حين يذهب للقاء العثمانيين ، ثم خليفته على العرش بعد أن يقتل فى الموقعة ، ثم زعيم المقاومة المصرية حتى يتفرق عنه الجند

منهزمين ، ثم طريداً يغدره أعرابى فيسلمه إلى سلطان العثمانيين ، ثم أسيراً يطاف به فى القاهرة ، ثم قتيلا قد علقت جثته على باب زويلة .

أما الطريق الثانية فهى طريق الأم التى خرجت من الغور تطلب ابنها ، فهى تمر ببلاد الروم ، ثم بالإمبراطورية المصرية ، وهى تلقى فى هذه الطريق أهوالا وأهوالا ، وهى لا تعرف مكان ابنها إلا بعد أن يقتل الغورى ويصبح ابنها سلطاناً . وهى تسعى لتلقاه ، وتبلغ مصر مع المنهزمين ، ولا تتيح لها الحرب لقاء ابنها على كثرة ما تحاول من ذلك ، ولكنها تراه ذات يوم وفى آخر طريقها وفى آخر طريقه جثة معلقة على باب زويلة .

وهاتان الطريقان لا تخلصان لطومان وحده ولا لأمه وحدها ، وإنما هما ممتلئتان بضروب مختلفة من الناس ، وبألوان متباينة من الأحداث والخطوب ، وبفنون متمايزة من الشخصيات : شخصيات الرجال الطامحين الطامعين ، والضعفاء الأذلاء ، والذين يترددون بين العزة والذلة ، والذين يكيدون فى سبيل المال ، والذين يكيدون فى سبيل الحب ، والذين يكيدون فى سبيل السلطان ، والذين يعيشون للذاتهم ، والذين يعيشون لعبادة الله والتخلص من أوزار الحياة الدنيا . وشخصيات النساء اللاتى يكدن ليدخلن القصر ، ثم يكدن ليبلغن العرش ، ثم تخرجهن الثورات من القصر ، فيكدن للعودة إليه ، وتنزلهن الفتن عن العرش فيمكرن ليرقين إليه مرة أخرى . كل هؤلاء وغير هؤلاء تكتظ بهم الطريقان .

والأشخاص فى هذه القصة كثيرون ، قد تفرقت بهم الطرق والتوت بهم المذاهب ، واختلفت بهم وعليهم الأهواء ، وهم مع ذلك لا يصرفون القارئ عن قراءته ولا يردونه عن غايته ، وإنما يدفعونه إلى هذه الغاية دفعاً ، ليس منهم إلا من يثير فى القارئ عاطفة حب أو بغض ، أو رغبة فى الاستطلاع ، أو تذكراً لشخصيات أخرى من شخصيات التاريخ ، أو تفكراً فى بعض الأحداث ، والخطوب التى يشهدها هنا وهناك فى حياة العصر الحديث .

قلت لك إنه كتاب رائع بأدق معانى الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد .

وإذا كان الناقد مستشاراً للقراء ، وإذا كان المستشار مؤتمناً كما يقال ، فإنى أشير على القراء أن يقرءوا هذا الكتاب ، فسيجدون فيه أدباً رفيعاً

وتاريخاً صحيحاً وتحليلا دقيقاً وأسلوباً رصيناً ، لولا هذه الإنات التي يسرف بها الكاتب على نفسه وعلى الناس ، لا فى هذا الكتاب وحده ، بل فى كل مايكتب ، وأكاد أُملى فى كل مايقول .

طه حسين

كيريليانا دراسات مختلفة بمناسبة مرور ألف وخمسمائة سنة على وفاة القديس كيرلس الاسكندرى ، ٤٤٤ — ١٩٤٤ ، فى ٦٠٠ ص ، ٥و١٩×٥و٢٥ سم ، (دار الكاتب المصرى ١٩٤٧)

KYRILLIANA, *Spicilegia edita Sancti Cyrilli Alexandrini XV recurrente sæculo* — Etudes variées à l'occasion du XVe centenaire de Saint Cyrille d'Alexandrie (444-1944).

إن للمواظبة والأناة وطول البال جزاء فى هذه الدنيا سيما إذا تسلطت على موضوع علمى وتضافرت على تحقيق أمنية سامية انطوت فى سريرة القلب . لقد ظهرت فى خلال هذا الشهر « كيريليانا » وهو كتاب يجمع بين دفتيه عدة دراسات علمية من تاريخية ولاهوتية وفنية وأثرية لعدة علماء أجلاء قاطنين فى الشرق الأوسط بمناسبة مرور ألف وخمسمائة سنة على وفاة القديس كيرلس الإسكندرى (المتوفى سنة ٤٤٤) . فقد حالت ظروف الحرب دون إصدار هذه المجموعة سنة ١٩٤٤ ، ولكن لم تفل العراقيل عزم الأستاذ الأب سانى باستى مدرس اللاهوت فى الاكليريكية الفرنسيسكانية الشرقية فى الجزيرة ، بل زادته تمسكا بمشروعه الجليل . ولا غرو أن وجد لدى إدارة دار الكاتب المصرى خير معوان لتحقيق أمنيته ؛ إذ قامت هذه الدار بطبع الكتاب طبعاً أنيقاً يعد فتحاً جديداً فى باب النشر فى مصر . فلم يوجد حتى الآن فى مصر إلا مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية لطبع الكتب العلمية التى تحوى ، زيادة عن اللغات الغربية الحديثة واللغة العربية ، اليونانية والقبطية والمصرية القديمة . أما الآن فقد برهنت دار الكاتب المصرى أنها جديرة بأن تقوم ، مع المعهد الفرنسى ، بمهمة طبع بعض الكتب العلمية التى تستوجب دقة فنية خاصة وتقديمها فى ثوب قشيب خلاب يتجلى فيه الذوق الفنى مع الدقة العلمية . وهذا مما يفرح له كل من يريد الخير لبلادنا ويرجو لها التقدم المتواصل فى نشر الثقافة العالية .

هذا من جهة الشكل . أما من جهة الموضوع فاننا نغتبط كل الاغتباط لإبراز سفر مثل « كيريليانا » إلى حيز الوجود . وهذا لأن القديس كيرلس الإسكندرى مصرى ولد ونضج وعمل فى القطر المصرى طيلة حياته . وكل ما يمت إلى تراثنا الثقافى والروحى بصلة لا يسعنا إلا أن نقبله بترحاب وأن نشيد به . فقد حان لنا أن ننكب على تاريخنا فى مختلف عصوره ، وأن نستشف من وراء ثناياه عظات عبراً تزيدنا ثقة بأنفسنا وتشارك فى تكوين شخصيتنا القومية العصرية . زد على ذلك أن الأبحاث التى وردت فى هذا الكتاب قد دبجتها أقلام شخصيات ممتازة فى ميدان العلم ، أخذ كل منها يحلل ناحية من نواحى شخصية القديس كيرلس أو يصف بعض مظاهر البيئة التى عاش فيها . ولئن أردنا أن نحلل كل هذه المقالات تحليلا مسهباً لضاق بنا المقام . فالكتاب أعظم من أن يوفى حقه فى أسطر . فهو يستحق أن يكون فى مكتبة كل من يهتم بتاريخ مصر الدينى وتراثها الثقافى . غير أننا استصوبنا أن نشير ، ولو بطريقة عابرة ، إلى أهم مقالات هذا السفر الغزير المادة لعلنا نلفت نظر قراء مجلة « الكاتب المصرى » الغراء إلى بعض مواضيع من شأنها أن تثير اهتمامهم .

أما المقالات فهى مكتوبة بلغات ثلاث منها العربية ومنها الفرنسية ومنها الإيطالية مع بعض نصوص يونانية وقبطية . افتتح الكتاب سيادة القاصد الرسولى بكلمة غزيرة المعنى على إيجازها ، بهذا الأسلوب الأخاذ الذى هو سر طريقة المنسنيور أرثر هيوز وقد نوه فيها بضرورة اتحاد الكنائس ، عملا بكلمة السيد المسيح : « ليكونوا واحداً » .

ثم أدرجت فى الكتاب براءة البابا بيوس الثانى عشر — بالعربية والفرنسية — الخاصة بالقديس كيرلس فخر الكنيسة الشرقية ، والتى ظهرت سنة ١٩٤٤ . ثم أخذ الأستاذ الأب امبروجيو ريدولفى يوضح (بالايطالية) صورة القديس كيرلس الروحية على ضوء هذه البراءة وما سبقها من نصوص رسمية أخرى صدرت من السلطات الدينية الرومانية . أما موقف القديس كيرلس من المجمع الأفسسى فقد كان موضع اهتمام الأب نيرون اليسوعى ، أستاذ تاريخ الكنيسة فى جامعة بيروت . وقد حاول فى هذا البحث أن يدافع عن بعض مواقف غامضة للقديس كيرلس كانت قد أثارت شيئاً من الريبة لدى نفر من المؤرخين (مقالة بالفرنسية) .

ويلى هذه الأبحاث مقال طويل

غاية فى الدقة (بالعربية والفرنسية) لأبوين من رهبان حريصا فى لبنان ، عنوانه « القديس كيرلس ومعضلة اتحاد الكنائس » . وهو بحث تاريخى مستفيض آلى المؤلفان على نفسهما ألا يخوضاه إلا بروح خاصة دعواها « الروح الاتحادية » بخطتها التاريخية المحضة . وقد وصلا إلى هذه النتيجة : « إن حياة الكنيسة مدة القرون العشرة التى ظل فيها الشرق والغرب متحدين لا بد أن تقدم لنا أساساً راهناً ، متفقاً عليه ، نسند إليه جدالا جديا وفعّالا حول المعضلات الاعتقادية واللاهوتية التى تفصل بين الكاثوليك والأرثوذكس » . وقد أشارا إلى أن الفريقين يوجدان ، فى مسألة الاتحاد ، تجاه حكمين لا مناص منهما : مسألة خلاص النفس ، ومسألة إرادة الضمير يجب أن يتلاشى أمامهما جميع الاعتبارات العالمية . حبذا لو كانت تتحقق أمنية هذين الكاتبين النزيهين وأن يكون نداؤهما للوحدة مسموعاً لدى الجميع . . . وقد ألحق بالمقال مجموعة وافرة من المصادر التاريخية .

ويليها بحث بالايطالية لاهوتى للأب باستى فى آراء القديس كيرلس الخاصة بالمسيح . وللمرحوم الأستاذ هنرى مونييه Henri Munier ، سكرتير الجمعية الجغرافية سابقاً ، بحث بالفرنسية غير تام فى مسقط رأس القديس كيرلس (وهو على ما يلوح المحلة الكبرى) . وقد كرس الأب أبيل الدومينيكى ، الأستاذ فى المدرسة الكتابية بالقدس Ecole Biblique de Jérusalem مقالا مهماً بالفرنسية عن « صلات القديس كيرلس بفلسطين » . والأب أبيل أكبر إخصائى فى جغرافية فلسطين وتاريخها ، وقد توفر على دراستهما نيفاً وخمسين سنة ؛ وقد أصبح كتابه عن « جغرافية فلسطين » من المراجع التى لا يستغنى عنها فى هذا الباب .

وقد ساهم الدكتور دريوتون ، المدير العام لمصلحة الآثار المصرية فى هذه المجموعة ببحث (بالفرنسية) عن معلومات كيرلس الإسكندرى الخاصة بالديانة المصرية القديمة . وقد انتهى إلى أن المصريين المثقفين من أهل القرن الخامس كانوا يلجأون إلى مؤلفات اليونان الأقدمين للوقوف على أسرار آلهتهم القومية . والقديس كيرلس عندما كان يقتبس معلوماته فى الديانة القديمة من مؤلفات فلوترخوس وفورفوريوس لم يكن إلا متبعاً مألوف عصره .

وللأب نيولفو بحثان (بالايطالية):

الأول فى نظرية التهذيب والتعليم عند القديس كيرلس ، يدرس فيه تطور مدرسة الإسكندرية المسيحية ومقارنة منهج التعليم فيها مع طرق التعليم الأخرى . والآخر عن « كيرلس ودانت » حاول فيه أن يفحص عن مدى تأثر الشاعر الايطالى بالأفكار الشرقية خصوصاً بأفكار مدرسة الإسكندرية والمذهب الكيرلى .

أما تأثير القديس كيرلس فى طقوس الكنيسة الشرقية فقد خصص له بحثان (بالفرنسية) : بحث موجز للأب طويل ، مدير المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك بالقاهرة ، عالج الموضوع من وجهة الكنيسة البيزنطية ، ذاكراً فيه بعض النصوص اليونانية التى تتغنى بفضائل العالم الإسكندرى ، وبحث مسهب ، للأستاذ يسى عبد المسيح ، جمع فيه النصوص القبطية التى تعزى إلى القديس كيرلس .

وأخيراً بحث بالفرنسية مسهب علمى متين ، مزين بصور تخطيطية دقيقة للأستاذ الدكتور إسكندر بدوى من جامعة فؤاد الأول ، فى « الكنائس المصرية الأولى إلى عهد القديس كيرلس » ، وقد قسمه إلى قسمين : قسم عام يتناول نظرة تاريخية شاملة وتعيين زمن الكنائس وشروط بنائها والعوامل التى أثرت فيها وتصميماتها العامة وطرق تشييدها وزخرفتها ؛ والقسم الثانى يعالج بعض الكنائس والأديرة التى لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم فى مريوط وسوهاج ودندرة وصقارة وأبى منس ومصر القديمة . ولو سمحنا لنفسنا أن نبدى رجاء فهو أن يتحفنا الأستاذ بدوى ببحث عربى شامل للكنائس والأديرة المصرية نحن فى حاجة إليه . والدكتور بدوى خير من يستطيع أن يقوم بهذه المهمة .

هذه هى «كيريليانا» : تحفة كما يتضح من مجرد سرد المقالات . فاننا نرجو لها أحسن قبول ، مع الأمل أن تكون رسالة خير بين أبناء الوطن الواحد ، موجهة إعجابهم نحو شخصية مصرية فذة من أجداهم ، مشيرة انتباههم نحو تراثهم المجيد ، فاتحة باباً جديداً من الدراسات العلمية النزيهة الهادئة ، واضعة صفحة ناصعة فى تاريخنا الذى هو أعظم من أن تستنفد ذخائره عزائم أولاده أجمعين .

الأب قنواتى

تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي للدكتور حسن ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة فؤاد الأول . الجزء الثالث (مكتبة النهضة المصرية)

هذا هو الجزء الثالث من كتاب التاريخ الاسلامى ، أو الأجدر أن نسميه الموسوعة التاريخية ، التى أخرجها الدكتور حسن إبراهيم حسن ، أستاذ التاريخ بجامعة فؤاد الأول وعميد كلية الآداب السابق ، ليكون مرجعا جديداً فى التاريخ الإسلامى يضاف إلى الكتب القديمة التى تركها السلف أساساً ومرجعاً للتاريخ القديم . وهو يتميز عن هذه الكتب بحسن التبويب والتقسيم ، وبالاجمال دون الاسترسال ، وبالاقتصار على كل ما يفيد القارئ المثقف والمتعلم ، مع إهمال كل ما يشك فى صحته وكل مرجوح من الروايات ، هذا مع ذكر الأسانيد التى رجع إليها المؤلف ، وهى مئات الكتب العربية والأوربية ، والمخطوطات ، يذكرها المؤلف ويدعم آراءه فى كل صفحة من صفحات كتابه بهذه الأسانيد ، معاوناً القارئ بذلك على الاستزادة من التوسع فى أية مسألة إن أراد .

وقد صدر الجزء الأول من هذه الموسوعة فى سنة ١٩٣٥ وهو يبحث فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والحضارة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، وكان مقسما فى خمسة أبواب . وقد علمنا أن هذا الجزء قد نفد وتصدر الطبعة الثانية منه قريباً بعد أن زيد فيه حتى صار عشرة أبواب وأدخلت عليه إضافات كثيرة .

وظهر الجزء الثانى من هذه الموسوعة فى سنة ١٩٤٥ وهو يعالج العصر العباسى الأول (من سنة ١٣٢ إلى ٢٣٢هـ) ، وكان فى ثمانية أبواب .

أما الجزء الثالث من هذا التاريخ الذى صدر أخيراً فهو يبحث فى العصر العباسى الثانى (من سنة ٢٣٢ إلى ٤٤٧هـ) وهو يشمل عهد المتوكل إلى قيام الدولة السلجوقية . ولم يقتصر فيه على تاريخ البلاد الشرقية وحدها ، بل تكلم عن مصر والمغرب والأندلس . وهذا الجزء من هذه الموسوعة يقع فى عشرة أبواب ، أولها عصر نفوذ الأتراك ، ثم عصر أمير الأمراء ثم عصر بنى بويه فى العراق ، ثم الكلام عن الدول المستقلة والحركات السياسية والدينية والعلاقات الخارجية

والحالة الاقتصادية والثقافة والفن والحالة الاجتماعية .

ولا نعود للتنويه بما فى هذا الجزء من الفهارس والمراجع التى تدل على دقة البحث وسعة الاطلاع ، مما يجعل لهذه الموسوعة قيمة خاصة بحيث لا يستطيع الاستغناء عنها كل باحث فى التاريخ . فالدكتور حسن إبراهيم حسن قد خدم التاريخ الإسلامى خدمة كبيرة بإخراجه هذه الموسوعة الكبيرة التى نرجو أن تتم فى القريب العاجل .

حرب البترول فى الشرق الأوسط للدكتور راشد البراوى (مكتبة النهضة المصرية)

هذا البحث الجليل يحيط بمسألة البترول التى أصبحت على قول المؤلف « ذات أهمية بالغة فى السياسة الدولية » . ولقد صار « التسابق على امتلاك موارده أو السيطرة عليها طابع العصر ، وهو تسابق تستخدم فيه كافة الأسلحة والأساليب » . وقد تكلم المؤلف فى الفصل الأول عن زيت البترول والشركات الكبرى ثم انتقل إلى بترول الشرق الأوسط وعالج الامتيازات الاحتكارية وبداية الصراع على البترول ، ثم احتكار البترول فى القطر المصرى ، ثم الموصل بين انجلترا وفرنسا وعودة الموصل إلى العراق ، والرأسمالية البريطانية وسيطرتها على بترول العراق وإيران ، والحد من الاحتكار الانجليزى والنضال على بترول الشرق الأوسط بين انجلترا وأمريكا ، واطراد هذا النضال وسياسة المحور ثم سياسة روسيا .

ووصف الكاتب فى نهاية بحثه الشائق الطريق أمام الشرق وبعض أساليب مكافحة شركات البترول .

حسن محمود

فى مجلات الشرق

الأدب ينهار !

يشفق الأستاذ أديب مروّة أن يكون الأدب صائراً إلى الانهيار ، فى مقال له بمجلة « المعهد » التى تصدر فى صور – لبنان ، عنوانه « دولة الأدب فى طريق الانهيار » ، يقول فيه :

« ليس أهون على المتتبع فى أيامنا الحاضرة من ملاحظة انصراف الناس – على العموم – والرأى العام المثقف، عن مطالعة كل ماله علاقة بالأدب إلى ماتقدمه الصحافة من هذا الخليط العجيب من المعلومات والأنباء ، والحكايات الساذجة . . . هذه الألوان التى طغت على ما سواها من الأغذية الفكرية التى تتطلب شيئاً من التعمق والروية والتمحيص ، بما فى ذلك الأدب والشعر والفلسفة . . . »

ثم يوازن الكاتب بين عدد القراء الذين يقبلون على الآثار الأدبية الرفيعة والقراء الآخرين الذين يقبلون على طائفة من المجلات المصرية سماها بأسمائها ، فزعم أن الأولين لا يزيدون على واحد إلى كل مائة من قراء تلك المجلات المبتذلة الداعرة . ثم يأخذ بعد هذه الموازنة فى التماس أسباب هذا الانهيار الذى يصفه ، فيرده فى تحفظ إلى الأدباء الكبار الذين انصرفوا عن الأدب إلى الصحافة التماساً للرزق من بابه الواسع ، أو إلى طبيعة العصر الذى تسيطر عليه المادة من جميع نواحيه وشعاره السرعة ، أو إلى أثر السياسة التى استأثرت باهتمام الناس فى هذه السنين الأخيرة وصرفتهم عن الأدب بطبيعة الحال .

تعاون الصحافة العربيـــة

ونشرت مجلة «المعهد» فى العدد نفسه ما يأتى :

«شجعت مجلتا «الكتاب» و«الكاتب» زميلاتهما المجلات المصرية على الحد من أنانيتها بالتعاون مع مجلات الأقطار الشقيقة ، وقد اقتدت بهما بعض تلك المجلات ! أليس هذا فتحاً جديداً سجلت امتيازه هاتان المجلتان الراقيتان ؟ »

قبس من المغرب

وهاتان مجلتان قد وردتا إلىّ من المغرب ، وما قرأت شيئاً من مجلات المغرب منذ بعيد . وكلتا المجلتين تصدر عن تونس ، وكلتاهما مؤرخة ، (أكتوبر — نوفمبر سنة ١٩٤٦) ، ونحن الآن فى شهر مارس من سنة ١٩٤٧ . ما أبعد الشقة بين البلدين إذا كانت مجلات تونس لا تصل إلى القاهرة إلا بعد خمسة أشهر من صدورها هنالك !

وحدثت صديقى المغربى حديث هاتين المجلتين اللتين ظلتا فى حقيبة ساعى البريد بين تونس والقاهرة خمسة أشهر . . . فغامت على وجه صديقى سحابة من الهم وهو يقول متكلفاً الابتسام : إنك يا صديقى أسعد حظا من إخوان لك هنالك فى المغرب لم تصلهم رسائلك ولا جرائدك ، ولا مجلاتك ولا شئ من مطبوعاتك ، منذ سنة ١٩٤٠ . . . لقد وصل إليك بريد المغرب الثقافى بعد أن ناء بحمله ساعى البريد خمسة أشهر ؛ فليت المغرب يتلقى بريد الشرق الأدنى الذى يحمله ساعى البريد إليه منذ ست سنين أو يزيد ! إن المغرب يا صديقى لم يقرأ كتاباً عربيا واحداً من مطبوعات الشرق منذ سبع سنين ، إلا مايعرض له فى السوق السوداء ؛ وللكتب العربية فى المغرب سوق سوداء لعلها أكثر رواجاً من سوق الخبز فى اليونان ! لأن الفرنسيين فى المغرب ، يحظرون على المغاربة أن يقرءوا كتاباً عربياً فى ضوء النهار ! . . .

فما أسعد حظى إذن وبين يدىّ عددا أكتوبر سنة ١٩٤٦ من مجلتى « الثريا » و « الباحث » .

أفيريد القراء أن أعرض عليهما بعض ما قرأت فى هاتين المجلتين الناهضتين ؟

بحسبى أن أنظر فى غلاف مجلة الثريا لأرى قلم « الرقيب » — حتى فى الصفحة الأولى من المجلة — قد عبث ما عبث ، فالتوت السطور وتباعد مابين الكلمات ، لأن هنا صورة زعيم من زعماء المغرب لا ينبغى أن يقال فى التعريف به إنه زعيم حزب « الشورى » أوحزب « الاستقلال » وكلمتا « الشورى والاستقلال » كلمتان بغيضتان إلى الاستعمار الفرنسى فى المغرب لا ينبغى أن تقع عليهما عين عربى هنالك ولا فى

دروس التهجى والمطالعة ؛ ومع ذلك ، فلا يزال هنالك أدباء وشعراء يكتبون وينظمون يقاومون القهر الفرنسى بقوة الروح العربى المتوثب ؛ ولا زلنا نقرأ مباحث ممتعة فى مجلة «الثريا» لمثل الأديبة الفاضلة عائشة بنت عمر عن « المرأة التونسية فى مفترق الطرق »، ولا نزال نقرأ شعراً فى مجلة «المباحث» للسيد على بن محرز يقول فيه :

الصبح تبين فرقده
والشرق توحد مقصده
فهلم نشارك وثبته
ونمد يداً لنعاهده
الحق تعزز جانبه
وأباة الضيم تعاضده
عاهدنا الله لننصره
صدقاً والفعل يؤيده

قل جاء الحق وصولته
فجر الاسلام بدا غده
بالعزم سنرفع رايته
وبناء النصر نشيّده

وظيفة الأديب

وفى عدد مارس من مجلة «الأديب» كلمة للأستاذ عبد الله برى عنوانها « وظيفة الأديب فى الشعب » يقول فيها :

« إن الأديب الشعبى مظهر من مظاهر التفوق فى معنويات الاجتماع ، فمن واجبه أن يفهم وظيفته فى البعث، ومكانته فى التدريب ؛ لكى يفهم الحى الناطق أن الأديب هو فوق النظام ؛ لأنه هو الذى وضع النظام، وأنه فوق الدولة ؛ لأن الدولة تتعهد السياسة وما فيها من فساد ، أما هو فيتعهد الأخلاق والمبادئ ، ولولا هذه لفسد ما فى الكون جميعاً .

« وليس كبيراً ألا يقدر الشعب مواهب الأديب ، وألا تمده الحكومة فى سعيه الخالق ؛ فوظيفته أن يبدع أمة فى طبيعتها احترامه وفهمه مادام يعرف كيف يؤدى رسالته الإنسانية تأدية كاملة . ورب أديب كان فى أدبه أكبر من حكومة وفى أخلاقه بمقدار شعب ! . . .

« على الأديب أن يتوقع من إنتاج أدبه إحياء أمة يحيا هو فى حياتها . وإذا آمن بغير ذلك ، تبدل احترامه إلى ازدراء ، وانقلب إيمانه إلى انتحار . . . »

فى مجلات الغرب

من موسكو

مجلة الآداب السوفيتية *Soviet Literature* عدد ٧ (يوليو ١٩٤٦)

فى الأدب — اقرأ فى هذا العدد صفحة بقلم الكاتب ألكسندر أنيكست عن الشاعر السكوتلاندى روبرت برنز Robert Burns . وهذا الشاعر الذى مات منذ قرن ونصف قد ظفر فى أثناء القرن الماضى فى روسيا بشهرة واسعة . والكاتب الروسى يعرض علينا تأثير هذا الشاعر فى روسيا ، كما عرض من قبل تأثير شكسبير[1] . وقد أثار روبرت برنز إعجاباً عظيما فى بيئات الثائرين من الروس وهم الذين ترجموه لأول مرة . وقد نفى أحد مترجميه ميخائيل ميخائيلوف ومات وهو يعانى الأشغال الشاقة .

فى الفن — واقرأ فى العدد التاسع من هذه المجلة فى سبتمبر مقالا عن الشاعر الروسى مايكوفسكى Mayakovsky الذى انتحر منذ أعوام ، يعرض تطور هذا الشاعر فى التصوير الذى كان فنه الثانى وكيف استأثر به الشعر شيئاً فشيئاً . والكاتب يؤيد آراءه ببعض الصور ومن بينها صورة جميلة جدا لغلام ناشئ .

وتجد فى آخر العدد السابع من هذه المجلة حديثاً قصيراً عن النساء اللاتى يرأسن الفرق الموسيقية . ولا نكاد نعلم أن بلداً آخر غير روسيا يعرف رئيسات لهذه الفرق . وقد تتطوعت إحداهن وهى فيرا رود Véra Rode فى الجيش السوفييتى سنة ١٩٤١ . فكلفت تنظيم فرقة موسيقية لفرقة الحرس التى كانت تعمل فيها . وكان هذا يقع لأول مرة فى التاريخ . وقد تفوقت فرقة الحرس فى موقعة موسكو ونالت وسام الشرف كما نالت السيدة الموسيقية وساماً أيضاً . ثم مضت مع الفرقة وشهدت معها جميع المواقع ، وهى تدير فرقتها الموسيقية فى ثياب السهرة وقد حلت صدرها الأوسمة .

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٧ (فبراير ١٩٤٧) .

من باريس

مجلة الفكرة *La Pensée* عدد ٩ (أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر سنة ١٩٤٦)

وهى مجلة العقليين المحدثين ، واتجاهها يسارى جدا كما قلنا سابقاً.[١]

فى السياسة — بمناسبة العام المئوى لظهور كتاب برودون Proudhon العظيم « منهج التناقضات الاقتصادية أو فلسفة البؤس »[٢] ، نشرت مجلة « الفكرة » مقالا لجورج كونيو Georges Cogniot لم يتم فى هذا العدد .

وفى الصفحات التى تعرض علينا يدرس صاحب المقال ما يسميه « لغز برودون » . ويبدأ هذا البحث بملاحظات قصيرة فى تاريخ حياة الفكر الاشتراكى وفى مناهجه . ويذكر فى أول مقاله بعض الجمل التى كتبها برودون والتى كانت من أسباب شهرته ، التى أخافت أصحاب رءوس الأموال الفرنسيين فى القرن الماضى .

كانت لبرودون صيحة الحرب ، التى قيل عنها إنها كزئير الليث الجائع الذى يريد ترويع الطبقة الوسطى ، وهى : « إنما الملك هو السرقة » . وقال برودون أيضاً : « إنّ الصورة الوحيدة للحكم هى عدم الحكم » . ويختم جورج كونيو هذا القسم قائلا إن برودون يظهر مخيفاً أثناء ملك لويس فيليب وأثناء الجمهورية الثانية . ولكن يرى هو فى مذهب برودون تناقضات أى تناقضات ، وألغازاً أى ألغاز ! وأول دليل يعرضه علينا صاحب هذا المقال على تناقضات برودون هو أن الكتّاب والمفكرين ورجال السياسة الفرنسيين فى عهد فيشى استطاعوا أن يرجعوا إلى كتبه أكثر من مرة حين أرادوا أن يثبتوا أن سياسة الماريشال وأعوانه سياسة لها منابعها فى الفكرة الاشتراكية.

ثم يلتفت ج . كونيو إلى حياة

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٤ (نوفمبر ١٩٤٦) .

(٢) نعتذر إلى قراء « الكاتب المصرى » (عدد ١٨ مارس سنة ١٩٤٧) من خطا وقع فى عنوان رسالة كارل ماركس التى أصدرها رداً على كتاب برودون . والعنوان الصحيح لرسالة ماركس هو « بؤس الفلسفة » يعارض به عنوان « فلسفة البؤس » . وهذا الخطأ الذى ننبه إليه لم يأت منا نحن ، وإنما جاء من المسيو روبرت آرون الذى نقلنا نصه حرفيا فى مجلة « لانيف » *La Nef* عدد يناير سنة ١٩٤٧ ، ص ٣٧ .

برودون ، و يجعل لهذا القسم من درسه العنوان الآتى : « البورجوازى الصغير الحالم » .[١]

ويعتقد الكاتب أن فى هذا التعبير سر حياة برودون المأرجحة بين الثورة والرجعية ، حياة رجل « محافظ ومناصر للتقدم فى وقت واحد» كما قال برودون عن نفسه . وبعد تاريخ حياته ، يتجه صاحب المقال إلى طرق تفكيره ، ليعلم ويعلمنا ما هو الفرق بين برودون والاشتراكية العلمية . فالذى يفرق بين برودون وبين الاشتراكيين العلميين ، والذى يفرق بينه وبين كارل ماركس ، هو موقفه أمام المادية الاستنباطية . وهذا لأن برودون أبدل الاستنباط بالتوفيق . ومصدر هذا فى رأى جورج كونيو معرفة غير دقيقة بطرق الاستنباط عند مؤلف « فلسفة البؤس » . وهنا تقف القطعة الأولى لهذا المقال ، فلننتظر إتمامه لنعرف إلام يريد صاحبه . فالذى قرأناه للآن يشير إلى شئ من النقد اللاذع ضد برودون .

فى الجدال — فى نفس هذه المجلة شهرية تحت عنوان « جدال » ما أظن أنك تجد مثلها فى المجلات الأخرى . و إحدى المجادلات التى تظهر فى هذا العدد عنوانها « جان بول سارتر ، المركسية ، والعلم »[٢] . بعد قراءة الصفحة الأولى من هذه الشهرية يستطيع القارئ أن يسأل نفسه : ولماذا سميت هذه الشهرية « مجادلات » ولم تسم « فلسفة » أو ، على الأقل ، « مناقشات ؟ » . فالجواب على هذا السؤال فى الجمل الأخيرة للمناظرة بين ج . ب . سارتر وأندريه لانتين André Lentin (وهو محرر مجلة « الفكرة » الذى رد على مقالين لجان بول سارتر ظهرا فى مجلة «العصور الحديثة» فى نقد المادية الاستنباطية) . والجواب على هذا السؤال الساذج ، كما قلنا ، فى لطف هذه الأسطر الأخيرة من المجادلة : « هذه هى السخافات البارعة التى يمكن أن تقيد فى ثلاثة صفحات فقط . فأما البحث الكامل عما فى المقال من أغلاط فيحتاج إلى مجلد ضخم من الحجم المتوسط . ومن حيث إن لدى مجلة « الفكرة » أشياء أخرى تستحق النشر فإننا نقف بالنفقات عند هذا الحد . »

---

(١) *L'utopiste petit-bourgeois*

(٢) *Jean-Paul Sartre, le Marxisme et la Science*

مجلة لارش *L'Arche* (عدد ٢١)

في الأدب – كلنا يعرف أن مسألة اليوم في أدب الغرب وفلسفته تدور حول ثلاثة أسماء هي : « كيركجارد ، هيدجر وكافكا ».(١)

وجعل مكس برود هذه الأسماء عنواناً لمقاله في هذا العدد من مجلة « لارش » . وهو مقال قد يهتم به الذين يعنيهم أمر هؤلاء الكتاب الثلاثة وإن كان شديد الغموض .

إقرأ أكثر من مرة مقالا قصيراً ولكنه بعيد المدى ، عنوانه « ظروف الشعر » وصاحبه الشاعر الفرنسي بيير ريفيردي(٢) ، يحاول فيه أن يعطي عن الشعر تعريفات دقيقة ولكنها مقاربة ؛ لأن التحديد غير ممكن بالنسبة إلى موضوع مجرد كالشعر . وغاية بيير ريفيردي أن يقول ما هو الشعر وأين يكون ، بعد أن يبين ما ليس شعراً . فيرى أولا أن الشعر ليس في الأشياء ، إذ لو كان فيها لاستطاع كل واحد منا أن يجده وأن يكون شاعراً . « فالشعر عند الكاتب نقص ، أو فراغ في قلب الانسان ، أو بعبارة أدق ، هو قدرة الشاعر على أن يسد هذا النقص ويملأ هذا الفراغ . »

مجلة فونتين *Fontaine* عدد ٥٧ (ديسمبر ١٩٤٦ - يناير ١٩٤٧) .

في الأدب – بعد مجهود بيير ريفيردي في تحديد الشعر ، نجد نفس المحاولة بالنسبة إلى القصة في مقال كتبه جايتان بيكون (٣) عن كتاب عنوانه « الزمان والقصة » لجان بويون (٤) قسم الناقد مقاله إلى ثلاثة أقسام : في القسم الأول يعرض علينا تحديد القصة عند الكاتب ، فالقصة باختصار « هي التعبير عن الواقع » إنما الواقع الانساني كائن في الزمان ، فالقصة إذاً وصف له . وفي القسم الثاني من نقده

---

(١) Max Brod, *Sur Kierkegaard, Heidegger et Kafka*

(٢) Pierre Reverdy, *Circonstances de la poésie*

(٣) Gaëtan Picon, *D'une philosophie du Roman*

(٤) Jean Pouillon, *Temps et Roman*

هذا ، يجادل الناقد فى تعريف القصة بأنها التعبير عن الواقع . وحسبى أن أنقل جملة من ختام هذا الجدال لأعطى فكرة تقريبية عن رأى الناقد، فهو يقول إن القصة « هى الميدان الذى يظفر فيه الكذب نفسه بحقه فى الوجود بحيث نرى فيه حقا كل تصوير خالص للانسان » . أما القسم الثالث فيبين فيه صاحب المقال رأيه هو فى المشكلة وبنوع خاص قلقه أمام هذه الفلسفة الجديدة للقصة . أليست هى صورة من النظريات الفنية التقليدية التى صورتها الفلسفة الخالدة والتى يرفضها الفنانون دائماً ؟

من لندن

مجلة هوريزن Horizon (فبراير سنة ١٩٤٧)

فى الأدب — إقرأ فى هذا العدد مقالا قيما عن الأديب والمؤرخ ليتن ستراكى لجون راسل[١] . يقول الكاتب عن هذا الأديب الكبير فى أول مقاله إنه ناصح وصديق لا بد منه للذين يقوّمون التقليد الانسانى فى انجلترا وفرنسا . وبعد أسطر قليلة يحاول فيها أن يصور هيئة ليتون ستراكى، جعل يدرس شخصيته ، فيذكر قول ناقد فرنسى فى الدين عن بيل Bayle ويطبقه على مؤلف « الذبث و إسكس » « إنه لا يتهم الإله ، بل يربكه » . ثم يلتفت جون راسل إلى رأى ستراكى فى التاريخ ، فيرى أن هذا العلم عنده ليس شيئاً مكتوباً ، ولكنه شئ يدور حول الحديث أو بعبارة أوضح ، إن التاريخ عند ليتون ستراكى كان سلسلة من المناجاة بينه وبين أشخاص اختارهم ، فهو ، كما يقول الناقد ، « متخصص فى الإلف » intimiste وقد حاول المؤرخ البريطانى أن يؤلف مثل التراجم القصيرة التى ألفها الفرنسيون أمثال فونتنيل Fontenelle وكوندرسيه Condorcet . ولا سبيل إلى أن ننقل للقارئ ما يعرضه ناقد مجلة « هوريزون » فى براعة و إتقان . فحسبى أن أشير للقارئ إلى هذا المقال الشامل الممتع .

أمينة طه حسين

---

(١) Lytton Strachey, by John Russell

الاكليريكية الفرنسيسكانية الشرقية
الجيزة - مصر

✠

كيرليانا

دراسات مختلفه
بمناسبة مرور ألف وخمسمائة سنة على وفاة
القديس كيرلس الأسكندري

٤٤٤ - ١٩٤٤



القاهرة
دار الكاتب المصري
١٩٤٧ ميلادية